القراءة الراشدة

يم اللغة العربية في المدارس الإسلامية

ٱلطَّبعَةُ ٱلسَّابِعَةَ عَشَرَةَ ٱلشَّرعِيَّة

طبعة دار ابن كثير الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - تلفون: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ تلفون: ٨١٧٨٥٧ - ٠٣-٢٠٤٤٥٩



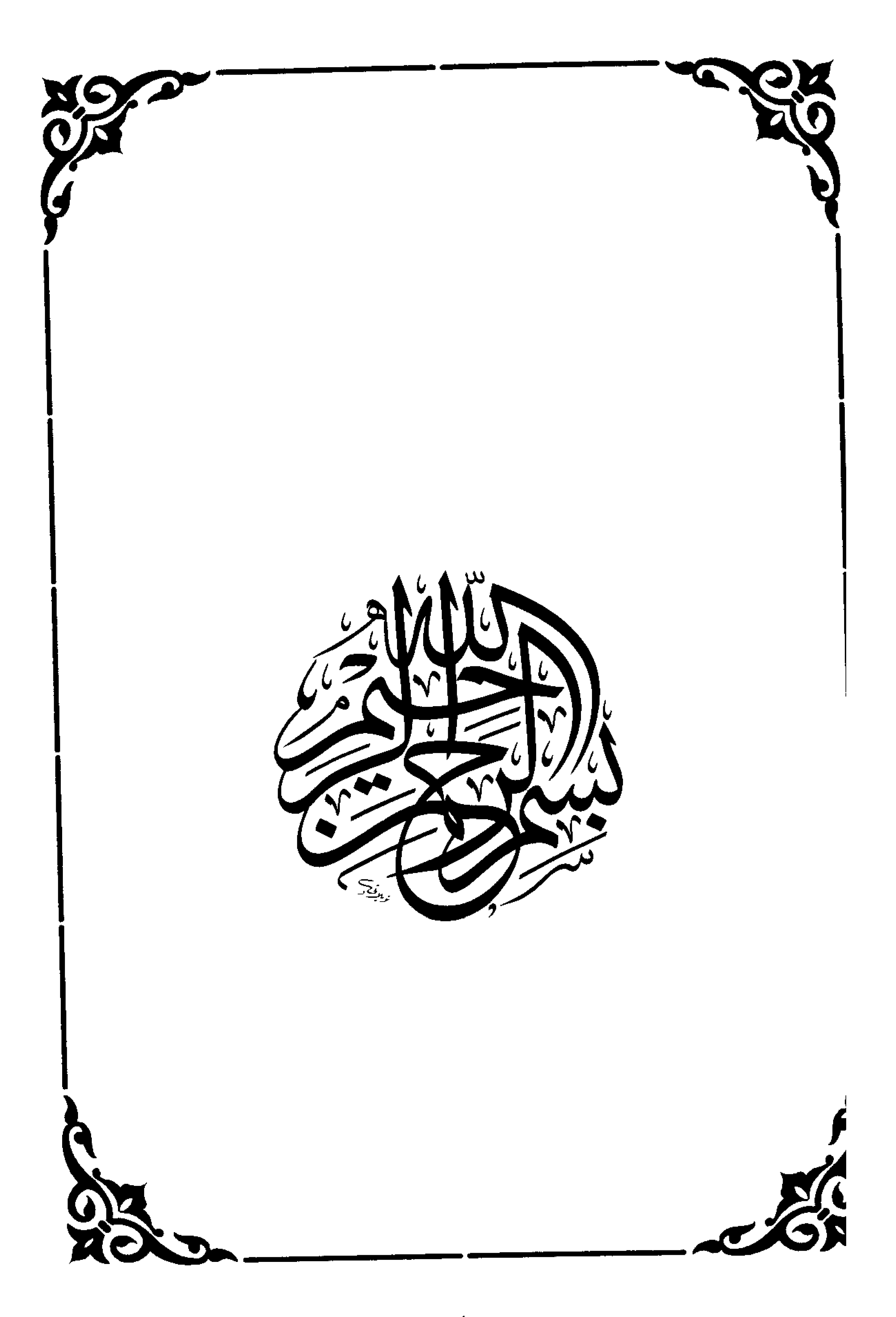
العلامة السيد أبو الحسن الندوي

راجعه وشرح ألفاظه
سيد عبد الماجد الغوري

الجُزءُ الأوَّلُ - الجُزءُ الثَّاني



دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ وبعد:

فلا يخفى على من يعرف العلامة الشيخ السيد أبا الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ ما قام به من أعمالٍ جليلةٍ ، وجهود عظيمةٍ لخدمة الأدب العربي والإسلامي ، والَّتي توَّجها ـ حفظه الله ـ أخيراً بتأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالية ، والَّتي لا تزال تنمو وتزهر في ظل رعايته ، وذلك إلى جانب مصنفاته القيمة الَّتي أثرت المكتبة الإسلامية.

وقد اعتنى العلامة الندوي بالكتابة للأطفال والناشئين ، بوصفهم رجال الغد ، وصنَّاع مستقبل الأمم ، فكتب مجموعةً من الكتب منها «قصص النبيين للأطفال» و«قصص من التاريخ الإسلامي» في لغةٍ سهلةٍ ، وأسلوبٍ عذبٍ سلس مشوّق مضمِّناً إياها من المعاني والقيم ، والدروس والعبر ، ومن المبادىء

والمُثُل حتى قال أحد كبار علماء الهند الشيخ عبد الماجد الدريابادي : «إنها علم توحيد جديد للأطفال» .

ولعل هذا الكتاب الَّذي بين يديك ـ عزيزي القارىء ـ من أهم حلقات تلك السلسلة الذهبية في أدب الأطفال ، إذ بدأ العلامة بتأليفه ـ كما يذكر في مقدمة هذا الكتاب ـ حين شعر بمسيس الحاجة إلى كتاب يؤلَّف للناشئة المسلمة للتدريس في المعاهد والمدارس ، يحتوي على مواد اللغة والأدب المتنوعة بأسلوب متدرج ملائم ، ولغةٍ أدبية دينية عليها مسحة من جمال أدب الكتاب والسنة ، ويكون استعمال كلماته المستحدثة الَّتي لها أصل عربي واشتقاق صحيح لموضوعات عصرية ، وتتكرر فيه المفردات العربية ليتمرَّن عليها الطالب ، وتتنوع موضوعاته ومواده لينشط الطالب ويحصل منها فضلاً عن الفائدة العلمية إلى حكاية تاريخية ممتعة شيقة ، ومن نثر إلى شعرٍ أو نشيدٍ .

فبدأ العلامة بتأليفه سنة ١٩٤٤ م ، وفرغ منه سنة ١٩٤٦ م ، مراعياً خلال التأليف ـ غير جميع ما ذكرناه ـ ألا تخلو موضوعاته ـ قدر المستطاع ـ من موعظةٍ دينيةٍ وموضع عبرةٍ ، وأن يستنتج منها الطالب فائدة خلقية ودينية ، وأدباً إسلامياً بحيث لا يشعر بأنها تلقى عليه إلقاءً ، بل يحفظها عفواً في ثنايا الدروس والحكايات .

وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٩٤٧ م ، ونالَ منذ يومه الأول قبولاً حسناً ورواجاً عاماً ، وقرر في كثير من المدارس الشرعية والمعاهد العصرية الرسمية في الهند وخارجها في البلاد الإسلامية .

وقد شعرت خلال قراءتي ومراجعتي لهذا الكتاب بالحاجة إلى شرح بعض الألفاظ وأسماء بعض البلدان الهندية وغيرها من البلاد الأخرى الَّتي يصعب على الطالب فهمها ، فشرحت وعلقت ما وسعني فيه الجهد ، وعلى الله قصد السبيل .

تلميذ المؤلِّف

عبد الماجد الغوري

٣/ جمادى الأولى ١٤٢٠ هـ

التعريف بمؤلِّف الكتاب

اسمه ونسبه:

* علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمّد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، أول من استَوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧ هـ).

* أبوه العلاّمة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني الذي استحق بجدارة لقب: «ابن خلكان الهند» «لمؤلفه القيم» «نزهة الخواطر» في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم، طُبِعَ أخيراً باسم «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام».

* أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربّيات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته:

* أبصرَ النورَ في ٦ محرم ١٣٣٣ هـ الموافق عام ١٩١٤ م بقرية «تكية كلان» الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

* بَدَأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت، ثم دَخَلَ في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية) .

* توفي أبوه عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي .

* بدأ دراسته العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤ م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب

العربي ، ثمّ توسَّعَ فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

* التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧ م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونالَ منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمة في اللغة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتَعَلَّم الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

* التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩ م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاَّهوري في لاهور عام ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م ، وحَضَرَ دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

جهوده العلمية ونشاطاته الدعويّة:

* انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤ م ، وعُيِّنَ أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، خلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلّات العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين.

* قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩ م ، تَعَرَّفَ فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبَقِيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتَلَقَّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأَسَّى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدَّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها.

* أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس

القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣ م ، وأَسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١ م، والمجمع الإسلامي العملي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩ م.

* عُيِّنَ أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١ ، (ولا يزال يترأس أمانتها إلى يوم وفاته).

* شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠ م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤ م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢ .

أهمّ مؤلفاته:

* نُشِرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة «المنار» للعلاّمة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١ م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ أربعة عشر عاماً.

* ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧ م يحمل اسمه «سيرة أحمد شهيد» ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان.

* بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أوّل

كتاب فيها بعنوان «مختارات من أدب العرب» عام ١٩٤٠م، و«قصص النبيين» للأطفال و«القراءة الراشدة» عام ١٩٤٤م. وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية.

* ألَّفَ كتابه المشهور «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عام ١٩٤٤ م.

* دُعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م، وألْقىٰ محاضرات بعنوان «التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي» نُشِرتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».

* ألَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان «القادياني والقاديانية» عام ١٩٥٨ م، وكتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية» عام ١٩٦٥ م وكتابه «الأركان الأربعة» عام ١٩٦٧، و«السيرة النبوية» عام ١٩٧٦ م، و«العقيدة والعبادة والسلوك» عام ١٩٨٠ و«المرتضىٰ» في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨ م.

* شارك في تحرير مجلة «الضياء» العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢ ومجلّة «الندوة» الأردوية

الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠ ، وأَصْدَر مجلّة باسم «تعميرحيات» في الأردوية عام ١٩٤٨ م ، وكَتَبَ مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمهات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ: «الرّسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات و«الفتح» للأستاذ محب الدين الخطيب و«حضارة الإسلام» للدكتور مصطفىٰ السباعي.

* أشْرَفَ على إصدار جريدة «نداي ملّت» الأردوية عام ١٩٦٢ م ، وكذلك أشرف على مجلّة «البعث الإسلامي» العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥ م وجريدة «الرائد» العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩ م ومجلة «تعميرحيات» الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣ م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند).

رحلاتـه:

* سافَرَ إلى الشرق والغرب مرات داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كل مجال ، جواباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، واعظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ،

والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيهما[1] .

تقدير وتكريم:

* انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .

* اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢ م .

* اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١ م .

* اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠ م ، لتأليفه القيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» .

* منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١ م .

---

(١) انظر للاطلاع على جميع هذه الرحلات كتاب الشارح «رحلات العلامة أبي الحسن علي الندوي ، مشاهداته ـ محاضراته ـ لقاءاته ـ انطباعاته» صدر عن دار ابن كثير ، دمشق عام ٢٠٠٠م .

* اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣ م.

* اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن).

* اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤ م.

* أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩ م في إستانبول «تركيا».

* اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩ هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية، وقَدَّمَ إليه الجائزةَ ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم.

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع:

* تولَّىٰ العلامة الرئاسةَ والعضويةَ لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه، ومنها على سبيل المثال:

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (الّتي أخذت صفة

العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتَفَوَّقَتْ على معظم جامعات العالم الَّتي تَهْتَمّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع).

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض).

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند).

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا).

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند.

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش).

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية الأردني.

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن.

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان).

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند).

* وعدا ذلك تولّى العلامةُ الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه. توفي ـ العلامة ـ في ٢٢ من شهر رمضان المبارك ١٤٢٠هـ (الموافق ٢١ من شهر ديسمبر ١٩٩٩م) في الهند عقب نوبة قلبية مفاجأة، فدفن في مسقط رأسه «تكية كلان»، رحمه الله وتغمَّده في وسيع جناته[١].

* * *

(١) انظر كتاب «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» للشارح، للاطلاع على حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية، ومآثره القيمة في مجال الأدب، وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية، وتعريف بأهمّ مؤلّفاته، صَدَرَ عن «دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩ م».

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة عن الكتاب

(بقلم العلامة المؤلف ـ رحمه الله ـ)

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد ، فإن الهند منذ فتحها الإسلام لا تزال تدين بتدريس اللغة العربية ، وتعتقد أنها لغة الإسلام ، ومفتاح كنوز الكتاب والسنة ، ونبغ فيها أدباء ومؤلفون في اللغة العربية يتجمل تاريخ الإسلام بذكرهم ، وتزدان بمؤلفاتهم مكتبة الإسلام العامرة .

انقرضت من الهند دولة المسلمين ولم يطو بساط المدارس الإسلامية ، فلا تزال مصابيحها تضيء بين عواصف ورياح هوجاء ، وهي الآن تعد بالآلاف ، والمتعلمون فيها يربو عددهم على إحصاء بعض البلاد الإسلامية .

ولم يزل للهند منهاج خاص في العلوم العقلية والرياضية

والعلوم الآلية ، من وضع علماء الهند أو من اختيارهم ، نال قبولاً في الأقطار الإسلامية البعيدة ، فكانت مؤلفاتهم وشروحهم تدرس ، ويتمجد العلماء بتدريسها والاقتدار على شرحها ، ويتظرف الطلبة بدرسها وفهمها حتى كان منهاج الدرس النظامي من اختيار العلامة نظام الدين اللكهنوي (م ١١٦١ هـ) ومن وضع نجباء تلاميذه وتلاميذهم ، فكان له دوي في العالم الإسلامي ، ونفوذ عجيب في الأوساط العلمية.

بجانب هذه الثروة العلمية الضخمة والغنى الوافر في ناحية علوم الحكمة ـ كما يسميها القوم ـ ترى عوزاً شائناً وتفريطاً عظيماً في ناحية اللغة العربية ، فإذا أسقطنا من منهاج الدرس قسط الشعر وصرفنا النظر عن كتاب الحماسة والمعلقات السبع وديوان المتنبي ـ فإن كل ذلك لا يعلم اللغة ولا يمرن على الكتابة والخطابة ، بل يروض الفكر ويفتح القريحة ويبعث الذوق ـ لم نجد في منهاج درسنا القديم ما يتعلم به الطالب اللغة ويتعرف بها غير مقامات الحريري ، والمقامات ـ كما يعرف القارىء ـ مثال للنثر الفني والأدب الصناعي ، وإذا شئت قلت مثال لفن البيان والبديع لا للنثر العربي الطبعي السلسال ، ولا يمكن أن يتعلم بها الطالب مبادىء اللغة العربية ، ويتدرب على الكتابة والخطابة ويقضي حاجة في نفسه ، ومن ثم كان من

حظ الأدباء والمنشئين في العربية في هذه البلاد النثر المقيد المغلول ، والأدب السقيم المسلول ، والقلم المنثلم المغلول ، واللسان المتلجلج الخذول.

درج على ذلك أجيال خلف أجيال ، وانسلخت قرون إثر قرون ، ولا ندري كيف كان ذلك إلا أنا لا نرى كتاباً في النثر العربي يدرس في المدارس غير المقامات إلى القرن الثالث عشر الهجري ، حتى جاء الشيخ أحمد الشرواني من اليمن وألف كتاباً صغيراً يشتمل على قصص وحكايات فكاهية ، ونوادر وملح وأبيات ، وسماه «نفحة اليمن» فاهتبله علماء الهند كأنما هبط من علياء لما هم فيه من فاقة إلى كتاب يدرسه الطلبة قبل المقامات ، وعضوا عليه بالنواجذ ، وهم منذ ذلك اليوم عكوف عليه لا يرون منه محيصاً.

وشعر بعض الأوساط بما فيه من خلل وخطل ، وسوء تمثيل للحضارة الإسلامية وسيرة المسلمين السلف ، وعبث بعقلية الأطفال الأبرياء بما فيه من مجون وهزل ، فاستعاروا كتباً مؤلفة من البلاد العربية ، ولكن سرعان ما علموا أنها على نقاء لغتها وحسن وضعها واحتوائها على مادة علمية نافعة لا توافق ذوق المسلمين في الهند وباكستان وما جاورها من البلاد ، ولا تقضي حاجة رجال التعليم في هذه البلاد ، وتشتمل على

مادة في تاريخ البلاد التي ألفت فيها ، وتراجم رجالها البلديين ، وجغرافية تلك البلاد ، إن أبناء هذه البلاد في غنى عن معرفتها فضلاً عن حفظها ، وإن أبناء الهند وغيرها من الأقطار الإسلامية في حاجة إلى معرفة المهم والممتع من جنسها مما يخص بلادهم ، أو مما يعم المسلمين جميعاً.

فترى مثلاً في الجزء الأول من القراءة الرشيدة التي وضعتها وزارة المعارف العمومية في مصر ، والتي تدرس في بعض المدارس العربية في الهند ، درساً عن جزيرة الروضة في القاهرة ، ونشيداً عن مصر العزيزة ، ودرساً عن عيد وفاء النيل ، وفي الجزء الثاني حواراً بين مصر والإسكندرية ، ودرساً عن الأهرام والقناطر الخيرية ، وعن محمد علي باشا ، وقس على ذلك بقية الأجزاء ، وقس عليها السلاسل الأخرى.

ماذا يهم الطالب الهندي أو الباكستاني أو الحجازي أو الأفغاني ، من معرفة هذه الموضوعات المصرية ، ولماذا يحفظ نشيد الفخر المصري ويتغنى:

مصر العزيزة لي وطن   وهي الحمى وهي السكن
وهي الفريدة في الزمن   وجميع ما فيها حسن

ولماذا يعترف وهو في مرحلة التعليم الأولي بعظيم مصر محمد علي باشا ، وهو أحق بمعرفة من هو أعظم من خديوي

مصر وأهم في التاريخ الإسلامي ، كذلك يعز على الطالب الصغير الذي لم ينشأ في مصر أنْ يفهم الدروس الخاصة بمصر ، لبعده عن الديار المصرية ، وجهله للعوائد والتقاليد المصرية كما ترى في درس عيد وفاء النيل .

أفلا يحسن بنا أن نبدل منها دروساً في السيرة النبوية ، وفي تاريخ الإسلام ، وعن رجال الإسلام وأئمته ، وإذا كان لا بد من موضوعات بلدية ـ وإنها لا شك منشطة لذهن الطالب الصغير ـ فلماذا لا نضع دروساً عن الأمكنة والآثار والأبنية الوطنية التي شادها المسلمون في البلاد ، وعن أعياد ومواسم إسلامية ، فإذا كان ذلك في الهند أو باكستان مثلاً ، نضع للطالب درساً خاصاً ببلاده أو عاماً للمسلمين ، كدروس عن آثار الملوك الإسلاميين في هذه البلاد أو في العالم الإسلامي .

وكذلك في الرجال هو أحق بمعرفة فاتحي الهند والغزاة المنتصرين والملوك الصالحين ، ورجال العلم والدين الذين أنجبتهم أرض الهند .

زد على ذلك كله أن هذه الكتب المؤلفة في البلاد العربية عارية عن الروح الديني لمصالح تعليمية وسياسية في تلك البلاد ، أو لثقافة أبنائها الحديثة ، ولا يرضى المسلم في شبه قارة الهند أن يجرد اللغة العربية وأدبها من الروح الديني ،

ويدرس اللغة العربية كلغة بشرية عامة لها أدبها وجمالها ، لأن صلة العجم باللغة العربية إنما هي عن طريق الدين والكتاب المبين ، وسنة سيد المرسلين عليه الصلاة والتسليم ، وإنما يعنيه أمر اللغة العربية لأنها لغة لا يتوصل بغيرها إلى منابع الدين ومشارعه الصافية ، فيجب أن يستعان بها على دراسة الكتاب والسنة بغير واسطة . ويتقرب إلى تلك البيئة التي نبع منها الأدب الإسلامي بأوسع معنى الكلمة ، فإذا انقطعت الصلة بين اللغة والدين والأدب الإسلامي كان للهندي ولكل عجمي قليل رغبة في هذه اللغة الكريمة .

كل ذلك كان يطالب بأن يكون للمسلمين في بلاد العجم منهاج درس خاص بهم ، يضعونه وفقاً لشؤونهم الخاصة ، وتبعاً لطبيعتهم الدينية .

إن عاراً على المسلمين الهنديين والباكستانيين ـ وقد ظفروا بالاستقلال السياسي ـ أن لا يكون لهم استقلال في مناهج التعليم ، مع أن الاستقلال العلمي والفكري مقدمان على الاستقلال السياسي ، وكل استقلال سياسي لا يسبقه أو لا يدعمه استقلال علمي فكري ، تطرق إليه الوهن سريعاً ، وتسرب فيه الرق الفكري أو العلمي ، ثم تبعه الرق السياسي .

كان من أهم الواجبات في هذه الأيام أن يعنى العلماء

ورجال التعليم الديني بوضع منهاج تعليمي رشيد حكيم يفوق مناهج التعليم اللادينية في السهولة وتوفير الوقت ومراعاة نفسية الصغار ، ويمتاز عنها في التربية الخلقية والدينية وتهذيب النفس ، مع إفادة الطالب بكل ما تهم معرفته من الشؤون الكونية والتاريخية والمواد العامة ، مبنياً على أحدث مبادىء التعليم واختياراته .

وكان من حق هذه المهمة العلمية الدينية الجليلة ـ ولها خطرها وأثرها في حياة المسلمين وفي مستقبل التعليم الديني ـ أن تتألف لها لجان من العلماء والمعلمين الكبار وأصحاب المعاهد الجليلة ، وأن يبذلوا في سبيلها قسطاً صالحاً من أوقاتهم وجهودهم ، وأن يقدموها على كثير من أشغالهم العلمية والسياسية ، فإن هذه المهمة الواسعة المعقدة لا يستقل بها الأفراد ، وإنها لتنوء بالعصبة أولي القوة ، ولكن العلماء ـ مع الأسف ـ في شغل شاغل عن هذا العمل الجدي الذي يقتضي صبراً طويلاً وعناء شديداً واختياراً واسعاً وتعاضداً قوياً ، ثم إنه كثير الخطر بطيء الأثمار قليل الاشتهار .

إن خطر هذه المهمة وجلالتها وإن الأخطار المحدقة بنظام التعليم الديني التي تهدد حياة المسلمين الدينية ، واشتغال الأكفاء عنه بما هو أهم لديهم منه ، حث مؤلف هذه الكتب

على أن يكون جندياً مغامراً في سبيل هذا الجهاد ، وأن يكون عاملاً صغيراً في مهمة التعليم الديني ، وأن يؤدي من حقوق هذه اللغة الكريمة ، ومن حقوق المعلمين الذين حببوا إليه هذه اللغة وسهلوها له ما يستطيع ، وأن يقوم بإذن الله بجزء من أجزاء هذا العمل الجليل رغم ضعف صحته وتشتت باله ، وانشعاب فكره وتزاحم أشغاله وكثرة أسفاره.

قام المؤلف أولاً بوضع مجموعة المختارات في الأدب العربي ، فجاءت بإذن الله تعالى مجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية والتهذيبية من العصر الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري ، تجمع بين ألوان الأدب العربي المختلفة وبدائعه من وحي سماوي وبلاغة نبوية ، وخطب لأشهر خطباء العرب في أزهر عصور العربية وروايات وقصص ورسائل وكتب ، ومناقشات ومحاورات ورحلات وأحاديث منزلية متبسطة ، وجد وهزل وحكمة ولهو ، تلقاها بعض الدوائر العلمية والمعاهد - على بطء - بالقبول ، وأدخلتها في مناهج الدرس.

ثم رأى المؤلف كتباً صغيرةً لبعض أدباء مصر في حكايات الأسد والذئاب ، والقردة والدباب ، حتى الخنازير والكلاب ، فصيحة العبارة قليلة المغزى ، عربية الوضع أفرنجية الروح ،

إسلامية اللغة جاهلية السبك ، فيها صور الحيوانات في اللباس الغربي ، فساءه أن لا يقرأ أبناء المسلمين في العربية أيضاً إلا قصص الحيوانات والأساطير والخرافات ، فكتب لهم قصص الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، بأسلوب سهل يحاكي أسلوب الأطفال وطبيعتهم من تكرار الكلمات والجمل ، وسهولة الألفاظ وبسط القصة ، وزين الكتاب بصور مناظر الطبيعة والأبنية المقدسة ، وقد وصفها المرحوم الأستاذ مسعود عالم الندوي بأنها تعلم مبادىء الدين أولاً والأدب ثانياً .

ثم رأى المؤلف أن كل ذلك لا يسد مسد سلسلة القراءة التي تحتوي على مواد في اللغة والأدب متنوعة بأسلوب تدريجي ملائم لذوق الناشئة المسلمة الهندية ، ونشء البلاد الإسلامية عامة ، فوضعها في أجزاء واجتهد في :

(١) أن تكون اللغة أدبية دينية عليها مسحة من جمال أدب الكتاب والسنة .

(٢) استعمال الكلمات المستحدثة التي لها أصل عربي واشتقاق صحيح لموضوعات عصرية قد عول المؤلف فيها في الغالب على قرارات مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، حتى لا يلجأ الطالب في استعمال الكلمات العجمية أو الدخيلة ،

أو يكون له لسان أخرس في المناسبات العصرية.

(٣) تكرار المفردات العربية حتى يتمرن عليها الطالب.

(٤) تنوع الموضوعات والمواد لينشط الطالب وينتقل فيها من فائدة علمية إلى حديث ممتع وحوار لذيذ، ومن درس علمي إلى حكاية تاريخية، ومن نثر إلى شعر أو نشيد.

(٥) نقل الحكايات الواردة في الحديث إلى لغة تنشأ على أسلوب الحكايات الموضوعة للأطفال.

(٦) دروس خلقية تهذيبية تعلم الآداب الإسلامية في مختلف نواحي الحياة.

(٧) تضمين الدروس الأدعية المأثورة والآداب الدينية بحيث لا يشعر الطالب بأنها تلقى عليه إلقاء بل يحفظها عفواً في ثنايا الدروس والحكايات.

(٨) الروح الديني الساري في الكتاب بحيث لا يمكن تجريد الكتاب منه، ويعم ذلك الدروس الدينية ودروس المعلومات الكونية والطبيعية والحيوانية والنباتية وعن الاختراعات الحديثة.

وإلى القراء، أصحاب المدارس وأولياء الأطفال الجزء

الأول من هذه السلسلة ، وسيتلوه إن شاء الله الأجزاء الأخرى ، والله المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب وبيده العصمة والتوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أبو الحسن علي الحسني
لخمس بقين من رجب ١٣٦٥ هـ
دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

كَيْفَ أقضي يَوْمِي

أَنَامُ مُبَكِّراً[1] فِي اللَّيْلِ وَأَقُومُ مُبَكِّراً في الصَّبَاحِ ، أَسْتَيْقِظُ عَلَى اسْمِ اللهِ وَذِكْرِه ، أَسْتَعِدُّ لِلصَّلاةِ ثُمَّ أَذْهَبُ مَعَ وَالِدي إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَالْمَسْجِدُ قَرِيْبٌ مِنْ بَيْتِي ، فَأَتَوَضَّأُ وَأُصَلِّيْ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، وَأَرْجعُ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَأَتْلُو شَيْئاً مِنَ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ ، ثُمَّ أَخْرُجُ إِلَىٰ الْبُسْتَانِ وَأَجْرِيْ ، ثُمَّ أَرْجعُ إِلَى الْبَيْتِ فَأَشْرَبُ اللَّبَنَ وَأَسْتَعِدُّ لِلذَّهَابِ إِلَى المَدْرَسَةِ ، وَأَفْطِرُ إِذَا كَانَتْ أَيَّامُ الصَّيْفِ ، وَأَتَغَدَّىٰ إِذَا كَانَتْ أَيَّامُ الشِّتَاءِ ، وَأَصِلُ إِلى الْمَدْرَسَةِ فِي الْمِيْعَادِ .

وَأَمْكُثُ فِي الْمَدْرَسَةِ سِتَّ سَاعَاتٍ ، وَأَسْمَعُ الدُّرُوْسَ بِنَشَاطٍ

---

(١) مبكّراً: مُسْرِعاً.

وَرَغْبَةٍ ، وَأَجْلِسُ بِأَدَبٍ وَسَكِيْنَةٍ[1] ، حَتَّىٰ إِذَا انْتَهَى الْوَقْتُ وَضُرِبَ الْجَرَسُ خَرَجْتُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ وَرَجَعْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ.

وَلاَ أَقْرَأُ بَعْدَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَىٰ الْمَغْرِبِ ، وَفِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ أَمْكُثُ فِي الْبَيْتِ ، وَفِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ أَذْهَبُ إِلَىٰ السُّوْقِ وَأَشْتَرِي حَوَائِجَ الْبَيْتِ[2] ، وَفِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ أَخْرُجُ مَعَ أَبِيْ أَوْ أَخِيْ إِلَىٰ بَعْضِ الأَقَارِبِ ، أَوْ أَلْعَبُ مَعَ إِخْوَتِي وَأَصْدِقَائِيْ.

وَأَتَعَشَّىٰ مَعَ وَالِدِيْ وَإِخْوَتِيْ وَأَحْفَظُ دُرُوْسِيْ ، وَأُطَالِعُ[3] لِلْغَدِ وَأَسْتَعِدُّ لِلدَّرْسِ ، وَأَكْتُبُ مَا يَأْمُرُ بِهِ الْمُعَلِّمُ ، وَأُصَلِّيْ الْعِشَاءَ وَأَقْرَأُ قَلِيْلاً ، ثُمَّ أَنَامُ عَلَىٰ اسْمِ اللهِ وذِكْرِهِ.

تِلْكَ عَادَتِيْ كُلَّ يَوْمٍ لاَ أُخَالِفُهَا ، وَأَقُومُ مُبَكِّراً يَوْمَ الْعُطْلَةِ أَيْضاً ، وَأُصَلِّيْ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَأَتْلُو الْقُرْآنَ ، وَأَقْضِيْ الْيَوْمَ فِيْ مُطَالَعَةِ كِتَابٍ وَمُحَادَثَةٍ مَعَ أَبِيْ وَأُمِّيْ وَإِخْوَتِيْ ، وَفِيْ زِيَارَةِ قَرِيْبٍ أَوْ عِيَادَةِ مَرِيْضٍ ، وَأَمْكُثُ أَحْيَاناً فِي الْبَيْتِ ، وَأَخْرُجُ أَحْيَاناً إِلَى الْخَارِجِ.

* * *

---

(١) السكينة: الهدوء ، والطمأنينة.

(٢) حوائج البيت: مرافق البيت.

(٣) طَالَعَ يُطَالِعُ مُطَالعة الكتاب: قرأه.

(٢)
لمَّا بَـلَغْتُ السَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِيْ

لَمَّا بَلَغْتُ السَّابعَةَ مِنْ عُمُرِيْ أَمَرَنِي أَبِيْ بالصَّلاَة ، وَكُنْتُ تَعَلَّمْتُ كَثِيراً مِنَ الأَدْعِيَةِ وَحَفِظْتُ سُوَراً مِنَ الْقُرآنِ الْكَرِيم مِنْ أُمِّيْ ، وَكَانَتْ أُمِّيْ تَتَكَلَّمُ مَعِيْ كُلَّ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْمَنَام فَـتَـقُصُّ عَلَيَّ قِصَصَ الأَنْبِيَاءِ ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ هٰذِهِ الْقِصَصَ بِنَشَاطٍ وَرَغْبَةٍ .

وَبَدَأْتُ أَذْهَبُ مَعَ أَبِيْ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ ، وَأَقُوْمُ فِيْ صَفِّ الأَطْفَالِ خَلْفَ صَفِّ الرِّجَالِ ، وَلَمَّا بَلَغْتُ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِيْ قَالَ لِيْ مَرَّةً : قَدْ أَكْمَلْتَ الآنَ مِنْ عُمُرِكَ تِسْعَ سِنِيْنَ ، وَالآنَ أَنْتَ ابْنُ عَشْرِ سِنِيْنَ فَإِذَا تَرَكْتَ صَلاَةً ضَرَبْتُكَ ، لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : مُرُوْا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِيْنَ ، وَاضْرِبُوْهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ .

وَقَصَّ عَلَيَّ أَبِيْ قِصَصَ الأَطْفَالِ الَّذِيْنَ حَافَظُوا عَلَىٰ الصَّلاَةِ فِي الصِّغَرِ ، وَكَانَ لَهُمْ شَأْنٌ فِي الْكِبَرِ .

قُلْتُ: يَا أَبِيْ! إِنَّكَ لاَ تَحْتَاجُ إِلىٰ أَنْ تَضْرِبَنِيْ وَسَأُحَافِظُ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ، وَكَذٰلِكَ فَعَلْتُ، فَقَدْ كُنْتُ أُصَلِّيْ أَيْنَمَا كُنْتُ، كُنْتُ إِذَا ذَهَبْتُ إِلَىٰ السُّوْقِ أَوْ كُنْتُ فِيْ شُغْلٍ وَأَدْرَكَتْنِي الصَّلاَةُ فِيْ مَكَانٍ صَلَّيْتُ، لأَنِّيْ أَرَىٰ النَّاسَ لاَ يَخْجَلُونَ مِنَ الأَكْلِ إِذَا جَاعُوْا، وَاللَّعِبِ إِذَا أَرَادُوْا، فَلَمَاذَا أَخْجَلُ مِنَ الصَّلاَةِ؟ وَإِنَّ الصَّلاَةَ لَفَرِيْضَةٌ، وَإِنَّ الصَّلاَةَ لَشَرَفٌ لِلْمُسْلِمِ.

وَخَرَجْتُ مَرَّةً إِلَىٰ مُبَارَاةٍ[1] وَكَانَ الزِّحَامُ شَدِيْداً، وَأَدْرَكَتْنِيْ[2] صَلاَةُ الْعَصْرِ وَكُنْتُ عَلَىٰ وُضُوْءٍ، فَقُمْتُ أُصَلِّيْ وَجَعَلَ النَّاسُ يَنْظُرُوْنَ إِلَيَّ وَيَتَعَجَّبُونَ، وَأَكْمَلْتُ صَلاَتِيْ بِسَكِيْنَةٍ وَاعْتِدَالٍ وَرَجَعْتُ إِلَى الْمُبَارَاةِ.

وَلَمَّا انْتَهَتِ الْمُبَارَاةُ جَاءَ إِلَيَّ رَجُلٌ وَسَأَلَنِيْ عَنِ اسْمِيْ وَاسْمِ وَالِدِيْ، وَسَأَلَنِيْ عَنْ سِنِّيْ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَثْنَىٰ عَلَىٰ أَبِيْ خَيْراً، وَدَعَا لِيْ بِالبَرَكَةِ، وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ وَلَداً يُصَلِّيْ فِيْ الْمُبَارَاةِ وَيَتْرُكُ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ الصَّلاَةَ فِيْ هٰذَا الْوَقْتِ، فَحَمِدْتُ اللهَ وَشَكَرْتُ أَبِيْ.

---

(١) المُبَارَاة (ج) المباريات: مكان المنافسة الرياضية بين فريقين أو فردين.

(٢) أدْرَكَتْني صلاة العصر: أي لحقتني.

وَلاَ أَتْـرُكُ الصَّلاَةَ إِذَا كُنْتُ مُسَافِراً وَأَرَىٰ كَثِيْراً مِنَ النَّاسِ يُصَلُّوْنَ فِي الحَضَرِ وَيَتْرُكُوْنَ الصَّلاَةَ فِي السَّفَرِ ، وَيُصَلُّوْنَ فِي الصِّحَّةِ وَلاَ يُصَلُّوْنَ فِي الْمَرَضِ ، مَعَ أَنَّ الصَّلاَةَ لاَ تَسْقُطُ عَنْ أَحَدٍ .

وَأَرَىٰ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لاَ يُصَلُّوْنَ باعْتِدَالٍ وَسَكِيْنَةٍ وَيُسْرِعُوْنَ كَثِيْراً ، وَلاَ أَذْكُرُ أَنِّيْ تَرَكْتُ صَلاَةً فِيْ هٰذِهِ السَّنَوَاتِ الأَرْبَعِ ، وَإِذَا نِمْتُ عَنْهَا[١] أَوْ نَسِيْتُهَا صَلَّيْتُهَا إِذَا تَذَكَّرْتُ .

وَإِنِّيْ أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ التَّوْفِيْقَ وَالثَّبَاتَ[٢] .

* * *

---

(١) نام عنه : غَفَلَ عنه .

(٢) الثَّبَات : الاستقرار .

(٣)

النَّمْلَةُ

طَالَ سَعْيِي[١] بِالأَمَلْ ... لَسْتُ أَرْضَى بِالْكَسَلْ

غَايَتِي[٢] نَيْلُ[٣] الطَّلَبْ ... لاَ أُبَالِي[٤] بِالتَّعَبْ

أَبْتَنِي الْبَيْتَ الْحَسَنْ ... بِنِظَامٍ لِلسَّكَنْ

وَلِقُوتِي[٥] أَذْهَبُ ... لَسْتُ يَوْماً أَلْعَبُ

كُلَّ صَيْفٍ أَجْمَعُ ... لِيْ طَعَاماً يُشْبِعُ

فَإِذَا جَاءَ الْمَطَرْ ... كَانَ لِيْ بَيْتِي الْمَقَرْ[٦]

---

(١) سَعَى: جهد، جدَّ.

(٢) الغاية (ج) الغايات: الهدف.

(٣) النيل: الحصول.

(٤) لا يبالي بالتعب: لا يحتفل به، لا يكترث له.

(٥) القوت (ج) الأَقْوَات: ما يأكله الإنسان ويعيش به.

(٦) المقرّ (ج) المَقَارّ: موضع الاستقرار.

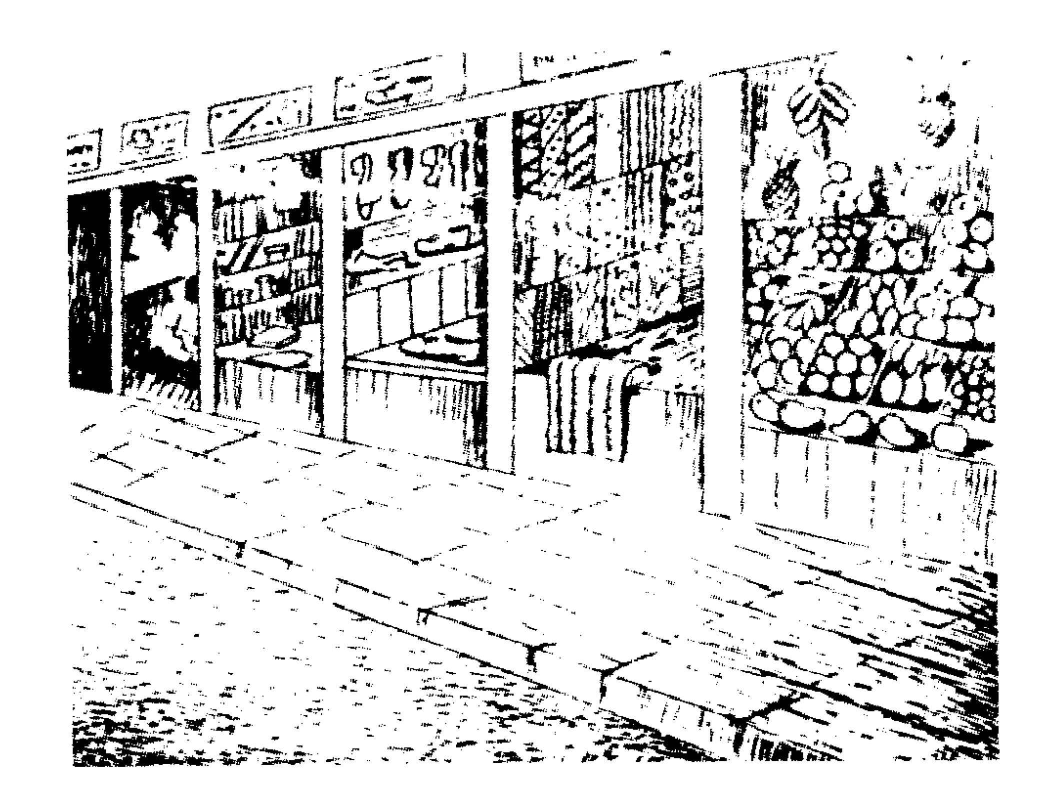
ذَاكَ شَـأْنِـيْ فِـيْ الصِّغَـرْ وَنِظَـامِـيْ فِـي الْكِبَـرْ
إِنَّنِـيْ نِعْـمَ المَثَـلْ[1] بِـاجْتِهَـادِيْ فِـي الْعَمَـلْ
(مَبَادِئُ القِرَاءَةِ الرَّشِيْدَةِ)

❋ ❋ ❋

(١) نِعْم المَثَل: المثل: العِبْرة التي يُعتبر بها.

(٤)

فـي السُّـوْقِ



عمَرُ: هَلْ زُرْتَ سُوْقَ هٰذَا الْبَلَدِ يَا صَدِيْقِيْ؟

خَالِدٌ: لاَ يَا أَخِيْ ، فَإِنِّيْ غَرِيْبٌ جَدِيْدٌ فِيْ هٰذَا الْبَلَدِ لاَ أَعْرِفُ الطَّرِيْقَ.

عُمَرُ: تَـعَالَ مَعِـيْ فَإِنِّـيْ ذَاهِبٌ إِلَىٰ السُّـوْقِ لأَشْتَـرِيَ بَعْـضَ

الْحَوَائِجِ، وَنَرْجِع قَبْلَ الْمَغْرِبِ إِنْ شَاءَ اللهُ فَإِنَّ السُّوْقَ غَيْرُ بَعِيْدَةٍ.

خَالِدٌ: مَا شَاءَ اللهُ هٰذِهِ سُوْقٌ كَبِيْرَةٌ وَالدَّكَاكِيْنُ نَظِيْفَةٌ جَمِيْلَةٌ، وَمَا هٰذَا الدُّكَّانُ الْجَمِيْلُ إِلَىٰ اليَمِيْنِ يَا عُمَرُ؟

عُمَرُ: هٰذَا دُكَّانُ فَاكِهَانِيٍّ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ الْفَوَاكِهِ وَتَرَىٰ النَّاسَ يُسَاوِمُوْنَ[1] الْفَاكِهَانِيَّ فِيْهَا.

خالِدٌ: أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَشْتَرِي شَيْئاً مِنَ الْفَوَاكِهِ، الْمَوزَ وَالْجَوَّافَةَ وَالْبُرْتُقَالَ، فَإِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَدْعُوَ بَعْضَ الإِخْوَانِ إِلَىٰ الْفُطُورِ بُكْرَةً[2].

عُمَرُ: الْجَوَّافَةُ غَالِيَةٌ جِدّاً فِيْ هٰذِهِ الأَيَّامِ، وَالْبُرْتُقَالُ حَامِضٌ وَلَا بَأْسَ[3] بِالْمَوْزِ.

خَالِدٌ: تَفَضَّلْ يَا أَخِيْ نُسَاوِمُ الْفَاكِهَانِيَّ.

عُمَرُ: أَحْسَنُ أَنْ نَشْتَرِيَ الْفَوَاكِهَ مِنْ سُوْقِ الْخُضَرِ بُكْرَةً، فَإِنَّ الْفَوَاكِهَ وَالثِّمَارَ فِيْهَا كَثِيْرَةٌ وَرَخِيْصَةٌ.

خَالِدٌ: هٰذَا هُوَ الرَّأْيُ، وَمَا هٰذِهِ الدَّكَاكِيْن يَا عُمَرُ؟

---

(١) يسَاوِمون (ساوم يساوم مساومة): يفاوضون في البيع والشراء.
(٢) بُكرةً: أول النهار إلى طلوع الشمس.
(٣) لابأس به: لا مانع أو عيب فيه.

عُمَرُ: هٰذِهِ دَكَاكِيْنُ الْقُمَاشِ ، أَلَا تَرَىٰ كَيْفَ بَسَطُوْا أَنْوَاعاً مِنَ الْقُمَاشِ وَكَيْفَ يَلْمَسُهَا النَّاسُ وَيُسَاوِمُوْنَ فِيْهَا التُّجَّارَ ، تَعَالَ! فَإِنِّيْ أُرِيْدُ أَنْ أَشْتَرِي حِذَاءً .

خَالِدٌ: تَفَضَّل فَإِنِّي صَاحِبُكَ .

عُمَرُ: مِنْ فَضْلِكَ أَخْرِجْ لِيْ حِذَاءً مُطَابِقاً[1] .

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: هٰذَا حِذَاءٌ جَمِيْلٌ وَمَتِيْنٌ .

عُمَرُ: نَعَمْ! وَلٰكِنَّهُ وَاسِعٌ قَلِيْلاً .

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: وَهٰذَا الآخَرُ مُطَابِقٌ تَمَاماً .

عُمَرُ: بِكَمْ هُوَ؟

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: بِسِتِّ رُبِّيَاتٍ[2] .

عُمَرُ: أَلَا تَنْزِلُ فِي الثَّمَنِ؟

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: لَنْ تَجِدَ يَا سَيِّدِيْ أَرْخَصَ مِنْ هٰذَا فِي السُّوْقِ .

---

(١) مُطابقاً لشيء: موافقاً له ، ليس مختلفاً عنه .

(٢) ربية: جمع ربيات: اسم العملة ، تستعمل في الهند ، وباكستان ، وأندونيسيا وماليزيا .

عُمَرُ: أُصَدِّقُكَ لأَنَّكَ مُسْلِمٌ وَالْمُسْلِمُ لا يَكْذِبُ وَلاَ يَغُشُّ[1].

خَالِدٌ: وَمَا هٰذَا الْمَكَانُ الَّذِي يَأْكُلُ فِيْهِ النَّاسُ؟

عُمَرُ: هٰذَا مَطْعَمٌ يَأْكُلُ فِيْهِ النَّاسُ، وَالْمَطَاعِمُ فِيْ الْبَلَدِ كَثِيْرَةٌ.

خَالِدٌ: مَالِيْ لَمْ أَرَ مَطْعَمًا فِي الْقَرْيَةِ؟

عُمَرُ: لأَنَّ الْبَلَدَ فِيْهِ غُرَبَاءُ وَمُسَافِرُونَ لَيْسَ لَهُمْ بُيُوْتٌ يُقِيْمُونَ فِيْهَا وَيَأْكُلُونَ فِيْهَا، فَيَأْكُلُوْنَ فِي الْمَطَاعِمِ، أَمَّا الْقَرْيَةُ فَالْغَرِيْبُ فِيْهَا قَلِيْلٌ فَلاَ حَاجَةَ فِي الْقَرْيَةِ إِلَىٰ الْمَطْعَمِ.

خَالِدٌ: وَأَيْنَ نَجِدُ الْوَرَقَ وَالْحِبْرَ وَالْقَلَمَ وَالْمِرْسَمَ وَالنَّشَافَةَ[2] وَأَدَوَاتِ الْكِتَابَةِ.

عُمَرُ: هٰذَا دُكَّانُ وَرَّاقٍ تَجِدُ فِيْهِ جَمِيْعَ حَوَائِجِ الْمَدْرَسَةِ.

خَالِدٌ: أَشْكُرُكَ يَا صَدِيْقِي الْكَرِيْمَ فَقَدْ أَفَدْتَنِي كَثِيْرًا، وَأَرَىٰ أَنْ نَرْجِعَ الآنَ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَنُصَلِّي الْمَغْرِبَ هُنَا.

عُمَرُ: نَعَمْ! وَمَا بَقِيَ لِيَ شُغْلٌ.

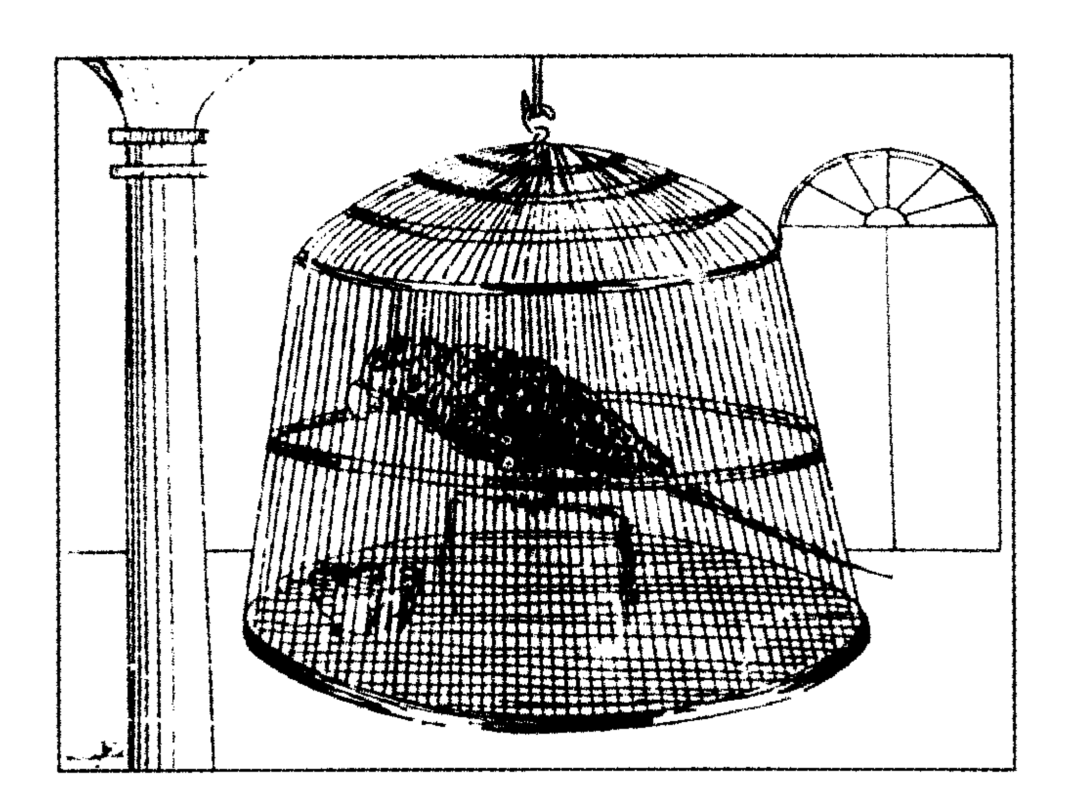
---

(١) يَغُشُّ (غَشَّ يَغشُّ غشًّا): يَخْدَعُ.

(٢) النَّشَّافَة (ج) النَّشَافات: خرقة ونحوها تستعمل لتنشيف الماء وغيره.

(٥)

الـطَّـائِــرُ



الْحَبْـسُ لَيْـسَ مَـذْهَبِـيْ[١] وَلَيْـــسَ فِيْـــهِ طَـــرَبِـــيْ[٢]

---

(١) مَذْهَب (ج) مذاهب: طريقة.

(٢) طَرب: خفة وهزَّة تثير النفس لفرح أو حزن أو ارتياح وأغلب ما يستعمل اليوم في الارتياح.

فَلَسْـــتُ أَرْضَـــىٰ قَفَصـــاً وَإِنْ يَكُـــنْ مِـــنْ ذَهَـــب
غَـــابَـــاتُ رَبِّـــيْ غَـــايَتِـــيْ وَالْعَيْـــشُ فِيْهَـــا مَطْلَبِـــيْ[1]
قَـــدْ طَـــابَ فِيْهَـــا مَطْعَمِـــيْ وَرَاقَ[2] فِيْهَـــا مَشْـــرَبِـــيْ
أَذْهَـــبُ فِيْهَـــا أَسْتَقِـــيْ مِـــنْ مَـــاءِ نَبْـــعٍ أَعْـــذَب
أَصْـــدَحُ[3] فِيْهَـــا مُطْلَقـــاً[4] فَـــالْحَبْـــسُ لَيْـــسَ مَـــذْهَبِـــيْ

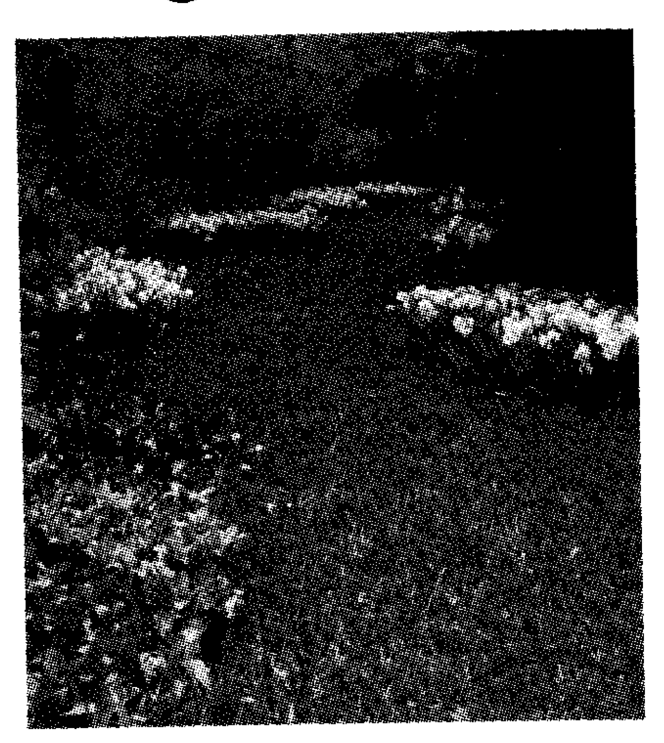
«مَدَارِجُ الْقِرَاءَة»

* * *

(١) مَطْلَب (ج) مَطَالِب: هدف.
(٢) رَاقَ يَـرُوق روقاً: الشيء أعجبه.
(٣) أَصْدَح (صَدَحَ يَصْدَحُ صَدْحاً): أُغَرِّد.
(٤) مُطْلقاً: حُرّاً.

(٦)

نـزْهَـةٌ وَطَـبْــخٌ



كَانَ يَوْمُ الثُّلَاثَاءِ الْمَاضِيْ يَوْمَ عُطْلَةٍ فِي الْمَدْرَسَةِ. جَاء إِلَيَّ دَاودُ صَبَاحاً وَقَالَ: الْيَوْمُ يَوْمُ الْعُطْلَةِ، أَلَا نَخْرُجُ إِلَىٰ بُسْتَانٍ، أو مَكَانٍ فِيْ ضَوَاحِي[١] الْمَدِيْنَةِ نَرْتَعُ[٢] وَنَلْعَبُ، وَنَطْبُخُ مِنَ الطَّعَامِ

(١) الضواحي جمع الضاحية: النَّواحِي جمع الناحية.

(٢) رَتَعَ يَرْتَعُ رَتْعاً: في المكان: أقاموا وتنعَّموا وأكلوا فيه وشربوا ما شاؤوا في خِصْب وسعَة.

مَا نَشْتَهِيْ وَنَأْكُلُ ، وَنَرْجِعُ فِي الْمَسَاءِ ، قُلْتُ: هُوَ كَذٰلِكَ! وَأَنَا كُنْتُ أُفَكِّرُ أَيْضاً كَيْفَ أَقْضِيْ هٰذَا الْيَوْمَ ، وَلٰكِنْ كَلِّمْ أَخَاكَ سُلَيْمَان وَالأَخَ هَاشِماً وَالسَّيِّدَ عُمَرَ لَعَلَّهُمْ يَخْرُجُوْنَ مَعَنَا .

وَافَقَ دَاوُدُ عَلَىٰ ذٰلِكَ وَكَلَّمَهُمْ ، وَفَرِحُوْا جِدّاً وَجَاؤُوا إِلَىٰ بَيْتِيْ مِنْ سَاعَتِهِمْ وَصَدِيْقُنَا خَالِدٌ فَفَرِحْنَا بِهِ وَقُلْنَا: مَرْحَباً .

اجْتَمَعْنَا وَقُلْنَا: هَلْ نَقْصِدُ بُسْتَاناً مِنْ بَسَاتِيْنِ الْمَدِيْنَةِ أَوْ نَتَوَجَّهُ إِلَىٰ ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي الْمَدِيْنَةِ .

قَالَ دَاوُدُ وَعُمَرُ: بَلْ نَقْصِدُ الْبُسْتَانَ الْكَبِيْرَ فِيْ وَسطِ الْمَدِيْنَةِ ، فَإِنَّ الْبُسْتَانَ قَرِيْبٌ فَلَا يَضِيْعُ وَقْتُنَا فِي الذَّهَابِ إِلَىٰ ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي الْبَلَدِ .

وَقَالَ سُلَيْمَانُ وَهَاشِمٌ وَأَنَا مَعَهُمَا: بَلْ نَتَوَجَّهُ إِلَىٰ بَعْضِ الضَّوَاحِيْ لأَنَّا نُرِيْدُ أَنْ نَطْبخَ الطَّعَامَ وَنَقْضِيَ النَّهَارَ فِي النُّزْهَةِ وَالطَّبْخِ .

فَاسْتَقَرَّ رَأْيُنَا عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الضَّاحِيَةِ ، فَاكْتَرَيْنَا[1] مَرْكَبَةً وَوَصَلْنَا مِنْ سَاعَتِنَا إِلَى الضَّاحِيَةِ .

وَكُنَّا أَخَذْنَا مَعَنَا الرُّزَّ وَاللَّحْمَ وَالتَّوَابِل وَالسَّمْنَ وَالْخُضَرَ وَأَخَذْنَا قِدْرَيْنِ وَأَوَانِي ، وَكُنَّا عَلِمْنَا أَنَّ فِي الْمَحَلِّ خَبَّازاً فَقُلْنَا

---

(١) اكْتَرَىٰ يَكْتَرِي اكتراءً: فلانٌ الدارَ ونحوها: اسْتأجرها .

نَشْتَرِي الرَّغِيْفَ فَإِنَّ الرَّغِيْفَ فِيْهِ تَعَبٌ.

اخْتَرْنَا مَكَاناً ظَلِيْلاً[1] وَكَانَ السَّيِّدُ عُمَرُ وَالسَّيِّدُ هَاشِمٌ يُحْسِنَانِ الطَّبْخَ فَتَوَلَّيَا أَمْرَ الطَّبْخِ وَسَاعَدَهُمَا دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ.

وَتَوَلَّيْتُ أَمْرَ الْحَطَبِ فَذَهَبْتُ إِلَى الْغَابَةِ الْقَرِيْبَةِ وَجِئْتُ بِالْحَطَبِ مِنْ سَاعَتِيْ، وَدَقَّ خَالِدٌ التَّوَابِلَ وَذَهَبْتُ أَنَا إِلَى الْخَبَّازِ فَاشْتَرَيْتُ الأَرْغِفَةَ.

وَأَدْرَكَ الطَّعَامُ فِي السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ، وَقَدْ غَلَبَنَا الْجُوْعُ وَاشْتَهَيْنَا الطَّعَامَ فَأَكَلْنَا بِرَغْبَةٍ، وَكَانَ الطَّعَامُ شَهِياً لَذِيْذاً.

وَجَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ حَتَّىٰ كَانَ وَقْتُ الظُّهْرِ فَأَذَّنْتُ وَصَلَّيْنَا جَمَاعَةً.

وَخَرَجْنَا بَعْدَ الصَّلاَةِ نَزُورُ بَعْضَ الآثَارِ، وَفِي الْعَصْرِ رَجَعْنَا إِلَى الْبَلَدِ مَسْرُوْرِيْنَ.

❊ ❊ ❊

(١) الظَّلِيْل: ذو الظلِّ.

(٧)

مـنْ يَـمْنَـعُـكَ مِـنِّـيْ؟

خَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ غَزْوَةٍ! هَلْ تَعْرِفُوْنَ مَا هِيَ الْغَزْوَةُ؟

لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِيْنَ كَانُوْا يَخْرُجُوْنَ لِلْجِهَادِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ وَكَانُوْا يُقَاتِلُونَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارَ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ فَضِيْلَةَ الْجِهَادِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ؟ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ أَحْيَاناً مَعَ الْمُسْلِمِيْنَ وَأَحْيَاناً يَمْكُثُ فِي الْمَدِيْنَةِ لِشُغْلٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ وَيَبْعَثُ جُنْداً مِنَ الْمُسلِمِيْنَ.

فَالغَزْوَةُ مَا خَرَجَ فِيْهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ جُنْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ لِلْجِهَادِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ.

نَعَمْ فَخَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ غَزْوَةٍ وَرَجَعَ عَنْهَا فِي الظَّهِيْرَةِ(١) وَكَانَتْ أَيَّامُ الصَّيْفِ فَأَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنْ يَسْتَرِيْحَ.

---

(١) الظهيرة: وقت الظُّهر.

وَلَيْسَ فِيْ الْبَرِّيَّةِ[1] مَكَانٌ يَسْتَرِيْحُ فِيْهِ الإِنْسَانُ إلاَّ الشَّجَرُ.

وَلَيْسَ فِيْ الْبَرِّيَّةِ فِي بِلاَدِ الْعَرَبِ شَجَرٌ كَثِيرٌ وَلَيْسَ فِيْهَا إلاَّ السَّمُرُ.

فَنَزَلَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ تَحتَ سَمُرَةٍ[2] وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَنَامُوْا، وَنَامَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ تَحْتَ السَّمُرَةِ.

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَسَيْفُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مُعَلَّقٌ بِالسَّمُرَةِ وَهُوَ فِيْ غِمْدِهِ.

فَأَخَذَ الْمُشْرِكُ السَّيْفَ وَسَلَّهُ مِنْ غِمْدِهِ وَاسْتَيْقَظَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ الْمُشْرِكُ... وَالسَّيْفُ مَسْلُوْلٌ فِيْ يَدِهِ... لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ: تَخَافُنِيْ؟

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: لاَ!

قَالَ الْمُشْرِكُ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّيْ؟

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: اللهُ!

---

(١) البريّة: الأرض.

(٢) السَّمُرَة: ضرب من شجرِ الطَّلح.

فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِ الْمُشْرِكِ فَأَخَذَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ السَّيْفَ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لِلْمُشْرِكِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّيْ؟

فَقَالَ الْمُشْرِكُ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ!

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟

قَالَ الْمُشْرِكُ: لَا! وَلٰكِنِّيْ أُعَاهِدُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ!

فَخَلَّىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَبِيْلَهُ[1].

فَأَتَىٰ الْمُشْرِكُ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ[2].

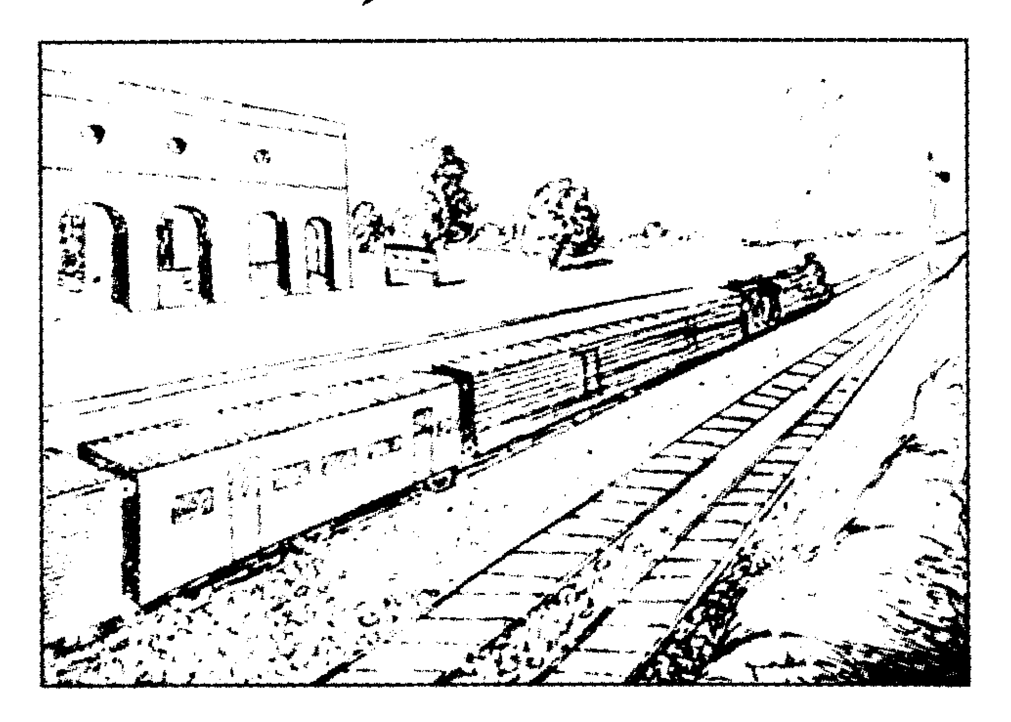
* * *

(١) خَلَّىٰ سَبِيْلَه: تَـرَكَه.

(٢) ملْتَقَطٌ مِنَ الصَّحِيحَيْنِ وَصَحِيحِ أَبِي بَكْرٍ الإسماعيليِّ.

(٨)

سفَرُ الْـقِطَـارِ



لاَ أَنْسَىٰ سَفَرِي الأَوَّلَ ، عَلِمْتُ أَنِّي مُسَافِرٌ بُكْرَةً مَعَ أُمِّيْ وَإِخْوَتِيْ ، فَاسْتَيْقَظْتُ قَبْلَ السَّحَرِ وَبَقِيْتُ أَنْتَظِرُ سَاعَةَ السَّفَرِ ، وَاسْتَيْقَظَ أَهْلُ الْبَيْتِ مُبَكِّرِيْنَ ، وَصَلَّيْنَا الصُّبْحَ ، وَجَاءَ عَمِّيْ وَبَدَأَتْ فِي الْبَيْتِ حَرَكَةٌ وَأَصْوَاتٌ ، هٰذَا يَجْرِيْ وَذٰلِك يَلُفُّ الْفِـرَاشَ[١] وَهٰـذَا يُنَـادِيْ وَذٰلِـكَ يُجِيْـبُ ، وَالْعَـمُّ يَغْضَـبُ

---

(١) لفَّ يَلُفُّ لَفاً: الفراش ونحوه: طَوَاه.

وَيَسْتَعْجِلُ ، وَالْوَالِدُ قَائِمٌ يَأْمُرُ وَيَنْهَىٰ ، وَيَغْضَبُ وَيُرْشِدُ ، وَالْخَادِمُ يُهَيِّىءُ[1] الزَّادَ ، حَتَّى كَانَ وَقْتُ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ وَقَرُبَ مِيْعَادُ الْقِطَارِ .

جَاءَتْ مَرْكَبَتَانِ فَرَكِبْنَاهُمَا ، وَسَلَّمْتُ عَلَىٰ أَبِيْ فَوَدَّعَنِيْ وَدَعَا لِيْ ، وَوَصَلْنَا إِلَىٰ الْمَحَطَّةِ فَأَخَذَ الْحَمَّالُونَ الْحَوَائِجَ وَالْمَتَاعَ ، وَكَانَتْ أَيَّامُ شِتَاءٍ فَكَانَتِ الْفُرُشُ كَبِيْرَةً ، وَذَهَبَ عَمِّيْ فَاشْتَرَىٰ تَذَاكِرَ الْقِطَارِ .

وَسَأَلْتُ عَمِّيْ عَنِ النَّوْلِ[2] فَقَالَ : إِنَّ النَّوْلَ ثَلاَثُ رُبِّيَّاتٍ ، وَرُبِّيَّةٌ وَنِصْفٌ لكَ .

وَقُلْتُ لِعَمِّيْ : أَعْطِنِيْ تَذْكِرَتِيْ . فَقَالَ عَمِّيْ : إِنَّكَ تُضَيِّعُ تَذْكِرَتَكَ ، فَقُلْتُ : لاَ ! سَأُحَافِظُ عَلَىٰ تَذْكِرَتِي إِنْ شَاءَ اللهُ ، فَأَعْطَانِيْ تَذْكِرَتِي وَوَضَعْتُهَا عِنْدِيْ . دَخَلْنَا الْمَحَطَّةَ فَرَأَيْنَا رِجَالاً كَثِيْراً وَنِسَاءً وَأَطْفَالاً وَرَأَيْنَا زِحَاماً شَدِيْداً وَسَمِعْنَا أَصْوَاتَ النَّاسِ وَ الأَطْفَالِ وَصَيْحَةَ الْحَمَّالِيْنَ وَصَفِيْرَ الْقَاطِرَةِ .

وَكَانَ قِطَارُنَا مُتَأَخِّراً فَذَهَبْنَا إِلَى الْمَنْظَرَةِ وجَلَسْنَا قَلِيْلاً ، ثُمَّ

---

(١) هَيَّأَ يُـهَـيِّىءُ : أَعَدَّ يُعِدُّ .

(٢) النول : أجر السفينة ، ويمكن إطلاقه على قيمة تذكرة السفر .
والنول : خشبة الحائك أو آلته ينسج عليها ج أنوال .

جِئْتُ إِلَى الرَّصِيْفِ[1] لأَرَىٰ هَلْ جَاءَ الْقِطَارُ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ الْمَنْظَرَةِ .

وَبَعْدَ قَلِيْلٍ جَاءَ الْقِطَارُ فَخَرَجْنَا مِنَ الْمَنْظَرَةِ ، وَقَامَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَلَىٰ الرَّصِيْفِ وَوَقَفَ الْقِطَارُ ، وَنَزَلَ أُناسٌ وَرَكِبَ أُناسٌ وَرَكِبْنَا .

وَكُنْتُ أُطِلُّ مِنَ الْقِطَارِ وَأَرَىٰ الْمَنَاظِرَ ، وَكَانَ الزِّحَامُ شَدِيْداً فِي الْقِطَارِ ، وَجَاءَ الْبَاعَةُ وَجَعَلَ النَّاسُ يَشْتَرُوْنَ وَيَأْكُلُونَ ، وَاشْتَرَىٰ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ الْبَاعَةِ هَدَايَا لأَصْدِقَائِهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ .

وَبَعْدَ قَلِيْل صَفرَ أَمِيْنُ الْقِطَارِ وَهَزَّ الْعَلَمَ الأَخْضَرَ فَأَسْرَعَ النَّاسُ وَدَخَلُوْا فِي الْقِطَارِ ، وَتَحَرَّكَتِ الْقَاطِرَةُ وَسَارَ الْقِطَارُ .

وَدَخَلَ نَقَّابٌ[2] فِيْ عَرَبَتِنَا فَنَقَبَ تَذَاكِرَنَا وَرَدَّهَا إِلَيْنَا .

وَفِي الطَّرِيْقِ تَغَدَّيْنَا بِالزَّادِ وَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا وَحمِدْنَا اللهَ .

وَلَمْ يَزَلْ يَقِفُ الْقِطَارُ عَلَى الْمَحَطَّاتِ وَيَسِيْرُ حَتَّىٰ وَصَلَ وَقْتُ الظُّهْرِ فَتَوَضَّأنا بِسُرْعَةٍ عَلَىٰ مَحَطَّةٍ وَصَلَّيْنَا صَلاَةَ السَّفَرِ ، صَلَّيْنَا الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ وَسَلَّمْنَا ، وَصَفرَ أَمِينُ الْقِطَارِ فَرَكِبْنَا سَرِيْعاً .

---

(١) الرَّصِيف (ج) الأَرْصِفَةُ: مكان مرتفع تقف أمامه السفن والقطارات ونحوها .

(٢) النَّقَّاب: قاطع التذاكر ، كُمْسَاري .

وَقَالَ عَمِّيْ: لَوْ كَانَ الْقِطَارُ لِلْمُسْلِمِيْنَ لَكَانَ فِيْهِ مَكَانٌ لِلْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ ، نُؤَذِّنُ فِيْهِ وَنُصَلِّيْ جَمَاعَةً.

وَفِي الْعَصْرِ وَصَلَ الْقِطَارُ إِلَىٰ مَحَطَّتِنَا ، وَكُنْتُ أُطِلُّ مِنَ النَّافِذَةِ فَرَأَيْتُ هَاشِمَاً وَسَعِيْداً عَلَى الرَّصِيْفِ وَعَرَفْتُهُمَا وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَا عَلَيَّ.

وَوَصَلْتُ إِلَىٰ قَرْيَتِي وَقَابَلْتُ أَصْدِقَائِيْ وَإِخوانِيْ وَجَعَلْتُ أُحَدِّثُهُمْ حَدِيْثَ الْبَلَدِ وَأُخْبِرُهُمْ بِعَجَائِبِهِ وَأَحْكِيْ لَهُمْ مَا رَأَيْتُ فِي السَّفَرِ.



(٩)

مـاذَا تُـحِـبُّ أَنْ تَـكُـوْنَ؟

سَأَلَ الْمُعَلِّمُ التَّلاَمِيْذَ مَرَةً فِي الصَّفِّ وَاحِداً وَاحِداً: مَاذا تُحِبُّ أَنْ تَكُوْنَ؟

وَقَالَ: كُلُّ وَاحِدٍ حُرٌّ فِيْ جَوَابِهِ فَلاَ يَخَفْ وَلاَ يَسْتَحِيْ.

وَقَالَ أَحْمَدُ وكَانَ أَصْغَرَ التَّلاَمِيْذِ: أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَكُوْنَ سَائِقاً فِي الْقِطَارِ، فَأَرْكَبَ دَائِماً وَأُسَافِرَ مَجَّاناً وَأَتَنَزَّهَ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ: إِنَّ سَائِقَ الْقِطَارِ فِيْ تَعَبٍ عَظِيْمٍ وَحَرٍّ وَجَحِيمٍ[1]، وَلٰكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ رُبَّاناً[2] فِيْ بَاخِرَةٍ، فَأُسَافِرُ فِي البحر وَأَزُوْرُ الْبِلاَدَ الْبَعِيْدَةَ مَجَّاناً وَأُشَاهِدَ عَجَائِبَ الدُّنْيَا.

وَقَالَ إِبْرَاهِيْمُ: الرُّبَّانُ وَبَاخِرَتهُ فِي خَطَرٍ مِنَ الْغَرَقِ، وَلَكِنِّي

---

(١) الجَحِيْمُ: النار الشديدة التأجج.

(٢) الربّان (ج) الرَّبَّـابين والرَّبَابنة: رئيس الملاحين في السفينة.

أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ طَبِيْباً فَأُدَاوِيَ[1] النَّاسَ وَأُدَاوِيَ الْفُقَرَاءَ مَجَّانَاً ، وَأَخْدِمَ الْخَلْقَ وَأُحَافِظَ عَلَىٰ صِحَّتِيْ وَأَعِيْشَ بِأَمْنٍ وَسَلاَمٍ .

وَأَجَابَهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ وَقَالَ : هٰذَا لَيْسَ بِصَحِيْحٍ ، لَيْسَتِ الْبَاخِرَةُ فِيْ خَطَرٍ فِيْ هٰذَا الزَّمَانِ ، وَالْبَوَاخِرُ تُسَافِرُ دَائِماً فِيْ هٰذِهِ الأَيَّامِ بِأَمْنٍ وَسَلاَمٍ ، وَبِالْعَكْسِ أَرَىٰ الأَطِبَّاءَ يَمْرَضُونَ وَيَمُوتُوْنَ .

وَقَاطَعَهُ إِبْرَاهِيْمُ وَقَالَ : أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ بَاخِرَةً غَرِقَتْ قَبْلَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ .

وَأَرَادَ إِبْرَاهِيْمُ أَنْ يُجِيبَهُ وَلٰكِنْ قَالَ الْمُعَلِّمُ : وَهٰذَا لَيْسَ وَقْتَ مُنَاظَرَةٍ وَقَدْ بَقِيَ كَثِيرٌ مِنَ الطَّلَبَةِ ، وَمَاذَا تَقُولُ يَا قَاسِمُ؟

قَالَ قَاسِمٌ : أَنَا لاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ سَائِقاً أَوْ رُبَّاناً أَوْ طَبِيْباً ، بَلْ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ فَلاَّحاً ، أَزْرَعُ وَأَحْرُثُ ، وَلاَ أَحَدٌ يَخْدِمُ النَّاسَ وَيَنْفَعُهُمْ كَالْفَلاَّحِ ، وَهُوَ الَّذِي يَزْرَعُ الْحُبُوبَ وَالْخُضَرَ فَيَأْكُلُ النَّاسُ وَالدَّوَابُّ .

وَقَالَ سُلَيْمَانُ : أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ تَاجِراً ، لِيْ دُكَّانٌ كَبِيرٌ فِيْ سُوْقٍ كَبِيْرَةٍ يَأْتِي النَّاسُ إِلَيَّ وَيَشْتَرُونَ .

وَقَالَ حَامِدٌ : أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ صَنَّاعاً مَاهِراً وَمُخْتَرِعاً أَصْنَعُ وَأَخْتَرِعُ الأَشْيَاءَ الْعَجِيْبَةَ .

---

(١) دَاوَىٰ يُدَاوِيْ مُدَاوَاةً : الطبيبُ المَرِيضَ : عَالَجَهُ وَوَصَفَ له الدواءَ .

وَقَالَ خَالِدٌ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ جُنْدِيّاً قَوِياً أُقَاتِلُ الْكُفَّارَ وَالْمُشْرِكِيْنَ وَأُجَاهِدُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيْمِ: أَنَا أَحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ غَنِياً كَبِيراً أَلْبَسُ مَا أُحِبُّ وَآكُلُ مَا أَشْتَهِي وَأُسَافِرُ إِلَىٰ أَيْنَ أُرِيْدُ، وَدَائِماً عِنْدِيْ مَالٌ كَثِيرٌ وَأَسْكُنُ فِيْ قَصْرٍ كَبِيْرٍ.

وَضَحِكَ الأَوْلَادُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ الْكَرِيْمِ وَخَجِلَ عَبْدُ الْكَرِيْمِ.

وَقَالَ مُحَمَّدٌ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ عَالِماً أَخَافُ اللهَ وَأَعْبُدُهُ، وَأَعِظُ النَّاسَ وَآمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُحَذِّرُهُم[1] عَذَابَ اللهِ.

قَالَ الْمُعَلِّمُ: أَحْسَنْتُمْ يَا أَوْلَادِيْ وَأَنَا أَدْعُوْ لَكُمْ بِالتَّوْفِيْقِ وَالنَّجَاحِ، وَلَكِنْ كُوْنُوا مُسْلِمِيْنَ وَابْتَغُوا اللهَ بِعَمَلِكُمْ وَانْفَعُوا الدِّيْنَ بِشُغْلِكُمْ وَاخْدِمُوا الأُمَّةَ بِعِلْمِكُمْ.

قَالَ التَّلَامِيْذُ: وَمَاذَا تَقُوْلُ أَيُّهَا الأُسْتَاذُ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيْمِ وَقَصْرِهِ؟

قَالَ الْمُعَلِّمُ: الْمَالُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ يَجِبُ عَلَيْهَا الشُّكْرُ، وَسَعِيْدٌ جِدّاً مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً، وَيَبْتَغِي بِه

(١) حَذَّرَ يُحذِّر تَحْذِيراً: نَبَّهَ.

مَرْضَاةِ اللهِ وَيَخْدِمُ بِهِ الإِسْلاَمَ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ : «لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ ، رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِيْ بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» .

وَقَدْ كَانَ سَيِّدُنَا عُثْمَانُ غَنِيّاً وَسَيِّدُنَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ غَنِيّاً .

وَرَفَعَ عَبْدُ الْكَرِيْمِ رَأْسَهُ وَقَالَ : سَأَجْهَتِدُ أَنْ أَخْدِمَ الإِسْلاَمَ بِمَالِيْ وَأَبْتَغِيْ[1] بِهِ مَرْضَاةَ اللهِ .

* * *

(١) ابْتَغَىٰ يَبْتَغِيْ ابْتِغَاءً : أرادَ وَطَلَبَ .

(١٠)

مسابَقَةٌ

كَانَتْ أَمْسِ مُسَابَقَةٌ فِي الْجَرْيِ فِيْ مَدْرَسَتِيْ ، أَوَّلاً اخْتَارَ مُعَلِّمُ الرِّيَاضَةِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِيْنَ طَالِباً مِنْ جَمِيْعِ الصُّفُوْفِ هُمْ أَقْرَانٌ[١] وَأَكْفَاءُ[٢] ، وَأَوْقَفَهُمْ فِيْ صُفُوفٍ صَفّاً خَلْفَ صَفٍّ ، وَفِيْ كُلِّ صَفٍّ ثَلاثَةٌ.

وَوَقَفَ الأُسْتَاذُ بِجَانِبٍ مِنْ هذِهِ الصُّفُوفِ ، وَقَدَّمَ صَفّاً فِيْهِ مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيْمُ وَسَعِيدٌ وَهُمْ أَقْرَانٌ وَأَكْفَاءٌ وَقَالَ: قُوْمُوْا فِيْ صَفٍّ وَاحِدٍ وَعَلَىٰ خَطٍّ وَاحِدٍ ، وَلَا يَتَقَدَّم مِنْكُمْ أَحَدٌ ، وَكَانَ إِبْرَاهِيْمُ مُتَقَدِّماً قَلِيْلاً فَأَخَّرَهُ وَجَعَلَهُ فِي الصَّفِّ وَقَالَ: أَنَا أَعُدُّ لَكُمْ فَإِذَا

---

(١) الأَقْرَان جمع القِرْن: للإنسان: مثله في الشجاعة والشدّة والعلم والقتال وغير ذلك.

(٢) الأَكْفَاءُ جمع الكُفْءِ: المماثل والقوي القادر على تصريف العمل.

قُلْتُ: وَاحِد فَسَوُّوا الصَّفَّ، وَإِذا قُلْتُ: اثْـنَـان، فَاسْتَعِدُّوْا واجْمَعُوْا ثِيَابَكُمْ، وَإِذا قُلْتُ: ثَلاَثَـة، فَطِيْرُوْا. وَذَهَبَ أَحَدُ الْمُعَلِّمِيْـنَ إِلَىٰ آخِرِ الْمَيْدَانِ وَوَضَعَ هُنَالِكَ قَصَبَةً[1] وَقَالَ: هٰذِهِ هِيَ الْغَايَةُ.

وَقَالَ الأُسْتَاذُ: وَاحِدْ، وَوَقَفَ قَلِيْلاً ثُمَّ قَالَ: اثْـنَـان، فَتَقَدَّمَ سَعِيْدٌ، فَقَالَ الأُسْتَاذُ: تَأَخَّرْ يَا سَعِيْدُ وَأَنَا أَعُدُّ مَرَّةً ثَانِيَةً فَقَالَ: وَاحِدْ، اثْنَانْ، ثَلاَثَةْ، فَطَارَ الأَوْلاَدُ لاَ يَدْرِيْ أَحَدٌ مَن السَّابِقُ، حَتَّىٰ بَـرَزَ مُحَمَّد وَهَتَفَ[2] الأَوْلاَدُ بِاسْمِهِ وَقَالُوْا: مُحَمَّد مُحَمَّد وَصَاحُوْا: مَرْحَىٰ مَرْحَىٰ[3]، وَكَانَ هُوَ الْمُجَلِّيَ، وَلَحِقَهُ إِبْرَاهِيْمُ فَكَانَ هُوَ الْمُصَلِّيَ، وَجَاءَ دَوْرِيْ وَقُمْتُ فِيْ أَقْرَانِيْ وَأَكْفَائِيْ وَعَدَّ الأُسْتَاذُ: وَاحِدْ، اثْنَانْ، ثَلاَثَةْ، وَأَبْطَأْتُ قَلِيْلاً عِنْدَ الْجَرْيِ فَمَا قَدَرْتُ أَنْ أَسْبِقَ وَأَكُوْنَ الْمُجَلِّي، وَوَصَلْنَا إِلَىٰ الْغَايَةِ وَكُنْتُ الْمُصَلِّيَ.

وَكَانَ خَالِدٌ الْمُجَلِّيَ، فَهَتَفَ الأَوْلاَدُ بِاسْمِهِ وَقَالُوا: مَرْحَىٰ مَرْحَىٰ، وَكَانَ إِخْوَانِيْ يَظُنُّوْنَ أَنِّيْ أَنَا الْمُجَلِّيَ، لأَنِّي خَفِيْفٌ

---

(١) القَصَبَة (ج) القَصَبَات: كل أنبوبة في ساق الشَّجَر تنتهي بعقدتين.
(٢) هَتَفَ يَهْتِفُ هَتْفاً به: صَاحَ به.
(٣) مَرْحَىٰ: كلمة تعجُّب: تقال للرَّامي أو الخطيب أو نحوهما إذا أصاب وإذا أخطأ قيل له: مَرْحَىٰ.

وَسَرِيْعٌ وَأَجْرِي كُلَّ يَوْمٍ ، وَتَأَسَّفْتُ أَيْضاً ولكِنِّي قُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ : سَأَسْبقُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَ انْتِهَاءِ السَّنَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَخَطَبَ الأُسْتَاذُ فِي الأَخِيْرِ وَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُسَابِقُ وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَتَسَابَقُوْنَ ، وَيَنْبَغِيْ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُوْنَ نَشِيْطاً خَفِيفاً قَوِيّاً حَتَّىٰ لاَ يَعْجزُ فِي الْجِهَادِ.

❊ ❊ ❊

(١١)

السَّـــاعَــــةُ

حَارِثٌ: كَمِ السَّاعَةُ يَا أَخِيْ؟

سَعِيْدٌ: السَّاعَةُ عَشْرٌ وَرُبْعٌ أَلَيْسَ عِنْدَكَ سَاعَةٌ؟

حَارِثٌ: بَلَىٰ! وَلٰكِنَّ سَاعَتِيْ وَاقِفَةٌ.

سَعِيْدٌ: لَعَلَّكَ مَا مَلأْتَهَا.

حَارِثٌ: نَعَمْ! نَسِيْتُ أَنْ أَمْلأَهَا الْبَارِحَةَ، أَنَا أَمْلأُهَا فِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ فِي اللَّيْلِ وَلٰكِنِّيْ غَلَبَتْنِي عَيْنِيْ الْبَارِحَةَ فَقَدْ كُنْتُ تَعِباً جِدّاً فَمَا مَلأْتُهَا.

سَعِيْدٌ: هَلْ تُرِيْدُ ضَبْطَهَا[1] بِسَاعَتِيْ؟

حَارِثٌ: نَعَمْ! أَضْبِطُهَا بِسَاعَتِكَ إِذَا كَانَتْ سَاعَتُكَ مُسْتَقِيْمَةً.

---

(١) ضَبَطَ يَضْبُطُ ضَبْطاً: فلانٌ الساعةَ: صَحَّحَها.

سَعِيْدٌ: سَاعَتِيْ تَتَقَدَّمُ دَقِيْقَتَيْنِ فِيْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِيْنَ سَاعَةً وَقَدْ ضَبَطْتُّهَا الْبَارِحَةَ فَأَخَّرْتُهَا دَقِيْقَتَيْنِ.

حَارِثٌ: كَمِ السَّاعَةُ الآنَ؟

سَعِيْدٌ: الآنَ عَشْرٌ وَثُلُثٌ.

حَارِثٌ: أَشْكُرُكَ، أَرِنِيْ سَاعَتَكَ.

سَعِيدٌ: تَفَضَّلْ.

حَارِثٌ: إِنَّ سَاعَتَكَ ثَمِيْنَةٌ وَجَمِيْلَةٌ مِيْنَاؤُهَا جَمِيْلٌ وَعَقَارِبُهَا دَقِيْقَةٌ وَغِطَاؤُهَا نَظِيْفٌ، بِكَمْ اشْتَرَيْتَهَا يَا سَعِيْدُ؟

سَعِيْدٌ: أَهْدَاهَا إِلَيَّ أَخِي الْكَبِيْرُ وَأَخْبَرَنِيْ أَنَّهُ اشْتَرَاهَا بِثَلاَثِيْنَ رُبِّيَّةً، وَسَاعَتُكَ بِكَمْ؟

حَارِثٌ: سَاعَتِيْ أَرْخَصُ مِنْهَا، فَإِنَّهَا بِعِشْرِيْنَ رُبِّيَّةً، قَدْ أَهْدَاهَا إِلَيَّ عَمِّيْ لَمَّا رَجَعَ مِنَ السَّفَرِ.

سَعِيْدٌ: إِنَّ السَّاعَةَ لاَزِمَةٌ[1] فِيْ هذَا الزَّمَانِ، فَبِالسَّاعَةِ يَعْرِفُ التِّلْمِيْذُ مِيْعَادَ[2] الْمَدْرَسَةِ، وَبِالسَّاعَةِ يَعْرِفُ الْمُسْلِمُ أَوْقَاتَ الْجَمَاعَةِ وَالصَّلَوَاتِ.

---

(١) لاَزمة: ضرُوْرِيّة.

(٢) الميعاد: الوقت.

حَارِثٌ: نَعَمْ! أَنَا كُنْتُ أَتَأَخَّرُ عَنْ مِيْعَادِ الْمَدْرَسَةِ فِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ وَتَفُوْتُنِي الْجَمَاعَةِ أَحْيَاناً ، وَلٰكِنْ مُنْذُ اشْتَرَيْتُهَا لَمْ أَتَأَخَّرْ عَنِ الْمَدْرَسَةِ وَمَا فَاتَتْنِيْ جَمَاعَةٌ .

سَعِيْدٌ: أَسْتَأْذِنُكَ لأَنِّي مُسَافِرٌ الْيَوْمَ وَمِيْعَادُ الْقِطَارِ السَّاعَةُ اثْنَتَا عَشَرَةَ إِلاَّ عَشْراً .

حَارِثٌ: الْوَقْتُ وَاسِعٌ فَلَيْسَ الآنَ إِلاَّ عَشْرٌ وَنِصْفٌ وَالْمَحَطَّةُ قَرِيْبَةٌ مِنْ بَيْتِكَ .

سَعِيْدٌ : نَعَمْ ! الوقتُ واسِعٌ ، وَلٰكِنْ لِيْ شُغْلٌ فِي السُّوْقِ وَلَمْ أَرْبِطِ الْحَوَائِجَ إِلَىٰ الآنَ .

حَارِثٌ: عَلَىٰ بَرَكَةِ اللهِ ، السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ .

سَعِيْدٌ: وَعَلَيْكُمُ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

* * *

(١٢)

الْـفُـطُــورُ

طَلَبْتُ مِنْ أَبِيْ وَأُمِّيْ أَنْ أَصُوْمَ يَوْمَاً مِنْ رَمَضَانَ ، فَقَالَ أَبِيْ: إِنَّكَ صَغِيْرٌ ضَعِيْفٌ لاَ تَصْبِرُ عَلَىٰ الْجُوْعِ وَالْعَطَشِ ، وَقَالَتْ أُمِّيْ: هٰذِهِ أَيَّامُ صَيْفٍ وَالصَّوْمُ فِيْهَا شَدِيْدٌ اصْبِرْ حَتَّىٰ تَكُوْنَ أَيَّامُ شِتَاءٍ .

وَلٰكِنِّيْ بَكَيْتُ وَقُلْتُ: قَدْ صَامَ مَحْمُوْدٌ وَهُوَ فِيْ سِنِّيْ ، وَقَدْ صَامَ إِسْماعِيْلُ وَهُوَ أَصْغَرُ مِنِّيْ ، وَلِمَاذَا أَنْتَظِرُ أَنَا؟

وَقَدْ رَأَيْتُ مَحْمُوْداً لَمَّا صَامَ لَبِسَ لِبَاساً جَدِيْداً وَصُنِعَتْ لَهُ أَطْعِمَةٌ لَذِيْذَةٌ وَقَدَّمَ لَهُ أَقَارِبُهُ هَدَايَا وَجَوَائِزَ وَاجْتَمَعَ نَاسٌ كَثِيْرٌ ، وَكَانَ مَحْمُودٌ لَهُ شَرَفٌ [١] ، كُلٌّ يَتَحَادَثُ مَعَهُ وَيُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ .

وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الْوَلَدَ الصَّغِيْرَ إِذَا صَامَ كَانَ لِوَالِدَيْهِ الأَجْرُ وَالثَّوَابُ ، وَأُحِبُّ أَنْ يَنَالَ أَبِيْ وَأُمِّي الأَجْرَ وَالثَّوَابَ .

---

(١) الشَّرَفُ (ج) الأَشْرَاف: العُلُوّ والمَجْد.

وَقبلَ أَبِيْ وَرَضِيتْ أُمِّيْ ، وَدَعَتْ أُمِّيْ أَصْدِقَائِي وَأَتْرَابِي[1] لِلسُّحُوْرِ مَعِيْ فَبَاتُوْا فِيْ بَيْتِيْ ، وَفِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فِي اللَّيْلِ اسْتَيْقَظْنَا وَقَدَّمَتْ أُمِّيْ طَعَاماً لَذِيْذاً ، فَأَكَلْنَا وَشَبِعْنَا وَنِمْنَا قَلِيْلاً وَاسْتَيْقَظْنَا لِصَلاَةِ الصُّبْحِ.

وَفِي النَّهَارِ أَرَادَتْ أُمِّيْ أَنْ تَشْغُلَنِيْ فَلاَ أَذْكُرُ الْجُوْعَ وَالْعَطَشَ ، فَأَمَرَتْنِيْ بِأَشْغَالٍ لَيْسَ فِيْهَا تَعَبٌ ، وَكُنْتُ فِيْ شُغْلٍ وَحَدِيْثٍ مَعَ الأَصْدِقَاءِ وَالأَتْرَابِ ، حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ وَمَا شَعَرْتُ بِجُوْعٍ وَلاَ عَطَشٍ.

وَفِي الظَّهِيْرَةِ شَعَرْتُ بِظَمَأٍ وَحَرٍّ فَاغْتَسَلْتُ فَذَهَبَ عَنِّي الظَّمَأُ وَاسْتَرَحْتُ.

وَفِي الْعَصْرِ شَعَرْتُ بِالجُوْعِ وَرَأَيْتُ أَطْعِمَةً وَثِمَاراً وَفَوَاكِهَ ، وَقَالَ لِيْ أَحَدُ الأَصْدِقَاءِ: لا بَأْسَ أَنْ تَأْكُلَ شَيْئاً وَلاَ يَرَاكَ الآنَ أَحَدٌ ، وَقَدْ أَكَلْتُ أَيْضاً لَمَّا كُنْتُ صَائِماً ، قُلْتُ: نَعَمْ! لاَ يَرَانِيْ هُنَا أَحَدٌ وَلٰكِنَّ اللهَ يَرَانِيْ.

وَسَكَتَ صَدِيْقِيْ وَصَبَرْتُ عَلَىٰ الْجُوْعِ.

وَقَبْلَ الْغُرُوْبِ حَضَرَ أَصْدِقَاءُ أَبِيْ وَأَقَارِبُنَا وَنُقِلَ الْفُطُوْرُ إِلَىٰ

---

(١) الأَتْرَاب جمع التِّرْب: المُمَاثِل في السنّ (للمذكّر والمؤنّث).

الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ الْوَقْتُ شَدِيداً عَلَيَّ فَكُنْتُ أَرْمُقُ[1] الْمُؤَذِّنَ وَأَعُدَّ الدَّقَائِقَ ، فَلَمَّا أَذَّنَ أفطَرْتُ بِتَمْرَةٍ ثُمَّ أَكَلْتُ وَشَرِبْتُ وَقُلْتُ كَمَا عَلَّمَنِي أَبِيْ :

«ذَهَبَ الظَّمَأُ وَابْتَلَّتِ الْعُرُوْقُ وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ» .

وَمَا أَكَلْتُ طَعَاماً أَلَذَّ مِنْ طَعَامِ ذٰلِكَ الْيَوْمِ ، وَمَا كَانَ يَوْمٌ أَجْمَلَ فِيْ حَيَاتِيْ مِنْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ .

* * *

(١) رَمَقَ يَرْمُقُ : نَظَرَ إِليه وأَتْبَعَه بصره .

(١٣)

الأَمَانَــــةُ

اسْتَأْجَرَ رَجُلٌ قَوْمَاً ، فَاشْتَغَلُوْا وَعَمِلُوْا ، وَلَمَّا فَرَغُوْا مِنْ شُغْلِهِمْ جَاؤُوا إِلَيْهِ فَأَعْطَاهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَانَ فِيْهِمْ رَجُلٌ اشْتَغَلَ مَعَهُمْ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ أَجْرَهُ وَتَرَكَهُ وَذَهَبَ .

وَكَانَ الرَّجُلُ كَرِيْمَاً أَمِيْنَاً ، فَلَمْ يَأْكُلْ أُجْرَتَهُ ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا ، وَخَافَ اللهَ وَوَضَعَهَا فِي التِّجَارَةِ ، وثَمَّرَهَا[١] وَأَثْمَرَتِ الأُجْرَةُ كَثِيْراً ، وَكَثُرَت مِنْهَا الأَمْوَالُ .

وَبَعْدَ حِيْنٍ جَاءَهُ الأَجِيْرُ وَهُوَ خَائِفٌ أَنْ لَا يَعْرِفَهُ الرَّجُلُ ، فَقَدْ طَالَت الْمُدَّةُ ، وَمَضَىٰ زَمَنٌ كَثِيْرٌ ، وَمَاذَا يَفْعَلُ الْمِسْكِيْنُ إِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ الرَّجُلُ أَوْ نَسِيَ قِصَّتَهُ .

---

(١) ثَمَّرَ يُثَمِّرُ تَثْمِيراً فلانٌ مالهُ: نَمَّاه .

جَاءَ الأَجِيْرُ وَهُوَ لاَ يَطْمَعُ إِلاَّ فِي أُجْرَتِهِ الْقَلِيْلَةِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ، وَإِذَا جَحَدَهَا الرَّجُلُ وَلَمْ يَدْفَعْهَا رَجَعَ خَائِباً[1] .

وَلٰكِنَّهُ جَاءَهُ لأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ هٰذِهِ الدَّرَاهِمِ ، فَقَالَ : يا عَبْدَ اللهِ! أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِيْ ، فَمَا جَحَدَ الرَّجُلُ وَمَا أَنْكَرَ ، بَلْ قَالَ : كُلُّ مَا تَرَىٰ مِنَ الإِبلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيْقِ مِنْ أَجْرِكَ .

دُهِشَ الرَّجُلُ وَتَحَيَّرَ وَظَنَّ أَنَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِ ، فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللهِ لاَ تَسْتَهْزِىءْ بِيْ .

قَالَ الرَّجُلُ : لاَ أَسْتَهْزِىءُ بِكَ ، فَكُلُّ مَا تَرَىٰ مِنَ الإِبلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيْقِ لَكَ ، فَإِنِّيْ قَدْ وَضَعْتُ أُجْرَتَكَ فِي التِّجَارَةِ ، وَثَمَّرْتُهَا وَأَثْمَرَتْ هٰذِهِ الإِبلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالرَّقِيْقَ[2] .

فَأَخَذَ الأَجِيْرُ الإِبلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالرَّقِيْقَ وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئاً .

وَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَىٰ هٰذِهِ الأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ .

وَقَدْ وَقَعَ هٰذَا الرَّجُلُ الأَمِيْنُ مَرَّةً فِيْ غَارٍ ، وَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِ[3]

---

(١) جَحَدَ يَجْحَدُ جَحْداً وجُحُوْداً فلانٌ الأَمْرَ : أَنْكَرَه مع علمه به .
(٢) الرَّقِيْق (ج) الأَرِقَّاء : مملوك ، عبد .
(٣) انْطَبَقَ عليه الشيء : غطاه وَستره .

صَخْرَةٌ ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ دَعَا اللهَ بِهَذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذٰلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَاكْشِفْ عَنَّا هٰذِهِ الصَّخْرَةَ ، فَأَجَابَ اللهُ دَعْوَتَهُ وَأَعَانَهُ .

❊ ❊ ❊

(١٤)

الصَّيْـدُ

خَرَجْتُ يَوْمَ عُطْلَةٍ مَعَ صَيَّادِيْنَ عِنْدَهُمْ بَنَادِقُ وَسَكَاكِيْنُ ، خَرَجْنَا مُبَكِّرِيْنَ فِي الصَّبَاحِ لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ ، وَكَانَ مَعِيْ كَثِيْرٌ مِنْ أَتْرَابِيْ وَأَصْدِقَائِيْ ، وَأَخَذْنَا غَدَاءَنَا مَعَنَا لِنَتَغَدَّىٰ إِذَا غَلَبَنَا الْجُوْعُ ، وَكُنَا نُرِيْدُ أَنْ نَرْجِعَ فِي الْمَسَاءِ .

وَلَمْ نَـزَلْ نَمْشِيْ فِي الْحَرِّ وَالشَّمْسِ حَتَّىٰ تَعِبْنَا ، وَغَلَبَنَا الْجُوْعُ وَالظَّمَأُ ، وَكَانَ الْغَدَاءُ مَعَ خَلِيْلٍ ، وَقَدْ ضَلَّ[1] الطَّرِيْقَ ، وَمَا وَجَدْنَا طَعَامَاً وَلاَ مَاءً .

وَانْتَصَفَ النَّهَارُ وَجَلَسْنَا فِيْ ظِلِّ شَجَرَةٍ نَنْتَظِرُ خَلِيْلاً ، وَبَـرَزَ خَلِيْلٌ مِنْ بُعْدٍ فَـنَـادَيْـنَاهُ بِاسْمِهِ وَحَمِدْنَا اللهَ ، وَتَغَدَّيْنَا وَاسْتَرَحْنَا قَلِيْلاً ، ثُمَّ خَرَجْنَا .

وَدَخَلْنَا فِي الْغَابَةِ وَوَجَدْنَـا آثَارَ بَـقَرِ الْوَحْشِ فَتَـفَرَّقْنَا وَجَلَسْنَا

---

(١) ضَلَّ يَضِلُّ ضَلالاً : فلانٌ الطريقَ : غَابَ وَضَاعَ ولم يهتدِ إليه .

بِالْمِرْصَادِ[1] وَخَرَجَتْ بَقَرَةٌ مِنَ بَيْنِ الأَشْجَارِ ، وَكَانَ السَّيِّدُ إِسْمَاعِيلُ مُسْتَعِدّاً فَصَوَّبَ[2] إِلَيْهَا بُنْدُقِيَّتَه ، وَأَطْلَقَ الرَّصَاصَةَ وَأَصَابَ الْبَقَرَةَ فِي صَدْرِهَا ، فَسَقَطَتْ جَرِيْحاً تَضْرِبُ بِرِجْلَيْهَا .

وَسَمِعَ الإِخْوَانُ صَوْتَ الْبُنْدُقِيَّةِ فَجَاؤُوا ، وَذَبَحَهَا يَاقُوتُ بِسِكِّيْنٍ كَبِيْرٍ حَادٍّ وَسَمَّىٰ اللهَ وَكَبَّرَ ، وَكُنَّا نَتَكَلَّمُ وَكُنَّا مُطْمَئِنِّيْنَ إِذْ خَرَجَتْ بَقَرَةٌ أُخْرَىٰ ، فَأَطْلَقَ عَلَيْهَا هَاشِمٌ بُنْدُقِيَّتَهُ بِسُرْعَةٍ ، وَمَا قَدَرَ أَنْ يُصَوِّبَ الْبُنْدُقِيَّةَ ، فَأَخْطَأَتِ الرَّصَاصَةُ وَمَا صَادَتِ الْبَقَرَةَ وَتَأَسَّفَ هَاشِمٌ وَتَأَسَّفَتِ الْجَمَاعَةُ .

وَصِدْنَا حَمَامَتَيْنِ بِرَصَاصَةٍ وَبَطَّتَيْنِ بِرَصَاصَتَيْنِ ، وَكَانَ عِنْدِيْ سِكِّيْنٌ صَغِيرٌ حَادٌّ فَذَبَحْتُ الْبَطَّتَيْنِ ، وَسَمَّيْتُ اللهَ وَكَبَّرْتُ .

وَقُلْتُ لِلسَّيِّدِ إِسْمَاعِيلَ : أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَصِيْدَ أَيْضاً ، فَأَعْطَانِي بُنْدُقِيَّتَهُ وَوَضَعَ فِيْهَا رَصَاصَةً ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ كَيْفَ أُصَوِّبُ الْبُنْدُقِيَّةَ وَكَيْفَ أُطْلِقُهَا ، لأَنِّي أَطْلَقْتُ الْبُنْدُقِيَّةَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوْ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، فَذَهَبْتُ وَجَلَسْتُ بِالْمِرْصَادِ ، وَجَاءَ حَمَامٌ وَوَقَعَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ قَرِيْبَةٍ ، وَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّتِي نَحْوَ الْحَمَامِ ، وَأَطْلَقْتُ

---

(١) الْمِرْصَادُ (ج) المَرَاصِيْد : طَرِيْق الرَّصْدِ والمُرَاقَبَة .

(٢) صَوَّب يُصوِّبُ تَصْوِيْباً : البندقية والسهم ونحوهما وجهها إلى الهدف .

الْبُنْدُقِيَّةَ ، فَأَصَبْتُ حَمَامَتَيْنِ وَفَرِحْتُ جِداً لَمَّا أَصَبْتُ الْحَمَامَتَيْنِ وَكَبَّرْتُ مِنَ الْفَرَحِ .

وَجَاءَ الإِخْوَانُ وَقَالُوْا : مَرْحَىٰ مَرْحَىٰ ، وَقَالُوا : مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ خَالِداً صَيَّادٌ .

وَمَا رَضِيْتُ أَنْ يَذْبَحَهُمَا أَحَدٌ ، فَذَهَبْتُ وَسَمَّيْتُ اللهَ وَذَبَحْتُ الْحَمَامَتَيْنِ بِسِكِّيْنِي الصَّغِيْرِ الْحَادِّ ، وَرَجَعْنَا إِلَىٰ الْقَرْيَةِ فِي الْمَسَاءِ بِصَيْدٍ كَثِيْرٍ ، وَقُطِعَتِ الْبَقَرَةُ قِطَعَاً قِطَعاً ، وَأَهْدَيْنَا لَحْمَهَا إِلَىٰ جَمِيْعِ الأَصْدِقَاءِ وَالأَقَارِبِ وَأَهْلِ الْقَرْيَةِ ، فَأَكَلُوا وَشَبِعُوْا وَشَكَرُوْا الصَّيَّادِيْنَ .

❊ ❊ ❊

(١٥)

مـأْدُبَــةٌ

رَجَعَ أَخِيْ مِنَ الْحَجِّ ، فَفَرِحَ أَهْلُ الْبَيْتِ كَثِيْراً وَفَرِحَتْ أُمِّيْ جِدّاً ، وَصَنَعَتْ أُمِّيْ طَعَاماً وَدَعَتْ إِلَيْهِ الأَقَارِبَ وَالأَصْدِقَاءَ وَكَثِيراً مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ .

وَفَرِحْنَا جِدّاً ، وَفَرَشْنَا فِرَاشاً نَظِيْفاً أَمَامَ الْبَيْتِ وَكَانَتْ أَيَّامُ صَيْفٍ ، وَوَضَعْنَا أَبَارِيْقَ[1] فِيْهَا مَاءٌ لِغَسْلِ الأَيْدِيْ ، وَوَضَعْنَا صَابُوْناً وَمِنْشَفَةً وَبَسَطْنَا سُفْرَةً[2] وَاسِعَةً ، حَضَرَ النَّاسُ فِي الْمَسَاءِ ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ أَخِيْ وَقُلْنَا : مَرْحَباً وَجَلَسُوا قَلِيْلاً وَحَضَرَ الطَّعَامُ ، فَجَلَسَ الضُّيُوفُ حَوْلَ السُّفْرَةِ ، وَقَدَّمْنَا الرَّغِيْفَ الْحَارَّ

---

(١) أَبَارِيق جمع إبْرِيْق : وعاء من الخزف أو المعدن له عروة ومصبّ خرطوميّ الشكل يصبّ منه الماء ونحوه .

(٢) سُفْرَة (ج) سُفَر : المائدة وما عليها من الطَّعامِ .

وَاللَّحْمَ وَالرُّزَّ فِيْ صُحُونٍ وَالرَّائِبَ[1] فِيْ أَقْدَاحٍ ، فَسَمَّوُا اللهَ وَأَكَلُوْا .

وَكُنَّا قَائِمِيْنَ نُلَاحِظُ الضُّيُوْفَ ، وَنُقَدِّمُ لَهُمُ الْخُبْزَ وَالطَّعَامَ وَنَسْقِيْهِمُ الْمَاءَ الْمَثْلُوجَ ، وَأَصَابَ النَّاسَ مِنْ كُلٍّ مِنَ الطَّعَامِ وَأَكَلُوْا بِرَغْبَةٍ وَحَمِدُوا اللهَ .

وَقَامُوْا وَغَسَلُوا أَيْدِيَهُمْ وَمَسَحُوْهَا بِالْمِنْشَفَةِ ، وَجَلَسُوْا إِلَىٰ أَخِيْ يَتَحَدَّثُوْنَ وَيَتَكَلَّمُوْنَ وَيَسْمَعُوْنَ مِنْهُ أَخْبَارَ الْحِجَازِ وَحَدِيْثَ مَكَّةَ الْمُشَرَّفَةِ وَالْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَمِنَىٰ وَعَرَفَاتٍ بِكُلِّ رَغْبَةٍ وَسُرُوْرٍ ، وَاشْتَاقُوا إِلَىٰ الْحجِّ ، وَدَعَوُا اللهَ أَنْ يُوَفِّقَهُمْ لِذٰلِكَ .

ثُمَّ اسْتَأْذَنُوْا لِلْخُرُوْجِ وَقَامُوْا يَقُوْلُونَ :

«أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُوْنَ ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ» .

* * *

---

(١) الرَّائِبُ : اللَّبَن الَّذِي يُخضّ فيخرج زبدة .

(١٦)

بـرُّ الْـوَالِـدَيْــنِ

كَانَ رَجُلٌ لَهُ أَبَوَانِ كَبِيْرَانِ وَأَوْلَادٌ صِغَارٌ ، وَكَانَ بَراً بِالْوَالِدَيْنِ شَفِيْقاً عَلَىٰ الأَوْلَادِ .

وَكَانَ يَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الصَّبَاحِ إِلَىٰ الْمَرْعَىٰ وَيَرْعَىٰ الْمَاشِيَةَ وَيَرْجِعُ بِهَا فِي الْعِشَاءِ ، فَيَحْلِبُهَا[1] وَيَسْقِيْ وَالِدَيْهِ وَأَوْلَادَهُ الصِّغَارَ .

وَكَانَ أَبَوَاهُ وَأَوْلَادُهُ الصِّغَارُ يَنْتَظِرُوْنَ قُدُوْمَهُ ، وَلَا يَنَامُوْنَ حَتَّىٰ يَحْضُرَ الرَّجُلُ وَيَسْقِيْهُمُ اللَّبَنَ .

مَرَّةً ذَهَبَ الرَّجُلُ بِالْمَاشِيَةِ إِلَىٰ الْمَرْعَىٰ[2] ، فَبَعُدَ فِيْ طَلَبِ

---

(١) حَلَبَ يَحْلِبُ حَلْباً ـ الشاة ونحوها: اسْتَخْرَجَ ما في ضَرْعها من اللبن .

(٢) مَرْعىٰ (ج) مَرَاعٍ : ما ترعاه الماشية ، وموضع الرعي .

الشَّجَرِ وَالْعَلَفِ[1] فَتَأَخَّرَ ذٰلِكَ الْيَوْمَ ، فَرَجَعَ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ اللَّيْلِ .

وَانْتَظَرَ أَبُوْهُ وَأُمُّهُ طَوِيْلاً ، وَكَانَ أَبُوهُ جَائِعاً وَكَانَتْ أُمُّهُ جَائِعَةً ، وَرَقَدَ[2] أَبُوهُ وَرَقَدَتْ أُمُّهُ بَعْدَ الانْتِظَارِ الطَّوِيْلِ .

وَرَجَعَ الرَّجُلُ وَدَخَلَ الْبَيْتِ ، فَوَجَدَ أَنْ أَبَاهُ الشَّيْخَ قَدْ رَقَدَ ، وَأَنَّ أُمَّهُ الْعَجُوْزَ قَدْ رَقَدَتْ .

فَتَأَسَّفَ الرَّجُلُ وَحَزِنَ كَثِيْراً وَنَدِمَ عَلَىٰ تَأْخِيْرِهِ ، وَقَالَ : أَسَفاً إِنِّي تَأَخَّرْتُ الْيَوْمَ فِي الْمَرْعَىٰ وَبَعُدْتُّ فِيْ طَلَبِ الشَّجَرِ وَالْعَلَفِ لأَرْعَىٰ الْمَاشِيَةَ حَتَّىٰ رَقَدَ الشَّيْخُ وَرَقَدَتِ الْعَجُوزُ .

وَفَكَّرَ الرَّجُلُ هَلْ يُوْقِظُ الشَّيْخَ وَالْعَجُوْزَ؟

وَكَرِهَ الرَّجُلُ أَنْ يُوْقِظَ الشَّيْخَ والْعَجُوْزَ .

وَكَانَ أَهْلُهُ وَأَوْلاَدُهُ يَنْتَظِرُوْنَهُ وَكَانُوْا جِيَاعاً فَطَلَبُوا مِنْهُ اللَّبَنَ .

وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ كَرِهَ[3] أَنْ يَسْقِيَ أَهْلَهُ وَأَوْلاَدَهُ قَبْلَ وَالِدَيْهِ ، وَخَافَ اللّٰهَ وَقَالَ : كَيْفَ أَسْقِيْكُمْ وَلَمْ أَسْقِهِمْ ، إِنِّي إِذاً لَمِن الظَّالِمِيْنَ .

---

(١) عَلَف (ج) أعْلاَف وعِلاَف : طَعَامُ الحيوان .

(٢) رَقَدَ يَرْقُدُ رُقَاداً ورُقُوداً : نَامَ .

(٣) كَرِهَ يَـكْرَهُ كَرَاهةً : فلانٌ الرجلَ : مَقَتَهُ (عَكْسهُ أَحبَّه) .

وَحَلَبَ الرَّجُلُ الْمَاشِيَةَ وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ أَنْ يَسْتَيْقِظَ أَبَوَاهُ ، وَبَقِيَ وَاقِفاً وَالْقَدَحُ عَلَىٰ يَدِهِ ، وَالأَطْفَالُ يَبْكُونَ وَيَصِيْحُوْنَ عِنْدَ قَدَمِهِ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْقِهِمْ شَيْئاً مِنَ الْقَدَحِ وَلَمْ يَشْرَبْ ، وَبَاتَ قَائِماً وَالْقَدَحُ عَلَىٰ يَدِهِ .

وَطَلَعَ الْفَجْرُ وَاسْتَيْقَظَ وَالِدَاهُ ، فَقَدَّمَ الرَّجُلُ لَهُمَا قَدَحَ اللَّبَنِ فَشَرِبَا ثُمَّ سَقَىٰ أَوْلاَدَهُ ، وَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْ هذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ بَرّاً بِالْوَالِدَيْنِ ، رَضِيَ اللهُ عَنْ هذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَقَبِلَهُ .

وَمَرَّةً كَانَ هٰذَا الرَّجُلُ الْبَرُّ مَاشِياً فِي اللَّيْلِ ، فَرَأَىٰ غَاراً ، فَقَالَ : أَبِيْتُ اللَّيْلَ فِيْ هٰذَا الْغَارِ وَأَخْرُجُ فِي الصَّبَاحِ .

وَدَخَلَ الْغَارَ لِيَبِيْتَ ، فَانْحَدَرَتْ[١] صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ[٢] عَلَيْهِ الْغَارَ . فَدَعَا اللهَ بِهٰذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَقَالَ :

اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذٰلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَاكْشِفْ هٰذِهِ الصَّخْرَةَ ، فَأَجَابَ اللهُ دَعْوَةَ هٰذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ وَأَعَانَهُ .

* * *

---

(١) انْحَدَرَ يَنْحَدِرُ انْحِدَاراً : نَزَلَ وأَقْبَلَ .

(٢) سَدَّ يَسُدُّ سَدّاً على الشيء : أغْلَقَه .

(١٧)

فَضِيْلَـةُ الـشُّغْلِ

إِنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلَهُ ، فَقَالَ : أَمَا فِيْ بَيْتِكَ شَيْءٌ؟

قَالَ : بَلَىٰ حِلْسٌ[1] نَلْبَسُ بَعْضَهُ ، وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ[2] نَشْرَبُ فِيْهِ مِنَ الْمَاءِ .

قَالَ : ائْتِنِيْ بِهِمَا .

فَأَخَذَهُمَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ : مَنْ يَشْتَرِيْ هٰذَيْنِ؟

قال رجلٌ : أَنَـا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ .

قال : مَنْ يَـزِيْدُ عَلَىٰ دِرْهَمٍ ؟ مَنْ يَـزِيْدُ عَلَىٰ دِرْهَمٍ ؟

---

(١) حِلْسٌ جمع : أحلاس : مايُبْسَطُ في البَيْتِ من حصير ونحوه تحت كريم المتاع .

(٢) قَعْب جمع : قِعَاب ، وأَقْعُبٌ : قَـدَحٌ ضَخْمٌ غَلِيْظٌ .

قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ.

فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ وَقَالَ: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَاماً فَانْبِذْهُ إِلَىٰ أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُوْماً فَائتِنِي بِهِ.

فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُوْداً بِيَدِهِ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ[1] وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمَاً.

فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيْعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ[2] عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَىٰ بِبَعْضِهَا ثَوْبَاً وَبِبَعْضِهَا طَعَاماً.

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: هٰذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيْءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً[3] فِيْ وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

* * *

---

(١) احْتَطَبَ يَحْتَطِبُ احْتِطَاباً: حَطَبَ (أي: جَمَعَ الْحَطَبَ).

(٢) أَصَابَ يُصِيْبَ إِصَابَةً: الشيء: أَدْرَكَه.

(٣) نُكْتَة (ج) نُكَت ونِكَاتٌ: نقطة سوداء في بياض أو بيضاء في سواد، وجمْلَة لطيفة تؤثِّر في النفس انبساطاً، ومسألة علمية دقيقة.

(١٨)

تَرْنِيْمَةُ[١] الْوَلَدِ فِي الصَّبَاحِ

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ وَقَدْ وَلَّى[٢] الظَّلَامُ هَارِبَا
فَالشُّكْرُ للهِ الأَحَدْ شُكْراً عظِيْماً وَاجِبَا
مَا أَحْسَنَ النُّوْرَ أَرَى فِيْهَا الأُمُوْرَ بَاسِمَهْ
وَالطَّيْرُ تَشْدُوْ[٣] سَحَراً عَلَى الغُصُونِ قَائِمَهْ
مَا أَحْسَنَ النُّوْرَ الْبَهِي[٤] فِيْهِ أَجِدُّ عَامِلَا
إِنِّي أَوَدُّ دَائِماً أَلَّا أَكُوْنَ خَامِلَا[٥]
اللهُ قَدْ أَجَارَنِيْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الظَّلَامْ
شُكْراً لَهُ قَدْ صَانَنِيْ شُكْراً لَهُ عَلَى الدَّوَامِ

(مَدَارِجُ الْقِرَاءَةِ)

* * *

(١) تَرْنِيْمة (ج) تَرَانِيْم: أغنية صغيرة خفيفة اللحن.
(٢) وَلَّى الظَّلامُ هارباً: أدْبَرَ عنه ونَأَى (بَعُدَ).
(٣) شَدَا يَشْدُو شَدْواً: تَرنَّم وَتَغَنَّى.
(٤) بَهِيّ (ج) أبْهِيَاء: رائع الحسن.
(٥) خَامِل: (ج) خَمَلَة، مجهول الاسم لا نَبَاهَةَ له.

(١٩)

أَصْدِقَائِي

لِيْ أَرْبَعَةُ أَصْدِقَاءَ: حَسَنٌ، وَقَاسِمٌ، وَعُمَرُ، وَمُحَمَّدٌ.

أَمَّا حَسَنٌ فَوَلَدٌ مُهَذَّبٌ حَلِيمٌ[١]، لا يَكْذِبُ وَلاَ يَغْضَبُ، أُحِبُّهُ لأَدَبِهِ وَحِلْمِهِ، وَهُوَ رَفِيْقِي فِي الْمَدْرَسَةِ، وَجَارِيْ فِي الْحَيِّ، وَصَدِيْقِي مُنْذُ أَرْبَعِ سِنِيْنَ.

وَهُوَ يَسْكُنُ فِيْ حَيِّنَا مِنْ سِنِيْنَ، وَبَيْتُهُ قَرِيْبٌ مِنْ بَيْتِيْ، وَلَيْسَ بَيْنَ بُيُوتِنَا إِلاَّ بَيْتٌ وَاحِدٌ.

وَلَمْ نَتَخَاصَمْ فِيْ هٰذِهِ الْمُدَّةِ مَعَ أَنَّا نَسْكُنُ فِيْ حَيٍّ وَاحِدٍ، وَنَقْرَأُ فِيْ صَفٍّ وَاحِدٍ، وَنَذْهَبُ جَمِيعاً إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ وَنَرْجِعُ جَمِيْعاً، وَقَدْ تَخَاصَمَ كَثِيرٌ مِنَ الأَصْدِقَاءِ، وَأَرَىٰ كُلَّ يَوْمٍ بَعْضَ الأَوْلاَدِ يَتَخَاصَمُوْنَ.

وَيُحِبُّ أَبِيْ وَأُمِّيْ حَسَناً وَيَفْرَحَانِ بِرِفَاقِهِ، لأَنَّهُ وَلَدٌ لَيْسَ فِيهِ شَرٌّ، وَيُحِبُّنِيْ أَبُو حَسَنٍ وَيَرَانِيْ كَوَلَدِهِ.

---

(١) حَلِيْم (ج) حُلَمَاء: رَشِيْد.

أَمَّا قَاسِمٌ فَوَلَدٌ ذَكِيٌّ نَشِيْطٌ تَرَاهُ دَائِماً مَسْرُوراً ، لاَ أَذْكُرُ أَنِّي رَأَيْتُهُ قَطُّ مَحْزُوْناً ، وَهُوَ ذُوْ أَخْبَارٍ وَحِكَايَاتٍ يَسُرُّ أَصْدِقَاءَهُ بِأَحَادِيْثِهِ ، وَحِكَايَاتِهِ ، وَيُحِبُّهُ أَصْدِقَاؤُهُ ، وَهُوَ مُجْتَهِدٌ فِي الدُّرُوْسِ لَمْ يَرْسُبْ فِي امْتِحَانٍ .

أَمَّا عُمَرُ فَوَلَدٌ يَتِيْمٌ يَسْكُنُ فِيْ حَيِّنَا أَيْضاً ، أُمُّهُ عَجُوزٌ تَكْتَسِبُ بِالخِيَاطَةِ وَتُنْفِقُ عَلَىٰ وَلَدِهَا ، وَلٰكِنَّ عُمَرَ وَلَدٌ كَبِيْرُ النَّفْسِ لاَ يَقْبَلُ مِنْهَا شَيْئاً ، ثِيَابُهُ رَخِيْصَةٌ وَلٰكِنَّها دَائِماً نَظِيْفَةٌ ، يُحِبُّهُ جَمِيْعُ الْمُعَلِّمِيْنَ لِصَلاَحِهِ وَأَدَبِهِ وَاجْتِهَادِهِ وَمُوَاظَبَتِهِ .

وَلَمْ يَرْسُبْ عُمَرُ فِي الامْتِحَانِ إِلاَّ مَرَّةً وَحَزِنَ كَثِيْراً ، وَحَزِنَتْ أُمُّهُ لَمَّا رَسَبَ عُمَرُ فِي الإِمْتِحَانِ ، وَأَرَادَ عُمَرُ أَنْ يَتْرُكَ الْمَدْرَسَةَ ، وَلٰكِنْ شَجَّعَتْهُ[1] أُمُّهُ وَقَالَتْ : أَنَا أَكْتَسِبُ بِالْخِيَاطَةِ وَأُنْفِقُ عَلَيْكَ ، وَرَجَعَ عُمَرُ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ وَاجْتَهَدَ كَثِيْراً ، وَنَجَحَ فِي الاِمْتِحَانِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ وَبَرَزَ[2] فِي الاِمْتِحَانِ .

أَمَّا مُحَمَّدٌ فَتِلْمِيْذٌ نَجِيْبٌ مُجْتَهِدٌ جِدّاً يُبَرِزُ فِي الاِمْتِحَانِ كُلَّ سَنَةٍ ، وَوَلَدٌ كَاتِبٌ جَيِّدُ الْخَطِّ يَعْرِفُ كِتَابَةَ الرَّسَائِلِ ، وَهُوَ

---

(١) شَجَّعَ يُشَجِّعُ تَشْجِيْعاً الأستاذُ تلميذَه : قَوَّىٰ قَلْبَه وأَيَّدَه .

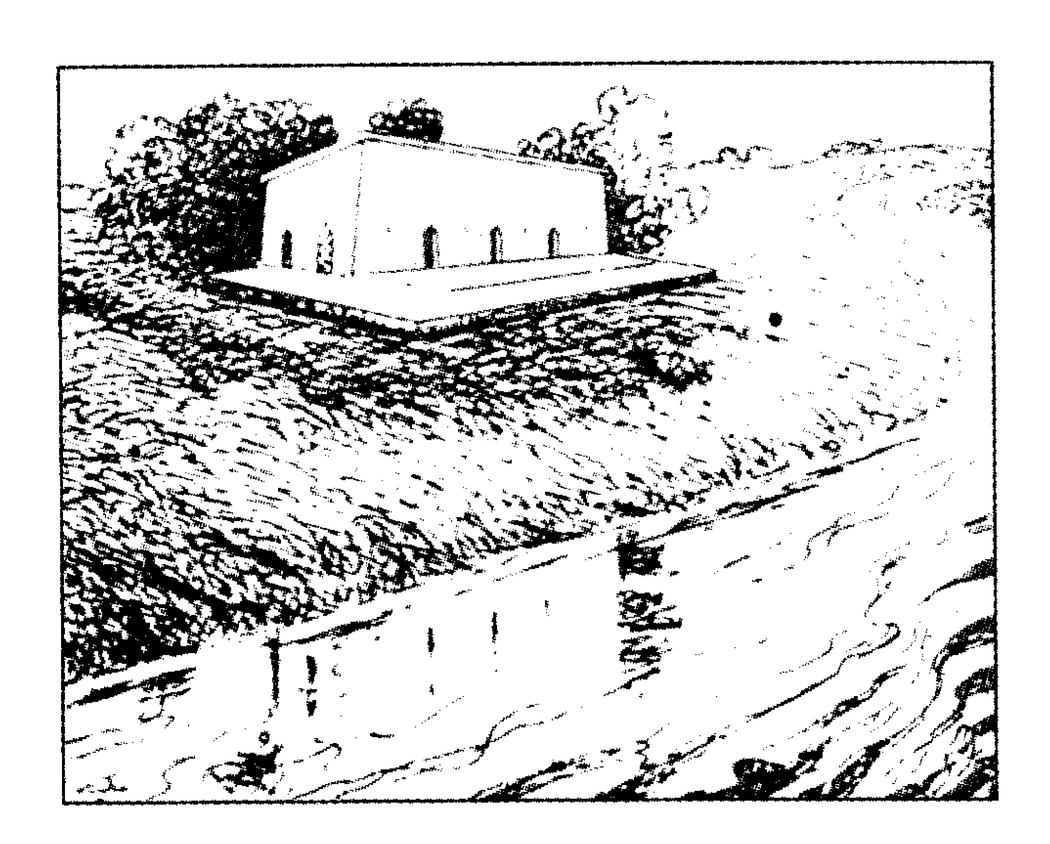
(٢) بَرزَ يُبَرِّزُ تَبْرِيزاً : فَاقَ أَقْرَانَهُ .

مُتَـقَدِّمٌ فِي الصَّفِّ وَمُوَاظِبٌ عَلَى الدَّرْسِ ، وَجَمِيْعُ أَصْدِقَائِي مُحَافِظُونَ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ ، مُوَاظِبُوْنَ عَلَىٰ الدُّرُوْسِ ، وَلَمْ نَتَخَاصَمْ قَطُّ وَلَمْ نَغْضَبْ ، وَأَرْجُوْ أَلَّا أَكُوْنَ شَرَّ الأَصْدِقَاءِ .

❊ ❊ ❊

(٢٠)

قَـرْيَـتِـيْ



قَرْيَـتِيْ جَمِيْلَةٌ فِيْ وَسَطِ حُقُولٍ وَبَسَاتِيْنَ كَأَنَّهَا جَزِيْرَةٌ فِي بَحْرٍ أَخْضَرَ ، لاَ تَرَىٰ فِيْهَا إِلاَّ خُضْرَةً وَمَاءً ، فَالأَرْضُ خَضْرَاءُ وَالْحُقُولُ خَضْرَاءُ ، وَالدُّنْيَا كُلُّهَا خَضْرَاءُ فِيْ قَرْيَتِيْ ، وَيَجْرِيْ مِنْ تَحْتِ الْقَرْيَةِ نَهْرٌ مَاؤُهُ نَقِيٌّ شَفَّافٌ ، لأَنَّهُ يَجْرِيْ عَلَىٰ الرَّمْلِ ،

نَغْتَسِلُ فِيْ هذَا النَّهْرِ وَنَسْبَحُ وَنَلْعَبُ وَنَشْرَبُ مِنْ مَائِهِ النَّقِيِّ ، وَنَرَىٰ السَّمَكَ يَجْرِيْ مِنْ هُنَا وَهُنَا ، وَنَرَىٰ الصَّدَفَ[1] فِيْ قَعْرِ[2] النَّهْرِ لأَنَّ الْمَاءَ نَقِيٌّ شَفَّافٌ ، وَقَدْ تَعَلَّمْنَا السِّبَاحَةَ وَنَحْنُ صِغَارٌ ، فَإِذا كَانَتْ أَيَّامُ الْمَطَرِ فَاضَ[3] النَّهْرُ ، وَكَانَ عَرْضٌ كَبِيْرٌ عَبَرْنَا هذَا النَّهْرَ وَتَسَابَـقْنَا فِي السِّبَاحَةِ .

وَأَرَىٰ كَثِيْراً مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لاَ يَعْرِفُوْنَ السِّبَاحَةَ وَهُمْ كِبَارٌ وَيَخَافُوْنَ الْمَاءَ جِدّاً ، وَلاَ يَدْخُلُونَ النَّهْرَ .

جَاءَ مَرَّةً صَدِيْقٌ لِيْ مِنَ الْبَلَدِ وَدَخَلْنَا النَّهْرَ وَقُلْنَا لَهُ : تَعَالَ يَا أَخِيْ وَاغْتَسِلْ وَاسْبَحْ ، فَقَالَ : إِنِّيْ أَخَافُ الْمَاءَ وَلاَ أَعْرِفُ السِّبَاحَةَ ، فَشَجَّعْنَاهُ وَقُلْنَا : لاَ تَخَفْ وَنَحْنُ مَعَكَ ، فَتَشَجَّعَ وَدَخَلَ الْمَاءَ وَأَرَادَ أَنْ يَسْبَحَ ، وَلٰكِنْ ذَهَبَ إِلَى الْقَعْرِ ، فَأَخَذْنَا بِيَدِهِ وَرَفَعْنَاهُ فَخَرَجَ وَقَدْ شَرِبَ الْمَاءَ .

وَكَانَ يَغْتَسِلُ مَعَنَا كُلَّ يَوْمٍ ، وَيَتَعَلَّمُ السِّبَاحَةَ حَتَّىٰ تَعَلَّمَهَا وَعَبَرَ النَّهْرَ فَتَشَجَّعَ وَعَبَرَ مَرَّتَيْنِ .

وَإِذا نَـزَلَتْ أَمْطَارٌ كَثِيْرَةٌ وَفَاضَ النَّهْرُ أَصْبَحَتْ قَرْيَتِيْ شِبْهَ

---

(١) صَدَفَ (ج) أَصْدَاف : غِطاءُ الدرّ .
(٢) قَعْرٌ (ج) قُـعُوْر : منتهى العمق ، يقال : في قَعْرِ البِئْرِ .
(٣) فَاضَ يَفِيْضُ فَيْضاً وَفَيَضَاناً : النهرُ ونحوه : امتلأَ حتى طفَحَ وسَالَ .

جَزِيْرَةٍ يُحِيْطُ بِهَا الْمَاءُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ[1] ، وَتَبْقَىٰ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ نَذْهَبُ مِنْهَا إِلَىٰ الْبَلَدِ وَنَشْتَرِي الْحَوَائِجَ مِنَ السُّوْقِ .

وَفِي سَنَةٍ كَانَ فَيَضَانٌ[2] عَظِيمٌ ، فَاضَ الْمَاءُ وَدَخَلَ الْبُيُوتَ وَخَافَ النَّاسُ الْغَرَقَ وَتَرَكْنَا قَرْيَتَنَا وَذَهَبْنَا إِلَىٰ الْبَلَدِ وَلَمْ نَرْجِعْ إِلَّا بَعْدَ شَهْرٍ .

وَيَزُوْرُ قَرْيَتِي كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَالْعُلَمَاءِ لأَنَّهَا قَرْيَةٌ مَشْهُوْرَةٌ وُلِدَ فِيْهَا كَثِيْرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ .

وَعَلَىٰ شَاطِىءِ النَّهْرِ مَسْجِدٌ قَدِيْمٌ بَنَاهُ جَدُّنَا الْكَبِيْرُ مَضَىٰ عَلَيْهِ ثَلَاثُمِئَةِ سَنَةٍ ، وَيَدْخُلُ فِيْهِ الْمَاءُ فِيْ كُلِّ فَيضَانٍ وَيَمْكُثُ فِيْهِ الْمَاءُ أَيَّاماً طَوِيْلَةً ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَضْعُفْ .

* * *

---

(١) جِهَات ج جِهَة : ناحية وَجَانب .

(٢) فَيَضَان (ج) فَيضَانات : سَيْلٌ (ج) سُيُول .

(٢١)

تـرْنِـيْـمَـةُ الـلَّـيْـلِ

إنَّ الْفِــــرَاشَ النَّـــاعِمَـــا	فِيْــــهِ تَـنَـــــامُ دَائِمَــــا
نَـــــمْ يَـــا حَبِيْبِـــــي	نَـــمْ آمِنـــاً نَـــمْ آمِنَـــا
رَاحَ النَّهَــــارُ وَاحْتَجَــــبْ	مَعَـــهُ الْعَنَـــاءُ[1] وَالتَّعَـــبْ
وَاللَّيْــلُ بِـــالأَمْــنِ اقْتَــرَبْ	نَـــمْ آمِنـــاً نَـــمْ آمِنـــا
بَـاتَـتْ عَصَـافِيْـرُ الْغَـرِدْ[2]	فِـيْ حِـفْـظِ مَـوْلاَنَـا الصَّمَـدْ[3]
مَـنْ لَيْـسَ يَغْفُـلُ عَـنْ أَحَـدْ	نَـــمْ فِـــيْ حِمَـــاهُ[4] آمِنَـــا

(١) العَنَاءَ: الـتَّـعْـبِ.

(٢) الغَرِدُ: الصَدْح.

(٣) الصَّمَد: اسْم من أسماء الله الحسنى.

(٤) الحِمَى: الصيانة، والحفاظ.

نَــمْ آمِنــاً حَتَّــى السَّحَــر   مِــنْ كُـلِّ ضَيْـمٍ[1] أَوْ كَـدَرْ[2]
نَـمْ فِيْ حِمَىٰ بـارِي البَشَـرْ   نَــمْ فِــيْ حِمَــاهُ آمِنَــا

(مَدَارِجُ الْقِرَاءَةِ)

* * *

(١) الضَّيْم: الظلم والإذلال.
(٢) الكَدَر: هَمٌّ وغَمٌّ وتَعب.

(٢٢)

مسَـابَقَـةٌ بَـيْـنَ شَـقِـيْـقَـيْـنِ

قَالَ سَيِّـدُنَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كُنْتُ وَاقِفاً يَوْمَ بَدْرٍ وَغُلاَمَانِ مِنَ الأَنْصَارِ مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ وَمُعَوَّذُ بْنُ عَفْرَاءَ عَنْ يَمِيْنِيْ وَشِمَالِيْ.

وَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَحَدُهُمَا، وَقَالَ لِيْ سِرّاً مِنْ صَاحِبِهِ: «أَيْ عَمِّ! هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ»؟

فَقُلْتُ: نَعَمْ! وَمَاذَا تُرِيْدُ مِنْهُ يَا بْنَ أَخِيْ؟

قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، أَرِنِيْهِ يَا عَمِّ! فَإِنِّي أَعْطَيْتُ اللهَ عَهْدَاً إِنْ رَأَيْتُهُ أَنْ أَقْتُلَهُ أَوْ أَمُوْتَ دُوْنَهُ.

وَقَـالَ لِيَ الآخَرُ سِـرّاً مِنْ صَاحِبِـهِ: أَرِنِيْـهِ يَا عَـمِّ! فَـإِنِّـيْ عَاهَدْتُ[١] اللهَ إِنْ عَايَنْتُهُ[٢] أَنْ أَضْرِبَـهُ بِسَيْفِيْ حَتَّىٰ أَقْتُلَهُ.

---

(١) عَاهَدَ يُعَاهِدُ الرَّجلُ فلاناً: أي أعطاه عهداً.
(٢) عَايَنَ يُعَايِنُ الرَّجل فُلاناً: أي رآه بعينه.

فَبَيْنَا أَنَا كَذٰلِكَ إِذْ بَرَزَ أَبُوْ جَهْلٍ ، فَقُلْتُ: أَلاَ تَرَيَانِ؟ هذَا أَبُوْ جَهْلٍ ، هٰذَا صَاحِبُكُمْ ، فَشَدَّا عَلَيْهِ مِثْلَ الصَّقْرَيْنِ حَتَّىٰ ضَرَبَاهُ .

ثُمَّ انْصَرَفَا[1] إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ .

فَقَالَ : «أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟» .

قال كلٌّ منهما : أَنَا قَتَلْتُهُ.

قَالَ : «هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا»؟

قَالاَ : لاَ!

فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السَّيْفَيْنِ .

فَقَالَ : «كِلاَهُمَا قَتَلَهُ» .

* * *

---

(١) انْصَرَفَ يَنْصَرِفُ : ذَهَبَ .

(٢٣)

جـزَاءُ الـوَالِـدَيْـنِ

وُلِدْتُّ صَغِيْراً ضَعِيْفاً لَا أَقْدِرُ عَلَىٰ عَمَلٍ ، لَا آكُلُ بِنَفْسِيْ وَلَا أَشْرَبُ بِنَفْسِيْ ، وَلَا أَتَكَلَّمُ وَلَا أَفْهَمُ ، فَحَنَتْ[١] عَلَيَّ أُمِّيْ وَأَرْضَعَتْنِيْ وَنَسِيَتْ نَفْسَهَا لِنَفْسِيْ ، وَهَجَرَتْ رَاحَتَهَا لِرَاحَتِيْ ، فَكَمْ سَهِرَتِ اللَّيَالِيَ ، وَكَمْ تَعِبَتْ فِي النَّهَارِ ، وَكُنْتُ لَهَا شغْلاً وَحَدِيْثاً ، وَإِذَا مَرِضْتُ طَارَ عَنْهَا النَّوْمُ ، وَمَا ذَاقَتْ طَعَاماً وَلَا شَرَاباً ، وَإِذَا سَكَتُّ اهْتَمَّتْ وَقَالَتْ : مَا بَالُكَ يَا بُنَيَّ ! مَاذَا أَسْكَتَكَ؟ لِمَاذَا لَا تَتَكَلَّمُ ، أَتَشْكُوْ وَجَعاً[٢] أَوْ أَغْضَبَكَ أَحَدٌ؟ وَإِذَا بَكَيْتُ جَاءَتْ تَجْرِيْ ، وَفِيْ اللَّيْلِ تَتَكَلَّمُ مَعِيْ وَتُضَاحِكُنِيْ .

وَلَمَّا دَخَلْتُ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ كَانَتْ تَتَحَدَّثُ مَعِيْ فِي اللَّيْلِ ، وَقَدْ عَرَفْتُ اللهَ وَرَسُوْلَهُ فِيْ حَدِيْثِهَا ، وَسَمِعْتُ قِصَصاً

---

(١) حَنَا يَحْنُوْ : الأم على ابنها : عَطَفت عليه .

(٢) وَجَع جمع أَوْجَاع : أَلَم (اسم جامع لكل مَرَض وألمٍ) .

كَثِيْرَةً ، سَمِعْتُ مِنْهَا وَأَنَا عَلَىٰ فَرَاشِيْ قِصَّةَ إِبْرَاهِيْمَ ، وَكَيْفَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، فَصَارَتْ بَرْداً وَسَلاَماً ، وَكَيْفَ نَشَأَ مُوْسَىٰ فِيْ قَصْرِ فِرْعَوْنَ ، وَسَمِعْتُ قِصَّةَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَقِصَّةَ حَلِيْمَةَ السَّعْدِيَّةِ وَقِصَصاً جَمِيْلَةً ، وَحَفِظْتُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ وَالآيَاتِ الأَخِيْرَةَ مِنْ سُوْرَةِ الْبَقَرَةِ وَأَدْعِيَةً كَثِيْرَةً ، فَكُنْتُ عَالِمَ الأَطْفَالِ وَكَانَ أَبِيْ يُحِبُّنِيْ كَثِيْرَاً ، وَكُنْتُ أَصْغَرَ إِخْوَتِيْ أَبِيْتُ مَعَهُ وَآكُلُ مَعَهُ ، وَإِذَا جَاءَ مِنْ سَفَرٍ اشْتَرَىٰ لِيْ هَدِيَّـةً جَمِيْلَةً ، وَكَانَ النَّاسُ يُحِبُّوْنَنِيْ وَيُقَرِّبُوْنَنِيْ إِلَيْهِمْ لِمَكَانِيْ مِنْ أَبِيْ ، وَقَدْ قَرَأْتُ عَلَىٰ أَبِيْ أَيْضَاً ، فَهُوَ لِيْ أَبٌ وَمُعَلِّمٌ.

وَكَانَ يُوْصِيْ أُمِّي أَنْ تَكْسُوَنِيَ[1] يَوْمَ الْعِيدِ لِبَاساً جَدِيْدَاً ، وَإِذَا مَرِضْتُ أَوْ سَقَطْتُّ مِنْ مَكَانٍ أَوْ أَصَابَنِيْ ضَرَرٌ أَوْ أَلَمٌ وَجَاءَهُ الْخَبَرُ طَارَ نَوْمُهُ ، وَسَهِرَ اللَّيْلَ هَمّاً وَحُزْناً ، كَيْفَ أُجَازِيْ[2] هٰذِهِ النِّعَمَ ، هَلْ يُمْكِنُ أَنْ أُجَازِيَهُمَا بِمَالٍ؟ كَلاَّ! فَأَنَا وَمَالِيْ لِوَالِدَيَّ ، نَعَمْ! أَنَا أَخْدِمُهُمَا بِالْمَالِ وَالْبَدَنِ ، بَلْ أَصِلُ أَصْدِقَاءَهُمَا وَأَقَارِبَهُمَا بِالْبِرِّ وَالْمَعْرُوفِ ، وَلٰكِنِّي سَأَدْعُوْ لَهُمَا ، وَأَقُوْلُ دَائِماً فِيْ دُعَائِيْ : «رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً».

---

(١) كَسَا يَكْسُو : أَلْبَسَه ثَوْباً.

(٢) أَجَازَ يُجَازِي : أعطى جائزةً.

وَسَأَجْتَهِدُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَغْتَبِطَا[1] بِيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ النَّاسِ وَأَمَامَ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ وَيَغْبِطُهُمَا أَصْحَابُ الأَوْلاَدِ وَيَقُوْلُوْنَ: يَا لَيْتَ لَنَا مِنَ الأَوْلاَدِ مِثْلَ مَا أُوْتِيَ فلاَنٌ ، إِنَّهُ لَسَعِيْدٌ.

وَسَأَجْتَهِدُ أَنْ أَعْمَلَ عَمَلاً يُنَادِيْ بِيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رُؤُوسِ الأَشْهَادِ فَيَقُوْلُ النَّاسُ: مَنْ هُوَ؟ فَيُقَالُ: ابْنُ فُلاَنٍ وَفُلاَنَةٍ ، فَيَغْتَبِطُ وَالِدَايَ وَيَنْعَمُ بَالِيْ.

وقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الوَلَدَ إِذَا حَفِظَ الْقُرْآنَ يُتَوَّج[2] وَالِدَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَسَأَجْتَهِدُ فِيْ حِفْظِ الْقُرْآنِ لِيُتَوَّجَ وَالِدَايَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الشَّهِيْدَ يَشْفَعُ لِسَبْعِيْنَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُنِي الشَّهَادَةَ ، فَأَشْفَعُ لِوَالِدَيَّ قَبْلَ النَّاسِ ، وَبِذٰلِكَ أُجَازِيْ بَعْضَ نِعَمِهِمَا.

* * *

---

(١) اغْتَبَطَ يَغْتَبِطُ: فَرِحَ بالنعمة.

(٢) تَوَّجَ يُتَوِّجُ: أَلْبَسَهُ التَّاجَ.

(٢٤)

أَدَبُ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ

كَانَ عُمَرُ بْنُ أَبِيْ سَلَمَةَ غُلاَماً صَغِيْراً وَكَانَ مَعَ أُمِّهِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيْ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَكَانَ عُمَرُ فِيْ حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ .

وَكَانَ عُمَرُ يَأْكُلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا يَأْكُلُ الْوَلَدُ الصَّغِيْرُ مَعَ أَبِيْهِ ، وَكَمَا تَأْكُلُ أَنْتَ مَعَ أَبِيْكَ وَأُمِّكَ .

وَكَانَ عُمَرُ غُلاَماً يَتِيْماً مَاتَ أَبُوْهُ وَهُوَ صَغِيْرٌ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ وَيُعَلِّمُهُ الأَدَبَ .

فَكَانَ يَأْكُلُ مَرَّةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَتْ يَدُهُ تَدُوْرُ فِي الصَّحْفَةِ وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ هُنَا وَهُنَا كَمَا يَأْكُلُ كَثِيْرٌ مِنَ الأَوْلاَدِ .

فَعَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَيْفَ يَأْكُلُ وَقَالَ لَهُ: «سَمِّ اللهَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيْكَ» .

وَهٰكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَأْكُلَ الْمُسْلِمُ ، فَيُسَمِّي اللهَ وَيَأْكُلُ بِيَمِيْنِهِ وَيَأْكُلُ مِمَّا يَلِيْهِ .

وَهٰكَذَا عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ أَدَبَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَأَدَبَ كُلِّ شَيْءٍ ، كَمَا عَلَّمَ عُمَرَ بْنَ أَبِيْ سَلَمَةَ الصَّغِيْرَ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً» .

وَقَدْ أَدَّبَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَّمَهُ أَدَبَ كُلِّ شَيءٍ فَقَالَ : «أَدَّبَنِيْ رَبِّيْ فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِيْ» .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا عَابَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ طَعَاماً قَطُّ ، إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ وَإِنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ .

وَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : «أَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ وَآكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَقَالَ : لَا آكُلُ مُتَّكِئاً» .

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ بِثَلَاثَةِ أَصَابِعَ وَإِذَا فَرَغَ لَعِقَهَا .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِذَا أَكَلَ طَعَاماً لَعِقَ[1] أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ ، وَقَالَ : «إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا وَلْيُمِطْ عَنْهَا الأَذىٰ وَلْيَأْكُلْهَا ، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ ،

---

(١) لَعِقَ يَلْعَقُ: لَحِسَ الشيءَ بلسانه أو إصبعِه .

وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقَصْعَةَ[1]، وَقَالَ: إِنَّكُمْ لاَ تَدْرُوْنَ فِيْ أَيِّ طَعَامِكُمُ بَـرَكَةٌ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ كَانَ يَتَنَفَّسُ فِي الشَّرَابِ ثَلاَثاً.

وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَىٰ أَنْ يُتَنَفَّسَ فِي الإِنَاءِ أَوْ يُنْفَخَ فِيْهِ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَىٰ عَنِ الشُّرْبِ قَائِماً.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا عَنِ الْحَرِيْرِ وَالدِّيْبَاجِ وَالشُّرْبِ فِيْ آنِيَةِ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ ، وَقَالَ: هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ لَكُمْ فِي الآخِرَةِ.

* * *

(١) نسلت القصعة : نَتَتَبَّع ما بقي فيها من الطعام ، ونمسحها بالأصبع ونحوه .

(٢٥)

شـرٌّ وَخَـيْــرٌ

شـــرُّ الْمَقَـــالِ الْكَـــذِبُ — خَيْـــرُ الْخِصَـــالِ[١] الأَدَبُ
الْبُخْــلُ عَيْــبٌ فَــاضِــحٌ[٢] — وَالْجُـــوْدُ سِتْــرٌ صَــالِـــحُ
الْعَقْــــلُ قَـــاضٍ عَـــادِلُ — وَالْعُجْـــــبُ دَاءٌ قَـــاتِـــلُ
الْعُمْـــرُ ضَيْـــفٌ رَاحِـــلُ — والْمَـــالُ ظِـــلٌّ زَائِـــلُ
الْبِـــرُّ لِلْحُـــبِّ سَبَـــبْ — إِنَّ الْبَخِيْــــلَ لاَ يُحَـــب
طَهَـــــارَةُ الأَخْـــــلاَقِ — مِـــنْ كَـــرَمِ الأَعْـــرَاقِ[٣]
الْكِــــذْبُ وَالنَّمِيْمَــــةْ — وَالْغَـــدْرُ شَـــرُّ شِيْمَـــةْ[٤]

---

(١) خَصْلَةٌ جمع خِصَال: خُلُق في الإنسانِ يكون حسناً أو سيئاً.
(٢) فَاضِحُ: مخل بالحياء.
(٣) عِرْق جمع أَعْرَاق: أصلُ كلِّ شيء. ويقال: تداركته أعراق صِدق أو سوءٍ، ومجرى الدم في الجسد.
(٤) شِيْمَة جمع شِيَم: غريزة وطبيعة وسجية.

تَـــأَنَّ[١] فِـــي الأُمُـــوْرِ   لاَ سِيَّمَـــــا السُّـــــرُوْرِ
وَاعْجَـــلْ إِلَـــى الْخَيْـــرَاتِ   مِـــــنْ حَـــــذَرِ الْفَـــوَاتِ
مَـــالَـــكَ غَيْـــرُ نَفْسِكَـــا   لاَ تَـــكُ عَنْهَـــا مُمْسِكَـــا

(أَبو الـعَتَـاهِيَّـةِ)

* * *

(١) تَـأَنَّـىٰ يَـتَـأَنَّـى: أَمْهَل فُلاناً وتـرَفَّـقَ به.

(٢٦)

يَوْمٌ مَطِيْرٌ

نَزَلَ الْمَطَرُ فِي اللَّيْلِ وَسَالَتِ الطُّرُقُ وَالشَّوَارِعُ ونَشَأَ وَحْلٌ كَثِيْرٌ زَلِقَ بِهِ النَّاسُ وَتَوَسَّخَتِ[1] الثِّيَابُ ، وَإِذَا سَارَتْ سَيَّارَةٌ تَطَايَرَ[2] الْمَاءُ.

انْقَطَعَ الْمَطَرُ فِي الصَّبَاحِ وَأَمِنَ النَّاسُ ، خَرَجُوْا يَمْشُوْنَ عَلَى الشَّوَارِعِ وَقَدْ تَوَسَّخَتْ ثِيَابُهُمْ بِالْوَحَلِ ، وَزَلَقَ[3] بَعْضُ النَّاسِ عَلَى الشَّارِعِ وَسَقَطَ فِي الْوَحْلِ[4] وَضَحِكَ النَّاسُ وَضَحِكَ الرَّجُلُ وَتَوَسَّخَتْ ثِيَابُهُ جِدّاً.

---

(١) تَوَسَّخَ يَتَوَسَّخُ: عَلاَهُ الوَسَخ ، وهو ما يعلو الثوب وغيره من القذارة.

(٢) تَطَايَرَ يَتَطَايَرُ الشيءُ: تَنَاثَرَ.

(٣) زَلِقَ يَزْلَقُ: زَلَّ.

(٤) وَحَل جمع أوحال ووُحُول: خليط من الطين والماء.

وَكَانَ النَّاسُ يَمْشُوْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ إِذْ جَاءَ الْمَطَرُ عَلَىٰ غَفْلَةٍ فَابْتَلَّتِ الثِّيَابُ ، وَكَانَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ قَدْ أَخَذُوْا مَعَهُمُ الْمَطْرِيَّاتِ[1] فَنَشَرُوْهَا ، وَكُنْتُ تَرَكْتُ مَطْرِيَّتِي فِي الْبَيْتِ وَظَنَنْتُ أَنَّ المَطَرَ قَدِ انْقَطَعَ فَتَأَسَّفْتُ جِدّاً وَجَرَيْتُ وَرَجَعْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَقَدِ ابْتَلَّتْ ثِيَابِيْ .

وَلَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ طُوْلَ النَّهَارِ وَلَمْ تَزَلْ فِي السَّمَاءِ غَيْمٌ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْبَيْتِ إِلَّا ذُو حَاجَةٍ ، وَسَئِمْتُ الْجُلُوْسَ فِي الْبَيْتِ فَخَرَجْتُ فِي الْعَصْرِ وَأَخَذْتُ الْمَطْرِيَّةَ مَعِيْ وَذَهَبْتُ إِلَىٰ صَدِيْقِيْ مَسْعُوْدٍ ، فَوَجَدْتُهُ يُطَالِعُ كِتَاباً .

قُلْتُ لَهُ : أَلَا تَخْرُجُ يَا أَخِيْ نَتَنَزَّهُ وَنَمْشِيْ قَلِيْلاً ، أَمَا سَئِمْتَ[2] الْجُلُوْسَ؟

قَالَ مَسْعُوْدٌ : أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَإِلَىٰ الأَرْضِ؟ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ الْوَحَلِ؟ هٰذَا لَيْسَ يَوْمَ الْخُرُوْجِ مِنَ الْبَيْتِ ، فَتَفَضَّلْ وَتَعَشَّ مَعِيْ .

قُلْتُ : أَمَّا الْجُلُوسُ فَنَعَمْ! وَأَمَّا الْعَشَاءُ فَلَا ، فَإِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ الْبَيْتِ سَرِيْعاً فَلَسْنَا نَدْرِيْ مَتَىٰ تُمْطِرُ السَّمَاءُ .

---

(١) مطْرية جمع مطريات : أداة كالمِظَلَّة تَحمي الشخص من المطر .
(٢) سَئِمَ يَسْأَمُ : مَلَّ .

وَجَلَسْتُ مَعَ صَدِيْقِيْ مَسْعُودٍ قَلِيْلاً ، ثُمَّ سَئِمْتُ الْجُلُوْسَ وَالْغَيْمَ ، فَاسْتَأْذَنْـتُهُ وَخَرَجْتُ إِلَىٰ الشَّارِعِ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَمَرَّتْ بِيْ وَتَطَايَـرَ الْمَاءُ وَالْوَحْلُ وَتَوَسَّخَتْ ثِيَابِيْ ، وَمَشَيْتُ قَلِيْلاً وَرَجَعْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ ، ومَا دَخَلْتُ الْبَيْتَ وَمَا وَضَعْتُ الْمَطْرِيَّةَ حَتَّىٰ جَاءَ الْمَطَرُ ، فَحَمِدْتُّ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ وَصَلْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ.

وَتَعَشَّيْتُ وَصَلَّيْتُ الْعِشَاءَ وَنِمْتُ وَمَا عَلِمْتُ مَتَىٰ انْقَطَعَ الْمَطَرُ .

وَكَانَتِ الأَمْطَارُ فِيْ هذِهِ السَّنَةِ كَثِيْرَةً وَقَدْ فَاضَتْ أَنْهَارٌ وَجَاءَ السَّيْلُ وَتَهَدَّمَتْ بُيُوْتٌ كَثِيْرَةٌ.

* * *

(٢٧)

البَرِيْدُ

(١)

خَالِدٌ: مَاذَا تَكْتُبُ يَا طَارِقُ؟

طَارِقٌ: أَنَا أَكْتُبُ كِتَاباً إِلَىٰ أَخِيْ عَامِرٍ.

خَالِدٌ: سَمِعْتُ أَنَّهُ فِيْ دِهْلِي فَهَلْ أَحَدٌ مُسَافِرٌ؟

طَارِقٌ: لاَ بَلْ يُسَافِرُ كِتَابِيْ.

خَالِدٌ: كَيْفَ يُسَافِرُ كِتَابُكَ يَا طَارِقُ؟

طَارِقٌ: أَنَا أَكْتُبُ الْكِتَابَ ثُمَّ أَضَعُهُ فِي الْغِلاَفِ وَأَكْتُبُ عَلَىٰ الْغِلاَفِ عُنْوَانَ أَخِيْ ثُمَّ أُرْسِلُهُ، أُنْظُرْ هٰذَا غِلاَفُ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا هٰذَا الشَّكْلُ فِيْ جَانِبِ الْغِلاَفِ يَا طَارِقُ؟

طَارِقٌ: هٰذَا طَابِعُ الْبَرِيْدِ، وَإِذَا أَرَدتُّ أَنْ أَكْتُبَ بِطَاقَةً أَكْتُبُ الْعُنْوَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الْبِطَاقَةِ. اُنْظُرْ هٰذِهِ بِطَاقَةٌ وَفِيْ جَانِبِهَا طَابِعُ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا هٰذِهِ الصُّوْرَةُ يَا طَارِقُ! هٰذِهِ صُوْرَةُ إِنْسَانٍ وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ صُوْرَةَ ذِيْ رُوْحٍ لاَ تَجُوْزُ فِي الإِسْلاَمِ.

طارقٌ: نَعَمْ! إِذَا كَانَتْ حُكُوْمَةٌ إِسْلاَمِيَّةٌ صَحِيْحَةٌ لَمْ تَكُنْ صُوْرَةٌ عَلَىٰ غِلاَفِ الْبَرِيْدِ وَالْبِطَاقَةِ.

خَالِدٌ: ثُم مَاذَا تَفْعَلُ يَا أَخِيْ إِذَا كَتَبْتَ الْعُنْوَانَ؟

طَارِقٌ: أَضَعُ الْكِتَابَ فِيْ صُنْدُوْقِ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا صُنْدُوْقُ الْبَرِيْدِ؟

طَارِقٌ: هَلْ رَأَيْتَ صُنْدُوْقاً أَحْمَرَ لَهُ فَمٌ فِيْ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ وَعَلَىٰ الشَّوَارِعِ؟

خَالِدٌ: نَعَمْ! رَأَيْتُهُ كَثِيْراً. وَمَنْ يَأْخُذُ هذَا الْكِتَابَ مِنْ صُنْدُوْقِ الْبَرِيْدِ وَكَيْفَ يَصْنَعُ؟

طَارِقٌ: يَحْمِلُ السَّاعِيْ الْكُتُبَ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ فَيُفْرِزُهَا[١] رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ الْبَرِيْدِ، هٰذَا إِلَىٰ دِهْلِيْ وَذٰلِكَ إِلَىٰ كَلْكُتَّا، وَهٰذَا إِلَىٰ الشَّرْقِ وَذٰلِكَ إِلَىٰ الْغَرْبِ وَيَخْتِمُهَا[٢].

---

(١) أَفْرَزَ يُفْرِزُ الشيء: عَزَلَه وَنَحَّاه، والأَرضَ: بَيَّنَ حدودَ كُلِّ حصة فيها.

(٢) خَتَمَ يَخْتِمُ الشيء: أَثَّرَ فيه بنقش.

خالد: ثُمَّ مَاذَا؟

طارِقٌ: ثُمَّ تُحْمَلُ هٰذِهِ الْكُتُبُ إِلَى الْمَحَطَّةِ ثُمَّ تُوْضَعُ عَلَىٰ الْقِطَارِ، وَيَحْمِلُهَا الْقِطَارُ إِلَىٰ مَكَانِهَا، فَكِتَابُ دِهْلِيْ يُسَافِرُ بِهِ قِطَارُ دِهْلِيْ إِلَىٰ دِهْلِيْ، وَكِتَابُ كَلْكُتَّا يُسَافِرُ بِهِ قِطَارُ كَلْكُتَّا إِلَىٰ كَلْكُتَّا.

خَالِدٌ: وَهَلْ يَحْضُرُ أَخُوْكَ إِلَىٰ مَحَطَّةِ دِهْلِيْ وَيَأْخُذُ كِتَابَهُ؟ وَهَلْ يَعْرِفُهُ نَاظِرُ الْمَحَطَّةِ؟

طَارِقٌ: لاَ يَحْتَاجُ أَخِيْ إِلَىٰ هٰذَا التَّعَبِ، بَلْ إِذَا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَىٰ مَحَطَّةِ دِهْلِيْ يُنْقَلُ مِنَ الْمَحَطَّةِ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: فَيَحْضُرُ أَخُوْكَ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ وَيَأْخُذُ رِسَالَتَهُ مِنْ مُدِيْرِ الْبَرِيْدِ؟

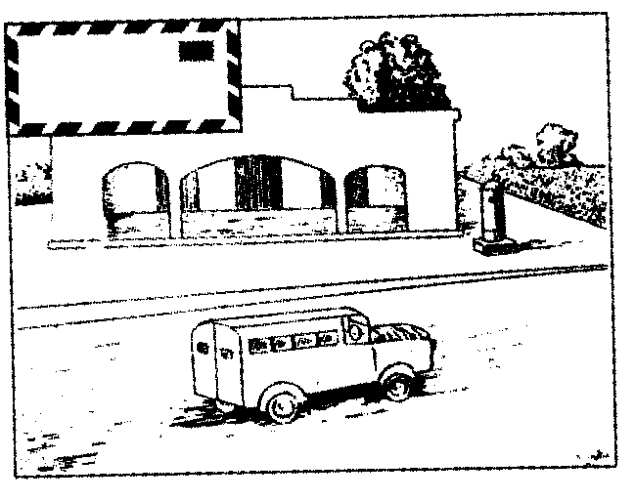
طَارِقٌ: لاَ تَعْجَلْ يَا أَخِيْ! أَنَا أُخْبِرُكَ بِخَبَرِ الْكِتَابِ، إِذَا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ يُفْرَزُ وَيُخْتَمُ هُنَالِكَ أَيْضاً حَتَّى يُعْرَفَ مَتَىٰ وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَىٰ دِهْلِيْ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ يَأْخُذُهُ السَّاعِيْ وَيَحْمِلُهُ إِلَىٰ أَخِيْ.

* * *

(٢٨)

البـريـد

(٢)



خَالِدٌ: وَكَيْفَ يَـكُوْنُ السَّاعِيْ يَا طَارِقُ؟ أَنَا مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ؟

طَارِقٌ: أَمَا رَأَيْتَ رَجُلاً يَرْتَدِيْ حُلَّةً[١] لَوْنُهَا رَمَادِيٌّ[٢] فِيْهَا أَزْرَارٌ[٣] نُحَاسِيَّةٌ[٤] وعَلَىٰ رَأْسِهِ عِمَامَةٌ يَحْمِلُ حَقِيْبَةً مِنْ جِلْدٍ؟

خَالِدٌ: نَعَمْ! قَدْ رَأَيْتُهُ وَرَأَيْتُ حَقِيْبَةً وَهِيَ مَلآنَةٌ بالأَوْرَاقِ ،

---

(١) حُلَّة جمع حُلَل: ثَوْبَانِ من جنسٍ واحدٍ.

(٢) رَمَادِيٌّ: ما يُشبِه لونه لون الرماد الَّذي يتخلَّف من احتراق المواد.

(٣) زِرّ جمع أَزْرَار: قرص يدخل في عروة الثوب ونحوه.

(٤) نحاسية: من معدن النحاس.

وَأَزْرَارُهُ النُّحَاسِيَّةُ تَلْمَعُ وَعِمَامَتُهُ تَظْهَرُ مِنْ بَعِيدٍ.

طَارِقٌ: ذٰلِكَ هُوَ سَاعِي الْبَرِيْدِ يَا خَالِدُ! وَالنَّاسُ يَنْتَظِرُوْنَهُ جِدّاً وَيَشْتَاقُوْنَ إِلَيْهِ خُصُوْصاً فِي الْقُرَىٰ، وَأَنْتَ تَنْتَظِرُهُ أَيْضاً إِذَا كَتَبْتَ كِتَاباً وَانْتَظَرْتَ جَوَابَهُ وَإِذَا طَلَبْتَ كِتَاباً مِنْ تَاجِرِ كُتُبٍ.

خَالِدٌ: وَرَأَيْتُ يَا طَارِقُ رَجُلاً آخَرَ يَرْتَدِيْ مِثْلَ حُلَّةِ السَّاعِيْ وَلَهُ أَزْرَارٌ نُحَاسِيَّةٌ وَعَلَىٰ رَأْسِهِ عِمَامَةٌ أَيْضاً وَلٰكِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ حَقِيْبَةٌ مِنْ جِلْدٍ، وَهُوَ عَلَىٰ دَرَّاجَةٍ حَمْرَاءَ أَرَاهُ يَذْهَبُ بِسُرْعَةٍ كَأَنَّهُ مُسْتَعْجِلٌ.

طَارِقٌ: هَوَ أَيْضاً سَاعِي الْبَرِيْدِ وَلٰكِنَّهُ لاَ يُوَزِّعُ الْكُتُبَ بَلْ يُوَزِّعُ الْبَرْقِيَّاتِ[1] وَيَذْهَبُ عَلَىٰ دَرَّاجَةٍ حَمْرَاءَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ لِيَصَلَ سَرِيْعاً، فَإِنَّ النَّاسَ لاَ يُرْسِلُونَ الْبَرْقِيَّةَ إِلاَّ لِتَصِلَ سَرِيْعَةً، وَالنَّاسُ يَعْرِفُوْنَهُ بِدَرَّاجَتِهِ الْحَمْرَاءِ.

خَالِدٌ: وَلٰكِنْ كَيْفَ يَقْدِرُ[2] رَجُلٌ وَاحِدٌ أَنْ يُوَزِّعَ الْكُتُبَ فِيْ جَمِيْعِ أَنْحَاءِ الْمَدِيْنَـةِ؟

---

(١) بَـرْقِية جمع بَـرْقِيات: تِلِغْرَاف وهي رسالة ترسل من مكان إلى آخر بوساطة جهاز البرق.

(٢) قَدَرَ على عدوه: قوي عليه، وتمكن منه.
قدَّر الشيء: حدد مقداره.

طَارِقٌ: لَا! فِيْ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ رِجَالٌ كَثِيْرٌ وَلِكُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ أَنْحَاءِ الْمَدِيْنَةِ وَلِكُلِّ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْبَلَدِ سَاعٍ.

خَالِدٌ: وَكَيْفَ يُنْفِقُ مَكْتَبُ الْبَرِيْدِ الأَمْوَالَ الْكَثِيْرَةَ وَكَيْفَ يَخْدِمُ مَجَّاناً؟ وَرِجَالُ الْبَرِيْدِ يَرْتَدُوْنَ حُلَلاً وَيَحْمِلُوْنَ حَقَائِبَ وَيَرْكَبُونَ دَرَّاجَاتٍ، فَمِنْ أَيْنَ تَأْتِيْ هٰذِهِ الأَمْوَالُ؟

طَارِقٌ: إِنَّ مَكْتَبَ الْبَرِيْدِ يَأْخُذُ أُجْرَةً مِنَ كُلِّ مَنْ يُرْسِلُ كِتَاباً بِالبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا هٰذِهِ الأُجْرَةُ وَمَتَىٰ تَدْفَعُهَا يَا أَخِيْ؟

طَارِقٌ: قَدِ اشْتَرَيْتُ هٰذَا الطَّابِعَ[1] مِنْ مَكْتَبِ البَرِيدِ وَهٰذِهِ هِيَ أُجْرَةُ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: أَشْكُرُكَ عَلَىٰ هٰذَا الْحَدِيْثِ الْمُفِيْدِ، وَسَأَكْتُبُ إِلَىٰ أَخِيْ وَصَدِيْقِيْ جَمِيْل، وَسَأُرْسِلُ الْكِتَابَ بِالْبَرِيْدِ، وَإِذَا كَتَبْتُ الْكِتَابَ جِئْتُكَ بِهِ فَتَرَاهُ وَتُصْلِحُهُ.

طَارِقٌ: حُبّاً وَكَرَامَةً، يَسُرُّنِيْ أَنْ أُسَاعِدَكَ.

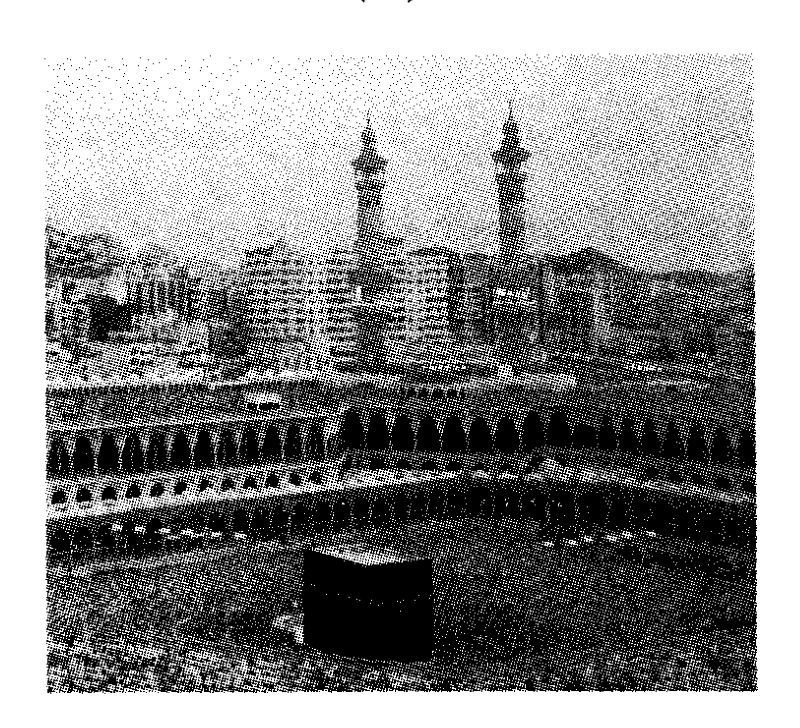
* * *

(١) طابع البريد: بطاقة صغيرة ذات رسم تحدد الدولة سعرها تلصق بظرف الرسائل رمزاً لأداء أجر الإرسال، ونحوه الطابع المالي، والطابع العقاري.

(٢٩)

مَنْ يَضَعُ الْحَجَرَ ؟

(١)



إِنَّكُمْ لَتَعْرِفُوْنَ هذَا الْبِنَاءَ ، وَمَنْ فِي الدُّنْيَا لاَ يَعْرِفُ هذَا الْبِنَاءَ؟ إِنَّكُمْ تَتَوَجَّهُوْنَ[1] إِلَيْهِ فِي الصَّلاَةِ ، وَيُسَافِرُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَطُوْفُوْنَ فِي الْحَجِّ .

---

(١) تَوَجَّهَ يَتَوَجَّهُ إلى المكان: قَصَده وذهب إليه.

الْكَعْبَـةُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِعِبَادَةِ اللهِ ، بَنَاهَا إِبْرَاهِيْمُ خَلِيْلُ اللهِ فِيْ مَكَّةَ وَفِيْهَا حَجَرٌ أَسْوَدُ يُقَبِّلُهُ النَّاسُ فِي الْحَجِّ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُـقَبِّلُهُ.

وَبَعْدَ زَمَنٍ طَوِيْلٍ أَرَادَ أَوْلَادُ إِبْرَاهِيْمَ وَهُمْ قُرَيْشٌ أَنْ يَبْنُوْا بِنَاءَ الْكَعْبَةِ مِنْ جَدِيْدٍ فَإِنَّهُ كَانَ بِنَاءً قَدِيْماً قَدْ سَقَطَ سَقْفُهُ[١] ، وَضَعُفَتْ جُدْرَانُهُ ، فَجَمَعَتْ قُرَيْشٌ الْحِجَارَةَ وَالْخَشَبَ لِبِنَائِهَا وَبَنَتْ قُرَيْشٌ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ مِنْ جَدِيْدٍ.

وَلَمَّا تَمَّ بِنَاءُ الْكَعْبَةِ أَرَادَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَضَعَ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فِيْ مَحَلِّهِ فَاخْتَصَمَتْ قُرَيْشٌ فِيْ وَضْعِ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ فِيْ مَحَلِّهِ ، كُلُّ قَبِيْلَـةٍ تُرِيْدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَىٰ مَوْضِعِهِ لأَنَّهُ شَرَفٌ عَظِيْمٌ ، كُلُّ قَبِيْلَةٍ حَرِيْصَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَـنَـالَ هٰذَا الشَّرَفَ.

كُلُّ قَبِيْلَةٍ حَرِيْصَة عَلَىٰ أَنْ تَـنَـالَ هٰذَا الشَّرَفَ وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ لأَنَّ الْحَجَرَ وَاحِدٌ وَالْقَبَائِلَ كَثِيْرَةٌ.

وَاخْتَلَفَتْ قُرَيْشٌ كَثِيْراً وَتَـنَـازَعَتْ وَكَانَ الْعَرَبُ يُقَاتِلُوْنَ لأَدْنَىٰ[٢] شَيْءٍ وَلِغَيْرِ شَيْءٍ ، يَتَقَدَّمُ فَرَسٌ فَيُقَاتِلُوْنَ ، وَيَسْبِقُ أَحَدُ

---

(١) سقف جمع سُقُوف: غطاء المنزل ونحوه ، وهو أعلاه المقابلُ لأَرْضِه.

(٢) أَدْنَىٰ : أقلّ.

فَيَسْقِيْ فَرَسَهُ أَوْ بَعِيْرَهُ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُوْنَ ، وَلاَ يَزَالُوْنَ يُقَاتِلُوْنَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً وَخَمْسِيْنَ سَنَةً ، فَلِمَاذا لاَ يُقَاتِلُوْنَ عَلَىٰ هٰذَا الشَّرَفِ؟ وَإِنَّهُ لَشَرَفٌ عَظِيْمٌ.

وَقَرَبَتْ قَبِيْلَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَفْنَةً[1] مَمْلُوءَةً دَمَاً ثُمَّ تَحَالَفَتْ[2] مَعَ قَبِيْلَةٍ أُخْرَىٰ عَلَىٰ الْمَوْتِ وَأَدْخَلُوْا أَيْدِيَهُمْ فِيْ ذٰلِكَ الدَّمِ وَقَالُوا: لا نَتْرُكُ هٰذَا الشَّرَفَ أَوْ نَمُوْتَ.

وَكَانَ هٰذَا شَرَّاً كَبِيْراً وَخَطَراً عَظِيْماً وَالْمَوْتُ شَيْءٌ هَيِّنٌ[3] لِلْعَرَبِ فِيْ سَبِيْلِ الْحَقِّ وَالشَّرَفِ.

إِذاً لا بُدَّ مِنَ الْحَرْبِ ، وَالْحَرْبُ مَشْؤُومَةٌ جِدَّاً.

* * *

(١) جَفْنَة جمع جَفَنَات وجفَان: الوعاءُ يُصْنَع من خزف ونحوه.
(٢) تَحَالَفَ يَتَحَالَفُ: تَعَاهَدَ.
(٣) هَيِّنٌ: سَهْلٌ.

(٣٠)

مَـنْ يَـضَـعُ الْـحَجَـرَ ؟

(٢)

وَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ ذٰلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْساً ثُمَّ إِنَّهُمُ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ وَتَشَاوَرُوا[١].

تَشَاوَرُوا وَقَالُوا: مَنْ يَضَعُ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فِيْ مَحَلِّه؟ كُلُّ قَبِيْلَةٍ حَرِيْصَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَـنَـالَ هٰذَا الشَّرَفَ، وَالْحَجَرُ وَاحِدٌ، وَالْقَبَائِلُ كَثِيْرَةٌ.

إِذاً لَا بُدَّ مِنَ الْحَرْبِ وَالْحَرْبُ مَشْؤُومَةٌ[٢] جِدّاً.

قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَا بَأْسَ[٣] بِالْحَرْبِ فَالْمَوْتُ شَيْءٌ هَيِّنٌ لِلْعَرَبِ فِيْ سَبِيْلِ الْحَقِّ والشَّرَفِ.

---

(١) تَشَاوَرَ يَتَشَاوَرُ القومُ: شَاوَرَ بَعْضُهم بعض.

(٢) مشؤوم، مشؤومة جمع مَشَائيم: من أصَابه الشؤم.

(٣) لابأس: لا مانع أو عيب فيه.

قَالَ العُقَلاَءُ: نَعَمْ! لاَ بَأْسَ بِالْحَرْبِ وَلٰكِنْ لاَ حَاجَةَ إِلَىٰ الحَرْبِ فِي هذَا الْوَقْتِ.

ولٰكِنْ مَا هُوَ الطَّرِيْقُ؟ وَكَيْفَ يُوْضَعُ الْحَجَرُ الأَسْوَدُ فِي مَحَلِّه بِغَيْرِ قِتَالٍ؟

تَشَاوَرُوْا وَتَشَاوَرُوْا وَتَشَاوَرُوْا كَثِيراً وَوَجَدُوْا الطَّرِيْقَ.

قَالَ شَيْخٌ وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ سِنّاً: أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هٰذَا الْمَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَكُمْ، فَقَبِلُوْا وَرَضُوْا بِذٰلِكَ.

تَعْرِفُوْنَ مَنْ كَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ؟ كَانَ أَوَّلُ دَاخِلٍ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هذَا الأَمِيْنُ رَضِيْنَا[1]، هٰذَا مُحَمَّدٌ!

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرُوْهُ الْخَبَرَ طَلَبَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ثَوْباً فَأُتِيَ بِهِ، فَأَخَذَ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فَوَضَعَهُ فِيْهِ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ:

لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيْلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ ثُمَّ ارْفَعُوْهُ جَمِيْعاً، فَفَعَلُوْا حَتَّى إِذا بَلَغُوا مَوْضِعَهُ وَضَعَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فِيْ مَحَلِّهِ بِيدِهِ، وَهٰكَذَا دَفَعَ[2] رَسُوْلُ اللهِ ﷺ هٰذَا الشَّرَّ وَمَنَعَ الْحَرْبَ.

❋ ❋ ❋

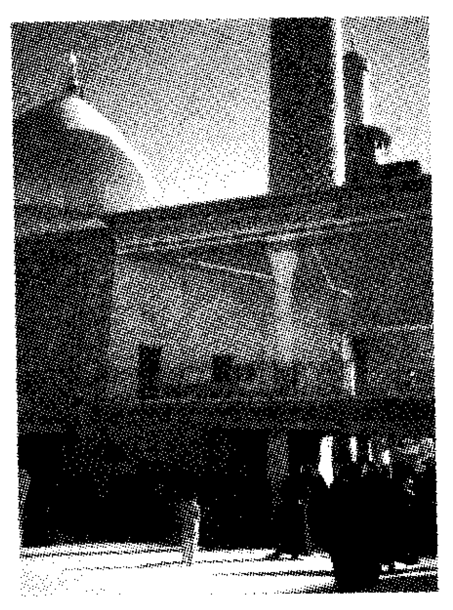
---

(١) رَضينا: ضدّ سخط.

(٢) دَفَعَ يَدْفَعُ الشرَّ: رَدَّه.

(٣١)

يـوْمُ الْـعِيْـدِ



كانَ أَمْسِ يَوْمُ العِيْدِ ، اجْتَمَعَ النَّاسُ وَالأَطْفالُ عِنْدَ الْغُرُوبِ يَتَرَاؤون[١] الْهِلاَلَ ، وَصَعِدُوا عَلَىٰ سُقُوفِ الْبُيُوتِ وَالسُّطُوحِ وَعَلَىٰ المَنَارَاتِ .

ظَهَرَ الْهِلاَلُ فَهَتَفَ[٢] الأَوْلاَدُ : «الْهِلاَلُ ، الْهِلاَلُ» وَجَرَوْا إِلَىٰ بُـيُوْتِهِمْ وَسَلَّمُوْا عَلَىٰ آبائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَعَلَىٰ الأَقَارِبِ ،

---

(١) تَـرَاءى يَـتَراءى القوم : رَأى بعضهم بعضاً . الشيءُ : ظَهَرَ وبَدَا .
(٢) هَتَفَ يَهْتِفُ : صَاحَ .

فَدَعَوْا لَهُمْ بِالْبَرَكَةِ وَطُوْلِ الْعُمُرِ .

وَنَامَ الأَطْفَالُ لَيْلَةَ الْعِيْدِ قَلِيْلاً ، وَاسْتَيْقَظُوْا مُبَكِّرِيْنَ وَقَدْ نَظَرُوْا إِلَىٰ مَلاَبِسِهِمْ وَأَحْذِيَتِهِمْ وَقَلاَنِسِهِمْ[1] مِرَاراً عَدِيْدَةً .

وَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ الْعِيْدِ قَامُوا مِنْ فُرُشِهِمْ وَصَلَّوُا الصُّبْحَ وَاغْتَسَلُوْا وَغَيَّرُوْا مَلاَبِسَهُمْ ، وَلَبِسَ كَثِيْرٌ مِنْهُمْ مَلاَبِسَ جَدِيْدَةً وَأَحْذِيَةً جَدِيْدَةً وَقَلاَنِسَ جَمِيْلَةً ، وَرَأَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ فَفَرِحْنَ بِهِمْ ، وَقَدَّمَ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَأَقَارِبُهُمْ جَائِزَةَ الْعِيْدِ .

وَكَانَ وَلَدٌ يَتِيْمٌ تَخْدِمُ أُمُّهُ فِيْ بَيْتِ سَعِيدٍ وَلَيْسَ عِنْدَهُ لِبَاسٌ جَدِيْدٌ وَلاَ حِذَاءٌ جَدِيْدٌ وَلاَ قَلَنْسُوَةٌ نَظِيْفَةٌ ، فَاغْتَسَلَ وَلَبِسَ لِبَاسَهُ الْقَدِيْمَ وَقَدْ تَشَقَّقَ[2] ، وَلَبِسَ قَلَنْسُوَتَهُ الْقَدِيْمَةَ وَقَدْ تَوَسَّخَتْ ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَىٰ أَتْرَابِهِ[3] وَإِلَىٰ أَوْلاَدِ الأَغْنِيَاءِ بِغِبْطَةٍ[4] وَخَجَلٍ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ مَحْزُونَةً تَذْكُرُ أَبَاهُ .

حَزِنَ سَعِيدٌ بِهذَا الْمَنْظَرِ وَاسْتَحَىٰ فِيْ نَفْسِهِ فَأَسْرَعَ إِلَىٰ صُنْدُوْقِهِ وَأَهْدَىٰ إِلَيْهِ مَلْبُوساً نَظِيْفاً وَقَلَنْسُوَةً نَظِيْفَةً ، فَذَهَبَ الْيَتِيْمُ

---

(١) قَلَنْسَوَة جمع قَلاَنِس : لباس للرأس .
(٢) تَشَقَّقَ يَتَشَقَّقُ : تَصَدَّع وَبدتْ شقوقه .
(٣) تِرْبٌ جمع أَتْـرَاب : المماثل في السنّ (للمذكر والمؤنث) .
(٤) غِبْطة : مَسَرَّة ، حُسن الحال .

وَغَيَّـرَ اللِّبَاسَ وَفرِحَ كَثِيْرَاً وَفَـرِحَتْ أُمُّهُ ، وَدَعَتْ لِسَعِيْدٍ بِالبَرَكَةِ وَطُوْلِ الْعُمُرِ .

وَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ خَرَجَ النَّاسُ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ وَكَانَ مَنْظَراً جَمِيْلاً يَقُوْلُوْنَ : «اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ ، لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ ، وللهِ الْحَمْدُ» .

وَصَلَّىٰ الإِمَامُ بِالنَّاسِ ، ثُمَّ خَطَبَ ، وَرَجَعَ النَّاسُ مِنَ الْمُصَلَّىٰ بِطَرِيْقٍ آخَرَ ، وَزَارَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَضَيَّفَ[1] بَعْضُهُمْ أَصْدِقَاءَهُمْ ، وَهَنَّأَ كُلُّ مُسْلِمٍ صَدِيْقَهُ وَقَالَ : «عِيْدٌ سَعِيْدٌ» كُلَّ عَامٍ وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ .

وَكَانَ صَبَاحُ الْعِيْدِ جَمِيْلاً ، وَفِي الْعَصْرِ ذَكَرَ النَّاسُ رَمَضَانَ وَفُطُوْرَهُ ، وَفِي اللَّيْلَ ذَكَرُوا التَّرَاوِيحَ ، وَشَعَرَوْا كَأَنَّهُمْ فَقَدُوْا شَيْئاً أَوْ ضَاعَ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ :

«الْعِيْدُ سَاعَاتٌ وَرَمَضَانُ كُلُّهُ عِيْدٌ» .

* * *

---

(١) ضَيَّـفَ يُـضَيِّـفُ : أَضَافَهُ وَأَنْـزَلَه عنده .

القراءة الراشدة

لتعليم اللغة العربية في المدارس الإسلامية

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

الجزء الثاني

راجعه وشرح ألفاظه

السَّيِّد عبد الماجِد الغَوري

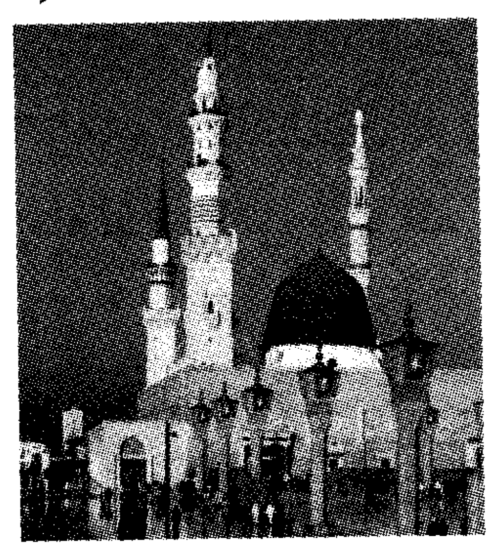
دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت



(٣٢)

شهَامَةُ الْيَتِيْمِ



تَرَوْنَ أَمَامَكُمْ صُوْرَةَ مَسْجِدٍ ، هٰذَا مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، هَلْ تَعْرِفُوْنَ مِنْ خَبَرِ هٰذَا الْمَسْجِدِ شَيْئاً؟ إِنَّ لَهُ تَارِيْخاً يَغْتَبِطُ[1] بِهِ كُلُّ طِفْلٍ مُسْلِمٍ.

لَمَّا دَعَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَىٰ اللهِ فِيْ مَكَّةَ ، وَنَادَىٰ فِي النَّاسِ «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ» غَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَكَانَتْ

---

(١) اغْتَبَطَ يَغْتَبِطُ: فَرِحَ بالنعمة.

تَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَكَانَتْ فِي الْكَعْبَةِ الَّتِيْ بَنَاهَا إِبْرَاهِيْمُ وَإِسْمَاعِيْلُ «عَلَيْهِمَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ» لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ: كَانَ فِيْ تِلْكَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِئَةٍ وَسِتُّوْنَ صَنَماً ، فَاشْتَعَلَتْ قُرَيْشٌ غَضَباً وَآذَوْا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ وَعَذَّبُوا الْمُسْلِمِيْنَ ، فَصَبَرَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَصَبَرَ الْمُسْلِمُوْنَ وَثَبَتُوْا لَهُمْ كَالْجِبَالِ.

وَلٰكِنَّ قُرَيْشاً كَانُوْا يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الإِسْلاَمِ وَيَحُوْلُوْنَ[1] بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَعِبَادَةِ اللهِ ، فَأَذِنَ اللهُ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ بِالْهِجْرَةِ ، فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ وَهَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ ، وَكَانَتِ الْمَدِيْنَةُ أَرْضاً طَيِّبَةً للإِسْلاَمِ ، فِيْ أَهْلِهَا لِيْنٌ وَرِقَّةٌ ، قَدْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ كَثِيْرٌ قَبْلَ الْهِجْرَةِ.

وَلَمَّا انْتَقَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَسَكَنَ هُنَالِكَ أَحَبَّ أَنْ يَبْنِيَ مَسْجِداً ، لأَنَّ الْمَسْجِدَ لاَزِمٌ[2] لِلْمُسْلِمِيْنَ ، وَهُوَ قُطْبٌ يَدُوْرُ حَوْلَهُ رَحَى[3] الْحَيَاةِ الإِسْلاَمِيَّةِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ نَازِلاً فِيْ بَيْتِ أَبِيْ أَيُّوْبَ الأَنْصَارِيِّ (رَضِيَ

---

(١) حَالَ يَحُوْلُ : مَنَعَ.

(٢) لازم: ضروري.

(٣) رحىٰ جمع أرحاء: أداة يطحن بها ، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ، ويدار الأعلىٰ على قطب.

اللهُ عَنْهُ) وَكَانَ ضَيْفاً عَلَيْهِ ، وَكَانَ قَرِيْباً مِنْ بَيْتِهِ مِرْبَدٌ[1] ، فَأَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبْنِيَ الْمَسْجِدَ فِيْ ذٰلِكَ الْمَكَانِ ، قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : لِمَنْ هذَا الْمِرْبَدُ؟

قَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ اسْمُهُ مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ : هُوَ يَا رَسُوْلَ اللهِ! لِيَتِيْمَيْنِ ، اسْمُ أَحَدِهِمَا سَهْلٌ واسمُ الثَّانِيْ سُهَيْلٌ .

طَلَبَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَهْلاً وَسُهَيْلاً ، وَهُمَا وَلَدَانِ يَتِيْمَانِ ، فَلَمَّا حَضَرَا ، كَلَّمَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيْ أَمْرِ الْمِرْبَدِ وَثَمَنِه .

قَالَ سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ : هُوَ يَا رَسُوْلَ اللهِ ! للهِ ، لاَ نَشْتَرِيْ بِهِ ثَمَنَاً ، فَابْنِ الْمَسْجِدَ ، وَقَدْ طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُنَا ، وَلٰكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَبىٰ وَاشْتَرَىٰ مِنْهُمَا الْمَكَانَ ، وَدَفَعَ الثَّمَنَ .

وَبَنَىٰ الْمُسْلِمُوْنَ الْمَسْجِدَ ، وَرَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ بِيَدِهِ وَيَنْقُلُ اللَّبِنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ :

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ... لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلِّلُ

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَبْنُوْنَهُ وَيَقُوْلُوْنَ :

اللهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَة ... فَارْحَمِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَة

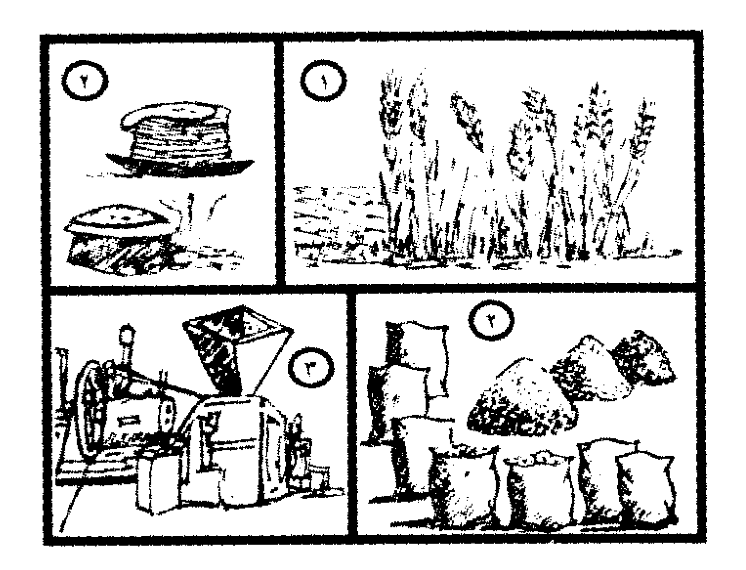
وَقَدْ زَادَ فِيْ هذَا الْمَسْجِدِ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وَالْمُلُوْكُ بَعْدَهُ ، حَتَّىٰ تَرَوْنَهُ فِيْ هذَا الشَّكْلِ .

---

(١) مِرْبَدٌ جمع مَرَابِد : مَوْقف الإبل ومَحْبسها .

(٣٣)

كِسْـرَةٌ مِـنَ الْـخُبْـزِ



مَـرَّةً أَخَـذْتُ كِسْـرَةً[١] مِـنَ الْخُبْـزِ لآكُلَهَـا فَقَـالَـتْ: مَهْـلاً يَا سَيِّدِي[٢]! إِنَّكَ غَيْرُ جَائِعٍ، وَقَدْ أَكَلْتَ أَخَوَاتِيْ، أَفَلاَ تُحِبُّ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ قِصَّتِيْ، فَإِنَّهَا غَرِيْبَةٌ وَإِنَّهَا لَذِيْذَةٌ.

قُلْتُ: بَلَىٰ! أُرِيْدُ أَنْ أَسْمَعَ قِصَّتَكِ، فَلاَ آكُلُكِ حَتَّىٰ أَسْمَعَ مِنْكِ.

---

(١) كِسْرَة جمع كِسَر: القطعة المكسورة من الشيء.

(٢) مَهْلاً يا سيِّدي: رِفْقاً لا تَعْجل يا سيِّدي.

قَالَتْ: هَلْ تَظُنُّ يَا سَيِّدِيْ! أَنِّي خُلِقْتُ هكَذَا؟ هَلْ سَمِعْتَ أَنَّ الْخُبْزَ يَنْبُتُ فِي الْحَقْلِ[1] أَوْ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ؟ إِنَّكَ تَأْكُلُ مُسْتَرِيْحاً يَأْتِيْكَ رِزْقُكَ رَغَداً، وَلٰكِنِّيْ لَمْ أَزَلْ أَتَحَمَّلُ الْمَشَاقَّ[2] لأَجْلِكَ، وَأَخْرُجُ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَىٰ مُصِيْبَةٍ وَمِنْ مَحْبِسٍ إِلَىٰ مَحْبِسٍ حَتَّىٰ وَصَلْتُ إِلَىٰ يَدِكَ.

كَانَ مِنْ خَبَرِيْ أَنِّيْ كُنْتُ حَبَّةَ حِنْطَةٍ[3] مَعَ شَقِيْقَاتِيْ فِيْ غِرَارَةٍ[4]، فَجَاءَ إِلَيْنَا رَجُلٌ، فَأَخَذَنِيْ مَعَ رَفِيْقَاتِيْ، فَبَذَرَنَا[5] فِي التُّرَابِ.

هُنَالِكَ فِي الْحَقْلِ أَبْصَرْتُ الدُّنْيَا وَأَصَابَتْنِي الشَّمْسُ وَكُنْتُ مَسْرُوْرَةً جِدّاً، وَلٰكِنْ نَـزَلَ الْمَطَرُ، وَدَخَلْتُ إِلَىٰ بَاطِنِ التُّرْبَةِ، وَبَقِيْتُ مَدْفُوْنَةً أَيَّاماً، وَأَخَذَ جِسْمِيْ يَكْبُرُ وَجِلْدِي يَضِيْقُ عَلَيَّ، حَتَّىٰ انْشَقَّ جِلْدِي، وَخَرَجَ مِنْهُ جُذَيْرَاتٌ كَالشَّعْرِ، ثُمَّ خَرَجَتْ وُرَيْقَاتٌ شَقَّتِ التُّرْبَةَ، وَظَهَرَتْ فَوْقَ الأَرْضِ، فَكُنْتُ يَا سَيِّدِيْ! سُنْبُلَةً قَائِمَةً عَلَىٰ سَاقٍ.

---

(١) حَقْل جمع حُقُول: كل قطعة من الأرض قابلة للحرث والزرع.
(٢) مَشَقَّة جمع مَشَاق ومَشَقَّات: عناء وتعب.
(٣) حِنْطَةٌ جمع حِنَط: قمح.
(٤) غِرَارَة جمع غَرَائِر: وعاء من الخيش ونحوه توضع فيه الحبوب.
(٥) بَذَرَ يَبْذُرُ الحَب: أَلْقَاه في الأرض متفرِّقاً للزراعة.

ثُمَّ أَصْبَحْتُ سُنْبُلَةً صَفْرَاءَ فِيْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ ، وَكُنْتُ أَرَى صَدِيْقَاتِيْ وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ وَنَهْتَزُّ طَرَباً ، وَكَانَتْ أَيَّاماً جَمِيْلَةً.

وَمَا طَالَتْ تِلْكَ الْمُدَّةُ فَقَدْ جَاءَ رِجَالٌ يَحْمِلُوْنَ الْمَنَاجِلَ[1] ، فَحَصَدُوْا وَحَمَلُوْا ، وَانْتَقَلْتُ إِلَىٰ بَيْدَرٍ[2] وَمَكَثْتُ أَيَّاماً.

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ الأَيَّامِ فَقَدْ جَاءَ ثِيْرَانٌ فَدَاسَتْنَا[3] بِأَقْدَامِهَا ، وَفَارَقْتُ السُّنْبُلَةَ ، وَكُنْتُ طَرِيْحاً[4] ذَلِيْلاً.

ثُمَّ أَخَذَنَا رِجَالٌ وَذَرَوْنَا[5] فِي الرِّيْحِ ، فَطَارَ الْقِشْرُ وَبَقِيَ الْقَمْحُ.

وَكَانَ أَشَدَّ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ: أَنَّ رَجُلاً حَمَلَنِيْ إِلَىٰ شَيْءٍ مُدَوَّرٍ مِنَ الْحَجَرِ ، فِيْهِ ثَقْبٌ ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ لَهُ صَوْتاً شَدِيْداً كَرِيْهاً وَجَعْجَعَةً[6] ، فَأَلْقَانِيْ فِيْهِ فَطَحَنَنِيْ طَحْناً ، هَلْ تَعْرِفُ اسْمَهُ يَا سَيِّدِي؟. ذٰلِكَ هُوَ الطَّاحُوْنُ أَوِ الرَّحَىٰ.

---

(١) مِنْجَل جمع مَنَاجِل: آلة لحصْدِ الزرْع أو لِحَشِّ العُشْبِ.
(٢) بَيْدر جمع بَيَادِر: الموضع يُجْمع فيه ما يُحصد من الحبوب.
(٣) دَاسَ يَدُوْسُ الشيءَ: وَطئه وَطْئاً شديداً بقدمه.
(٤) طَرِيْح: مَتْرُوك.
(٥) ذَرَا يَذْرُو: أطار وفرَّق.
(٦) جَعْجَعَة: تصويت الرحىٰ.

فَلَمَّا صِرْتُ دَقِيْقاً أَخَذَنِي الْخَبَّازُ وَوَضَعَنِيْ فِيْ مِعْجَنَةٍ ، وَغَمَرَنِيْ بِالْمَاءِ النَّقِيِّ ، وَغَمَزَنِيْ ، حَتَّىٰ صِرْتُ عَجِيْنَاً ، فَصَنَعَ مِنِّيْ كُرَةً.

هُنَالِكَ جَاءَتِ الْمُصِيْبَةُ ، فَقَدْ دَحَانِيْ[1] عَلَىٰ حَدِيْدٍ مُحَمّىً تُسَمُّوْنَهُ الطَّابقَ ، لاَ تَسْأَلْ يَاسَيِّدِيْ! عَنْ أَلَمِيْ وَاحْتِرَاقِيْ فَقَدْ الْتَوَيْتُ[2] وَانْكَمَشْتُ[3] ، وَلٰكِنَّ الْخَبَّازَ لَمْ يَرْحَمْنِيْ وَلَمْ يَرِقَّ لِيْ ، حَتَّىٰ كُنْتُ رِقَاقَاً[4].

كُلُّ ذٰلِكَ فِيْ سَبِيْلِكَ يَا سَيِّدِيْ ، كُنْتُ أَشْقَىٰ لِنَعِيْمِكَ وَأَتْعَبُ لِلَذَّتِكَ ، وَأَنْتَقِلُ مِنْ طَوْرٍ[5] إِلَىٰ طَوْرٍ ، لِتَأْكُلَ هَنِيْئاً وَتَشْبَعَ ، أَفَلاَ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقُوْلَ :

«الْحَمْدُ لله الَّذِيْ أَطْعَمَنِيْ وَسَقَانِيْ وَجَعَلَنِيْ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ».

* * *

---

(١) دَحَا يَدْحو : بَسَطَ ومَدَّ ووسَّعَ.

(٢) الْتَوَىٰ يَلْتَوِيْ الشيءُ : اعْوَجَّ.

(٣) انكَمَشَ يَنْكَمِشُ : انْفَرَدَ وانْطَوَىٰ.

(٤) رِقَاق : خبز منبسط رقيق.

(٥) طَوْر جمع أَطْوَار : حال ، هيئة.

(٣٤)

عِيَـادَةُ الـمَـرِيْـضِ

ذَهَبَ حَامِدٌ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ يَوْمَ السَّبْتِ فَوَجَدَ أَنَّ صَدِيْقَهُ حُسَيْناً مَا حَضَرَ فِي الْمَدْرَسَةِ ، فَسَأَلَ أَخَاهُ عَلِيّاً عَنِ السَّبَبِ ، فَقَالَ : إِنَّهُ مَحْمُوْمٌ[١] مِنْ يَوْمِ الْخَمِيْسِ ، فَعَزَمَ حَامِدٌ عَلَىٰ أَنْ يَعُوْدَهُ فِي الرُّجُوْعِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ .

ذَهَبَ حَامِدٌ إِلَىٰ بَيْتِ حُسَيْنٍ فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ ، فَخَرَجَ أَبُوْ حُسَيْنٍ ، قَال حَامِدٌ : إِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَعُوْدَ صَدِيْقِيْ حُسَيْناً فَقَدْ أَخْبَرَنِيْ عَلِيٌّ أَنَّهُ مَرِيْضٌ ، قَالَ أَبُوْهُ : نَعَمْ! إِنَّهُ أَصَابَتْهُ الْحُمَّىٰ[٢] يَوْمَ الْخَمِيْسِ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَعُوْدَهُ .

صَعِدَ حَامِدٌ إِلَىٰ السَّطْحِ ، وَدَخَلَ غُرْفَةَ حُسَيْنٍ ، فَرَأَىٰ حُسَيْناً

---

(١) مَحْمُومٌ : مُصَابٌ بالحمَّىٰ .

(٢) حُمَّىٰ : علّة يَسْتَحِرُّ بها الجسم .

مُضْطَجِعاً ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِلُطْفٍ ، وَدَنَا مِنْهُ ، وَقَالَ لَهُ: كَيْفَ حَالُكَ يَا أَخِيْ! عَافَاكَ اللهُ.

قَالَ حُسَيْنٌ: قَدْ أَصَابَتْنِي الْحُمَّىٰ يَوْمَ الْخَمِيْسِ ، وَكَانَتْ شَدِيْدَةً يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَخَفَّتْ فِيْ اللَّيْلِ ، وَلٰكِنِّي أَشْكُو الصُّدَاعَ[1] وَالدُّوَارَ[2] ، وَقَدْ ضَعُفْتُ كَثِيْراً ، كَأَنِّي مَرِيْضٌ مُنْذُ أَيَّامٍ ، وَلَا أَشْتَهِي الطَّعَامَ.

قَالَ حَامِدٌ: لَا بَأْسَ طَهُوْرٌ إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَهَلْ عَادَكَ طَبِيْبٌ؟

قَالَ حُسَيْنٌ: نَعَمْ! قَدْ عَادَنِيْ طَبِيْبٌ أَمْسِ ، وَمَوْعِدُهُ الآنَ.

وَلَمْ يَجْلِسْ حَامِدٌ إِلَّا قَلِيْلاً ، حَتَّىٰ حَضَرَ الطَّبِيْبُ فَجَسَّ[3] يَدَ حُسَيْنٍ ، وَقَاسَ الْحَرَارَةَ ، وَامْتَحَنَ الصَّدْرَ بِالسَّمَّاعَةِ[4] ، وَأَبْدَىٰ الاِرْتِيَاحَ ، وَغَيَّرَ فِي الْوَصْفَةِ قَلِيْلاً ، وَقَالَ: إِنَّهُ بَارِىءٌ بِحَمْدِ اللهِ ، وَأَوْصَىٰ[5] أَبَاهُ بِأَنْ يَحْمِيَ حُسَيْناً الْمَاءَ الْبَارِدَ وَالزَّيْتَ وَالْخُرُوْجَ فِي الْهَوَاءِ وَالتَّعَبِ ، وَيَسْقِيَهُ اللَّبَنَ وَمَاءَ الشَّعِيْرِ وَمَاءَ الْفَوَاكِهِ.

---

(١) صُدَاع: وَجْعُ الرأس.

(٢) دُوَار: دَوْرَان يَأخذ بالرأس (دوخة) لمرض أو سفر.

(٣) جَسَّ يَجُسُّ اليَدَ: مَسَّها.

(٤) السَّمَّاعَة: آلة يَسْمَع بها الطبيب نبض القلب.

(٥) أوْصَاه يُوْصِيْ بأمر: أَمَرَه به.

وَجَلَسَ حَامِدٌ قَلِيْلاً ، وَقَالَ: إِنَّ الْعَائِدَ إِذَا أَطَالَ الْجُلُوْسَ عِنْدَ الْمَرِيْضِ ، شَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَأَسْتَأْذِنُ وَأَنْصَرِفُ ، وَأَعُوْد إِنْ شَاءَ اللهُ غَداً .

❊ ❊ ❊

(٣٥)

الْكِيْـمِيْـاء

كَانَ الأَوْلَادُ يَتَحَدَّثُوْنَ فِي اللَّيْلِ وَيَتَسَامَرُوْنَ[١] ، وَكَانَ أَكْثَرُ حَدِيْثِهِمْ عَنِ الْكِيْمِيَاءِ ، وَكَانَ إِسْمَاعِيْلُ يَقُوْلُ: سَمِعْتُ أَنَّ شَيْخاً يُحَوِّلُ الـتُّـرَابَ ذَهَباً ، وَيَجْعَلُ نُقُوْدَ النِّيْكَلِ وَالرَّصَاصِ: دَنَانِيْـرَ ذَهَبِيَّةً وَجُنَيْهَاتٍ .

وَصَدَّقَهُ مَحْمُوْدٌ وَقَالَ: نَعَمْ! إِنَّهُ فَنٌّ كَانَ النَّاسُ يَعْرِفُوْنَهُ ، وَلٰكِنِ انْقَرَضَ[٢] عُلَمَاءُ هٰذَا الفَنِّ ، وَطُوِيَ ذٰلِكَ الْبِسَاطُ .

فَتَأَسَّفَ الأَوْلَادُ كَثِيْراً ، وَحَزِنُوْا ، وَقَالُوْا: لَوْ وَجَدْنَا أَحَداً يَعْرِفُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ ، لَتَعَلَّمْنَاهَا مِنْهُ ، وَصِرْنَا أَغْنِيَاءَ بِدُوْنِ تَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ .

---

(١) تَسَامَـرَ يَتَسَامَرُ: تَحَدَّث بعضهم إلى بعض ليلاً .

(٢) انْقَرَضَ يَنْقَرِضُ القوم: ماتوا .

وَكَانَ أَبُوْهُ بِمَسْمَعٍ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : لاَ تَتَأَسَّفُوْا يَا أَوْلاَدِيْ ! فَإِنِّيْ أَعْرِفُ الْكِيْمِيَاءَ ، وَأَنْتُمْ أَعَزُّ النَّاسِ عِنْدِيْ ، فَأَنَا أُعَلِّمُكُمْ غَداً ، وَأُخْبِرُكُمْ بِصِنَاعَةِ الْكِيْمِيَاءِ .

فَرِحَ الأَوْلاَدُ كَثِيْراً ، وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْتَظِرُوْا إِلَىٰ الصَّبَاحِ ، فَاسْتَطَالُوا اللَّيْلَ ، وَلٰكِنَّ وَالِدَهُمْ قَالَ لَهُمْ : «لاَ يُمْكِنُ تَعْلِيْمُ الْكِيْمِيَاءِ إِلاَّ فِي النَّهَارِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ فَنٌّ دَقِيْقٌ .

نَامَ الأَوْلاَدُ ، وَانْتَبَهُوْا مُبَكِّرِيْنَ ، وَلَمْ يَزَلْ إِسْمَاعِيْلُ وَمَحْمُوْدٌ يَرَيَانِ الْكِيْمِيَاءَ فِي الْمَنَامِ ، رَأَىٰ هَاشِمٌ أَنَّهُ فِيْ قَصْرٍ شَامِخٍ[1] وَلِبَاسٍ فَاخِرٍ ، وَقَدْ بَنَىٰ الْقَصْرَ ، وَصَنَعَ اللِّبَاسَ بِالْمَالِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ بِالْكِيْمِيَاءِ .

فَصَلَّوُا الصُّبْحَ ، وَجَلَسُوْا حَوْلَ أَبِيْهِمْ يَنْتَظِرُوْنَ فَرَاغَهُ مِنْ تِلاَوَةِ الْقُرْآنِ ، وَأَتَمَّ أَبُوْهُمْ حِزْبَهُ ، وَقَالَ : هَلُمُّوْا[2] يَا أَبْنَائِيْ ! فَخَرَجُوْا مَعَهُ ، وَقَدْ أَعْجَلَهُمُ الاشْتِيَاقُ إِلَىٰ الْكِيْمِيَاءِ مِنْ أَنْ يَفْطِرُوْا .

لَمْ يَزَلْ أَبُوْهُمْ يَسِيْرُ بِهِمْ طَرِيْقاً بَعْدَ طَرِيْقٍ ، حَتَّىٰ وَقَفَ بِهِمْ

---

(١) شَامِخ : عالٍ .

(٢) هَلُمُّوا : تعالوا .

عَلَىٰ حَقْلٍ يَحْرُثُهُ الْفَلاَّحُ ، وَفِيْ يَدِهِ السِّكَّةُ ، فَقَالَ الْوَالِدُ: الْكِيْمِيَاءُ يَا أَوْلاَدِيْ! تَحْتَ سِكَّةِ الْمِحْرَاثِ.

فَتَعَجَّبَ الأَوْلاَدُ ، فَاسْتَفْسَرُوَا أَبَاهُمْ ، فَقَالَ الْوَالِدُ: أَلَمْ أَسْمَعْكُمْ تَقُوْلُوْنَ: الْكِيْمِيَاءُ يُحَوِّلُ التُّرَابَ ذَهَباً؟ أَلاَ يَتَحَوَّلُ هٰذَا التُّرَابُ ذَهَباً بَعْدَ أَيَّام بَلْ أَغْلَىٰ مِنَ الذَّهَبِ؟ وَمَا يُغْنِي الذَّهَبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ؟ فَهٰذِهِ الْبُذُوْرُ الَّتِي بَذَرَهَا الْفَلاَّحُ ، وَاجْتَهَدَ فِيْهَا أَيَّاماً سَتَأْتِيْ بِحَاصِلٍ كَبِيْرٍ ، وَسَيَرُدُّ اللهُ إِلَيْهِ بِهٰذَا الْعَمَلِ أَضْعَافَ[1] مَا بَذَلَ.

ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ أَبُوْهُمْ عَلَىٰ مَصْنَع كَانَ النَّاسُ فِيْهِ عَاكِفِيْنَ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ ، وَالْعَرَقُ يَسِيْلُ مِنْ جِبَاهِهِمْ ، وَصَنَعُوْا أَشْيَاءَ مُفِيْدَةً جِدّاً تُثْمِرُ لَهُمْ مَالاً كَثِيْراً ، وَتَقْضِيْ لِلنَّاسِ حَاجَاتٍ كَبِيْرَةً ، فَقَالَ الْوَالِدُ: الْكِيْمِيَاءُ يَا أَوْلاَدِيْ! عَرَقُ الْجَبِيْنِ ، وَكَدُّ الْيَمِيْنِ ، ثُمَّ مَالَ بِهِمْ إِلَىٰ حَلْقَةِ مُعَلِّمٍ ، وَإِلَىٰ مَجْلِسِ وَاعِظ ، وَقَالَ: يَا أَوْلاَدِيْ! الإِنْسَانُ أَغْلَىٰ شَيْءٍ فِي الوُجُوْدِ ، وَتَثْقِيْفُهُ وَإِصْلاَحُهُ أَفْضَلُ مِنْ تَحْوِيْلِ التُّرَاب ذَهَباً.

فَإِذَا تَعَلَّمَ هٰؤلاَءِ الأَوْلاَدُ ، وَإِذَا اهْتَدَىٰ هٰؤُلاَءِ النَّاسُ ، كَانَ لِلْمُعَلِّمِ وَالْوَاعِظِ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، لَهُ أَجْرُ كُلِّ مَا يَعْمَلُ هٰؤُلاَءِ مِنْ

---

(١) ضِعْف جمع أَضْعَاف الشيء: مثله أو ما زَادَ على ذلك.

خَيْرٍ وَبِرٍّ ، وَلِذٰلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِسَيِّدِنَا عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ:
«يَا عَلِيُّ! لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَعَمِ» .

فَاقْتَنَعَ الأَوْلاَدُ ، وَشَكَرُوْا أَبَاهُمْ ، وَرَجَعُوْا ، وَقَدْ تَعَلَّمُوا الْكِيْمِيَاءَ .

* * *

(٣٦)
يَـوْمٌ صَـائِـفٌ

مَا أَشَدَّ الْحَرَّ! يَا لَطِيْفُ! النَّاسُ فِيْ بُيُوْتِهِمْ لَا يَخْرُجُوْنَ خَوْفَ السَّمُوْمِ ، وَقَدِ اتَّخَذُوْا سُتُوْراً مِنَ الْحَشِيْشِ يَـرُشُّوْنَ عَلَيْهَا الْمَاءَ ، وَيُحَرِّكُوْنَ الْمَرَاوِحَ ، وَقَدْ سَدُّوا النَّوَافِذَ ، لِئَلَّا تَدْخُلَ مِنْهَا السَّمُوْمُ[١] ، وَمَعَ ذٰلِكَ يَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ مِثْلِ الْجَمْرِ ، هٰذَا ، وَأَهْلُ الأَكْوَاخِ الْحَقِيْـرَةِ وَالْخُصَصِ[٢] والْبُيُوْتِ الْمَبْنِيَّـةِ مِنَ اللَّبِنِ أَنْعَمُ فِي الصَّيْفِ مِنْ أَهْلِ الْقُصُوْرِ الْمَبْنِـيَّـةِ مِنَ الْجَصِّ[٣] وَالآجُرِّ ، فَإِذَا رَشُّوا[٤] الْمَاءَ عَلَىٰ الأَرْضِ وَالْجُدْرَانِ ، وَهَبَّتْ لَفْحَةٌ[٥] مِنْ سَمُوْمٍ تَحَوَّلَتْ نَفْحَةً مِنْ نَسِيْمٍ ، وَحَسِبُوْا أَنَّهُمْ فِيْ جَنَّةٍ وَنَعِيْمٍ .

---

(١) سَمُوم : حَـرٌّ شديد .
(٢) خُصّ : جمع خُصَصٌ وأَخصاص : بيت من شجر أو قصب .
(٣) جَصّ : مادة كلسية بيضاء تُطلىٰ بها البيوت .
(٤) رَش يَـرُشُّ على الأرض : نَضَحَها وبَلَّها .
(٥) نَفحَة جمع نَفَحَات : لَسْعَة النار .

اِرْتَفَعَتْ دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ إِلَىٰ مِئَـةٍ وَثَمَانِيَ عَشَرَةَ نُقْطَةً ، فَعِيْلَ صَبْـرُ النَّـاسِ ، وَسَـافَـرَ الأَغْنِيْـاءُ إِلَـىٰ قُلَـلِ[1] الْجِبَـالِ حَيْـثُ يَصْطَافُوْنَ[2] وَيَقْضُونَ شَهْرَيْ مَايُوْ وَيُوْنِيَهْ حَتَّىٰ إِذَا نَـزَلَتِ الأَمْطَارُ ، وَلَطُفَ الْحَرُّ هَبَطُوْا إِلَىٰ الْمُدُنِ وَالسُّهُوْلِ.

وَبَقِيَ أَوْسَاطُ النَّاسِ ، وَأَهْلُ الأَشْغَالِ يَتَحَمَّلُوْنَ الْحَرَّ ، وَيَصْبِرُوْنَ لِلسَّمُوْم.

الآنَ رَكَدَتِ[3] السَّمُوْمُ ، وَمَالَتِ الشَّمْسُ ، وَطَابَ الْخُرُوْجُ ، وَانْتَشَرَ النَّاسُ فِي الْبَسَاتِيْنِ وَالمَيَادِيْنِ وَشَوَاطِىءِ الأَنْهَارِ يَتَرَوَّحُوْنَ وَيَتَنَزَّهُوْنَ ، فَلاَ تَجِدُ فِي الْبَيْتِ إِلاَّ شَيْخاً هَرِماً أَوِ امْرَأَةً أَوْ عَاجِزاً ، وَمَنْ حَبَسَهُ شُغْلٌ أَوْ مَرَضٌ أَوْ حَاجَةٌ ، وَقَدْ تَسْتَمِرُّ السَّمُوْمُ إِلَىٰ اللَّيْلِ ، فَلاَ يَسْتَرِيْحُ النَّاسُ وَيَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ الْفِرَاشِ ، وَقَدْ يَحْتَبِسُ الْهَوَاءُ ، فَيَسِيْلُ الْعَرَقُ ، وَتَـتَحَرَّكُ الْمَرَاوِحُ ، وَيَطِيْرُ النَّوْمُ.

* * *

---

(١) قُـلَّـة جمع قُلَل: قمَّة.
(٢) اصْطَافَ يَصْطَافُ بالمكان: أَمْضَىٰ صَيْفَه فيه.
(٣) رَكَدَ يَرْكُدُ السمومُ: سَكَنَ وهَدأ وثَبُتَ.

(٣٧)

النَّظَافَةُ

طَاهِرٌ ابْنُ فَلَّاحٍ ، يَسْكُنُ أَبُوْهُ فِي الْقَرْيَةِ وَيُرْسِلُ إِلَىٰ طَاهِرٍ قَلِيْلاً مِنَ النُّقُوْدِ كُلَّ شَهْرٍ.

وَلٰكِنَّ طَاهِراً وَلَدٌ مُدَبِّرٌ عَاقِلٌ ، ثِيَابُهُ مُتَوَاضِعَةٌ ، وَلٰكِنَّهَا دَائِماً نَظِيْفَةٌ مُرَتَّبَةٌ لا تَرَىٰ فِيْهَا وَسَخاً ، يَغْسِلُهَا بِيدِهِ كُل جُمْعَةٍ ، وَعِنْدَهُ إِبْرَةٌ وَخَيْطٌ ، فَإِذَا تَخَرَّقَ[1] ثَوْبٌ خَاطَهُ بِالإِبْرَةِ أَوْ رَقَعَهُ بِنَفْسِهِ.

وَلَا يَخْجَلُ إِذَا خَرَجَ فِيْ ثَوْبٍ مَرْقُوْعٍ ، وَلٰكِنَّهُ يَخْجَلُ إِذَا خَرَجَ فِيْ ثَوْبٍ وَسِخٍ ، وَمَا رَآهُ أَصْدِقَاؤُهُ فِيْ ثِيَابٍ وَسِخَةٍ أَبَداً ، فَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُ غَنِيٌّ ، عِنْدَهُ ثِيَابٌ كَثِيْرَةٌ ، وَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَرْبَعَ بِذْلَاتٍ[2].

وَإِذَا دَخَلْتَ فِيْ حُجْرَتِهِ رَأَيْتَهَا نَظِيْفَةً مُنْتَظِمَةً ، وَرَأَيْتَ كُلَّ

---

(١) تَخَرَّقَ يَتَخَرَّقُ الثوبُ: اتَّسَعَ شَقُّه.

(٢) بِذْلَة جمع بِذْلَاتُ: مَا يُلْبَسُ في المهنة والعمل.

شَيْءٍ فِيْ مَحَلِّهِ ، فَلاَ يَضِيْعُ وَقْتُهُ فِيْ تَفَقُّدِ الأَشْيَاءِ وَالْتِمَاسِهَا ، وَإِذَا دَخَلَ فِي الظَّلاَمِ قَدَرَ عَلَىٰ أَنْ يَأْخُذَ مَا يُرِيْدُهُ لأَنَّهُ فِيْ مَحَلِّهِ .

وَكُتُبُهُ فِيْ نِظَامٍ دَائِمَاً ، وَهِيَ نَظِيْفَةٌ لاَ تَرَىٰ عَلَيْهَا غُبَاراً وَلاَ تُرَاباً ، وَلاَ تَرَىٰ فِيْهَا أَثَرَ دُهْنٍ وَمِسْحَةَ يَدٍ ، وَلاَ كِتَابَةً وَتَمْرِيْناً ، كَأَنَّهُ اشْتَرَاهَا الْيَوْمَ ، وَلاَ يَكْتُبُ اسْمَهُ إِلاَّ فِيْ مَكَانٍ وَاحِدٍ بِخَطٍ جَيِّدٍ .

وَإِذَا قَامَ طَاهِرٌ فِي الصَّبَاحِ تَوَضَّأَ لِصَلاَةِ الصُّبْحِ وَاسْتَاكَ[1] ، وَنَظَّفَ أَسْنَانَهُ .

وَيَغْتَسِلُ طَاهِرٌ كُلَّ يَوْمٍ فِي الصَّيْفِ ، وَأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِيْ أُسْبُوْعٍ فِي الشِّتَاءِ ، لِذٰلِكَ تَرَاهُ يَمْرَضُ قَلِيْلاً ، وَهُوَ قَوِيٌّ نَشِيْطٌ .

وَفِيْ فَصْلِ طَاهِرٍ وَلَدٌ غَنِيٌّ اسْمُهُ شَاهِدٌ ، وَهُوَ ضِدُّ طَاهِرٍ فِي النَّظَافَةِ وَالنِّظَامِ ، فَثِيَابُهُ غَالِيَةٌ جَمِيْلَةٌ وَلٰكِنَّهَا فِي الْغَالِبِ وَسِخَةٌ دَنِسَةٌ[2] ، وَهُوَ يُغَيِّرُ مَلاَبِسَهُ سَرِيْعاً ، وَلٰكِنَّهُ يُوَسِّخُهَا سَرِيْعاً .

وَكَذٰلِكَ كُتُبُهُ دَائِماً فَجِلْدُهَا مَشْقُوْقٌ ، وَوَرَقُهَا مَخْرُوْقٌ ، كَأَنَّ طِفْلاً عَبَثَ بِهَا أَوْ مَشَتْ عَلَيْهَا سِكَّةُ الْفَلاَّحِ أَوْ دَاسَتْهَا مَرْكَبَةٌ .

وَكُتُبُهُ وَدَفَاتِرُهُ مَعْرِضٌ ، أَوْ مُتْحَفٌ ، تَرَىٰ فِيْهَا رُسُوْماً

---

(١) اسْتَاكَ يَسْتَاكُ : نَظَّفَ الأَسنانَ بالسِّواك .

(٢) دَنِس : وَسِخٌ .

وَصُورَاً ، وَتَوْقِيْعَاتٍ وَتَمْرِيْنَاتٍ ، وَأَشْكَالاً رِيَاضِيَّةً وَخَرَائِطَ جُغْرَافِيَّةً .

وَإِذَا قُلْتَ لِشَاهِدٍ : لِمَاذَا لَا تُحَافِظُ عَلَىٰ النَّظَافَةِ وَالنِّظَامِ؟ قَالَ : إِنَّهُ يَضِيْعُ فِيْ ذٰلِكَ وَقْتٌ كَثِيْرٌ ، وَالْوَقْتُ شَيْءٌ غَالٍ .

وَتَرَاهُ يُضَيِّعُ وَقْتَاً طَوِيْلاً فِيْ تَفَقُّدِ الأَشْيَاءِ وَتَغْيِيْرِ الْمَلَابِسِ بِسُرْعَةٍ ، وَلَا يَفْطَنُ[1] لِذٰلِكَ .

* * *

(١) فَطِنَ يَفْطَنُ له أو إليه : تَنَبَّه له .

(٣٨)

الْحَنِيْنُ إِلَىٰ الشَّهَادَةِ

(١)

لَمَّا أَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ الْخُرُوجَ إِلَىٰ بَدْرٍ لِيُقَاتِلَ الْمُشْرِكِيْنَ وَخَرَجَ غُلَامٌ اسْمُهُ عُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عُمْرُهُ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً.

وَكَانَ عُمَيْرٌ يَخَافُ أَلَّا يَقْبَلُهُ النَّبِيُّ ﷺ، لأَنَّهُ صَغِيْرٌ، فَكَانَ يَجْتَهِدُ أَلَّا يَرَاهُ أَحَدٌ، وَكَانَ يَتَوَارَىٰ[1].

وَلٰكِنْ رَآهُ أَخُوْهُ الأَكْبَرُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فَقَالَ لَهُ: مَالَكَ يَا أَخِيْ؟ لأَيِّ شَيْءٍ تَتَوَارَىٰ؟

قَالَ عُمَيْرٌ: أَخَافُ أَنْ يَرُدَّنِيْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَإِنِّي صَغِيْرٌ، وَأَنَا أُحِبُّ الْخُرُوْجَ، لَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُنِي الشَّهَادَةَ.

---

(١) تَوَارى يَتَوَارى: اسْتَتَر واخْتَفَىٰ.

وَكَانَ كَمَا خَافَ عُمَيْرٌ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَأَىٰ أَنَّهُ صَغِيْـرٌ ، وَالْحَـرْبُ لَيْسَـتْ مِـنْ شُغْـلِ الأَطْفَـالِ وَالْغِلْمَـانِ ، وَمَا يَصْنَعُوْنَ فِي الْحَرْبِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيْرَةٌ عَلَىٰ الرِّجَالِ؟

وَلٰكِنَّ عُمَيْراً مَا أَحَبَّ أَنْ يَنْصَرِفَ ، وَيَقْعُدَ فِي الْبَيْتِ ، أَوْ يَلْعَبَ مَعَ أَتْرَابِهِ ، وَأَصْدِقَائِهِ فِي الْمَدِيْنَةِ ، وَإِنَّهُ لَيُرِيْدُ الشَّهَادَةَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ!

وَلٰكِنَّ عُمَيْراً لَا يَعْصِيْ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ ، وَلَا يُعَانِدُ[1] ، فَإِنَّهُ لَا يُـرِيْـدُ إِلَّا رِضَـاءَ اللهِ ، وَهَـلْ يَنَـالُ رِضَـاءَ اللهِ إِذَا عَصَـىٰ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ؟ أَبَداً!

كَانَ عُمَيْرٌ فِيْ حَيْرَةٍ وَحُزْنٍ شَدِيْدٍ ، هُوَ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الْقِتَالِ ، وَلٰكِنَّهُ يَحِنُّ[2] إِلَىٰ الشَّهَادَةِ ، وَإِلَىٰ الْمَوْتِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَيَحِنُّ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ، وَيَـرَاهَا غَيْرَ بَعِيْدَةٍ ، وَلٰكِنْ كَيْفَ يَصِلُ إِلَيْهَا ، وَهُوَ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الْقِتَالِ؟!

كُلُّ ذٰلِكَ ثَقُلَ[3] عَلَىٰ عُمَيْرٍ ، وَكَانَ قَلْبُهُ صَغِيْراً فَبَكَىٰ ، وَلَمَا

---

(١) عَانَـدَ يُـعَانِدُ: خَالَفَ وَعَارَضَ.
(٢) حَنَّ يَحِنُّ إليه: اشْتَاقَ ، وعليه: عَطَفَ.
(٣) ثَـقُلَ يَـثْـقُلُ عليه: صعب عليه.

بَكَىٰ عُمَيْرٌ رَقَّ[1] لَهُ قَلْبُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَقِيْقاً رَفِيْقاً فَأَجَازَهُ.

لاَ تَسْأَلُوْا عَنْ فَرَحِ عُمَيرٍ وَسُرُوْرِهِ لَمَّا أَجَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَكَأَنَّمَا نَالَ تَذْكِرَةَ الْجَنَّةِ.

وَخَرَجَ عُمَيْرٌ مَعَ أَخِيْهِ وَمَعَ الْمُسْلِمِيْنَ، وَكُلُّهُمْ كِبَارٌ وَأَقْوِيَاءُ، وَكَانَ كَمَا أَرَادَ، فَقَدْ قُتِلَ شَهِيْداً فِي الْغَزْوَةِ، وَسَبَقَ كَثِيْراً مِنَ الشُّبَّانِ وَالشُّيُوْخِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ عُمَيْرٍ وَأَرْضَاهُ.

* * *

---

(١) رَقَّ يَرِقُّ له: رَحِمَهُ.

(٣٩)

الْحَنِيْنُ إِلَىٰ الشَّهَادَةِ

(٢)

وَلَمَّا خَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِلىٰ أُحُدٍ لِقِتَالِ قُرَيْشٍ خَرَجَ مَعَهُ مِنَ الْمَدِيْنَةِ غِلْمَانٌ يُحِبُّوْنَ الْجِهَادَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَكَانُوا صِغَاراً ، لَمْ يَتَجَاوَزُوا الْخَامِسَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِمْ ، فَرَدَّهُمْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، لأَنَّهُمْ صِغَارٌ لَمْ يَبْلُغُوْا سِنَّ الْقِتَالِ ، فَيَكُوْنُوْنَ كَالْمَتَاعِ ، وَيَشْغُلُوْنَ الْكِبَارَ أَيْضاً يُرَاقِبُوْنَهُمْ[1] وَيَحْرِسُوْنَهُمْ .

وَكَانَ فِيْ هَؤُلَاءِ الْغِلْمَانِ وَلَدٌ ، اسْمُهُ رَافِعُ بنُ خَدِيْجٍ ، وَهُوَ دُوْنَ الْخَامِسَةَ عَشَرَةَ مِنْ سِنِّهِ ، وَكَانَ يَتَطَاوَلُ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ ، لِيَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُ كَبِيْرٌ ، قَدْ بَلَغَ سِنَّ الْقِتَالِ ، فَلَا يُفْطَنُ لِصِغَرِ سِنِّهِ وَضَعْفِهِ .

---

(١) رَاقَبَ يُرَاقِبُ : حَرَسَ وَلَاحَظَ .

وَلٰكِنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ رَدَّهُ ، لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ صَغِيْرٌ ، وَأَنَّهُ يتطَاوَلُ ، فشَفَعَ[1] لَهُ أَبُوْهُ ، وَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! إِنَّ ابْنِي رَافِعاً رَامٍ ، فَأَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ .

فَفَرِحَ رَافِعٌ كَثِيْراً لَمَّا أَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، وَخَرَجَ مَعَ الْمُجَاهِدِيْنَ ، وَهُوَ أَكْثَرُ سُرُوْرَاً مِنْ غِلْمَانٍ يَخْرُجُوْنَ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ يَوْمَ الْعِيْدِ فِيْ لِبَاسٍ جَدِيْدٍ .

وَكَانَ وَلَدٌ آخَرُ اسْمُهُ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ فِيْ سِنِّ رَافِعٍ ، فَعُرِضَ عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بَعْدَ رَافِعٍ فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لِصغرِهِ أَيْضاً ، فَقَالَ سَمُرَةُ: لَقَدْ أَجَزْتَ رَافِعاً وَرَدَدْتَنِيْ ، وَلَوْ صَارَعْتُهُ[2] لَصَرَعْتُهُ .

فَأَمَرَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَمُرَةَ وَرَافِعاً بِالْمُصَارَعَةِ فَصَرَعَ سَمُرَةُ رَافِعاً كَمَا قَالَ ، وَاسْتَحَقَّ أَنْ يُسْمَحَ لَهُ بِالدُّخُوْلِ فِي صَفِّ الْمُجَاهِدِيْنَ .

فَأَجَازَ رَسُوْلُ اللهِ سَمُرَةَ لِلْخُرُوجِ ، فَخَرَجَ سَمُرَةَ وَقَاتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ .

رَضِيَ اللهُ عَنْ رَافِعٍ وَسَمُرَةَ ، وَرَزَقَنَا اتِّبَاعَهُمَا .

* * *

---

(١) شفَعَ يَشْفَعُ له إلى فلان: سَأَلَ فلاناً التجاوز عن ذنبه.

(٢) صَارَعَ يُصَارِعُ: غَالَبَ في المصارعة.

(٤٠)

كُـنْ أَحَـدَ الـسَّبْعَـةِ

(١)

كَانَ الْيَوْمُ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ يُوْنِيُوْ يَوْمَاً شَدِيْدَ الْحَرِّ ، وَكَانَ يَوْمَ عُطْلَةٍ ، فَكَانَ مَحْمُوْدٌ وَأَحْمَدُ وَعُثْمَانُ فِي الْبَيْتِ ، وَكَانُوْا مَعَ أَبِيْهِمْ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي النَّهَارِ ، وَكَانُوْا يَتَأَفَّفُوْنَ[١] مِنَ الْحَرِّ ، وَيَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ الْفِرَاشِ كَأَنَّهُمْ عَلَىٰ الْجَمْرِ.

قَالَ مَحْمُوْدٌ: يَا لَطِيْفُ! مَا أَشَدَّ الْحَرَّ! .

قَالَ أَبُوْهُمْ سُلَيْمَانُ: أَتَعْرِفُ يَا مَحْمُوْدُ! كَمْ تَبْعُدُ الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ؟ .

مَحْمُوْدٌ: لاَ يَا أَبِيْ ! وَلٰكِنِّيْ أَعْرِفُ أَنَّـها بَعِيْدَةٌ جِدّاً.

---

(١) تَـأَفَّـفَ يَـتَأَفَّـفُ مِن الحرّ: تَضَجَّرَ منه.

سُلَيْمَانُ: سَتَقْرَأُ فِي الْمَدْرَسَةِ أَنَّ الشَّمْسَ تَبْعُدُ مِنَ الأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِيْنَ مَلْيُوْناً مِنَ الأَمْيَالِ، وَالْحَرُّ كَمَا تَرَىٰ، فَكَيْفَ إِذَا دَنَتِ الشَّمْسُ حَتَّىٰ تَكُوْنَ مِقْدَارَ مِيْلٍ؟!

مَحْمُوْدٌ: الْعِيَاذُ بِاللهِ! وَمَتَىٰ هٰذَا يَا أَبِيْ؟

سُلَيْمَانُ: ذٰلِكَ يَا بُنَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ يَقُوْمُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ.

أَحْمَدُ: وَكَيْفَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا أَبَتِ؟.

سُلَيْمَانُ: يَكُوْنُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ حَقْوَيْهِ[1]، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ[2] الْعَرَقُ إِلْجَاماً.

عُثْمَانُ: أَوَلَيْسَ هُنَالِكَ ظِلٌّ أَوْ مَكَانٌ يَسْتَظِلُّ بِهِ النَّاسُ؟

سُلَيْمَانُ: بَلَىٰ يَا وَلَدِيْ! فَهُنَالِكَ ظِلٌّ لاَ يَنْعَمُ بِهِ إِلاَّ سَبْعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ.

الأَوْلاَدُ: وَمَنْ أُوْلٰئِكَ السُّعَدَاءُ يَا أَبَانَا؟ لَعَلَّنَا نَجْتَهِدُ أَنْ نَكُوْنَ مِنْهُمْ.

---

(١) حَقْوَ جمع أحْقَاء: خَصْر ووَسْط.

(٢) أَلْجَمَ يُلْجِمُ العرق: بَلَغَ فاه.

سُلَيْمَانُ: يَا أَوْلَادِيْ! يَنْبَغِيْ[1] لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَجْتَهِدَ أَنْ يَكُوْنَ أَحَدَ السَّبْعَةِ، وَأَنَا أَعُدُّ لَكُمْ أُوْلٰئِكَ السَّبْعَةَ:

(١) إِمَامٌ عَادِلٌ.

وَقَطَعَ عَلَيْهِ أَحَدُ الأَوْلَادِ، وَقَالَ: وَمَنْ هُوَ الإِمَامُ، أَهٰذَا الَّذِي يُصَلِّيْ بِالنَّاسِ؟

سُلَيْمَانُ: هُوَ أَيْضاً عَلىٰ خَيْرٍ، لٰكِنَّ الْمُرَادُ هُنَا أَمِيْرُ الْمُسْلِمِيْنَ.

وَابْتَدرَ[2] الأَوْلَادُ، وَقَالُوْا: قَدْ فَهِمْنَا، هٰذَا كَالخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ، وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ، وَقَدْ سَمِعْنَا كَثِيْراً مِنْ حِكَايَاتِهِمْ مِنْ أُمِّنَا.

* * *

---

(١) يَنْبَغِي له: يَلْزم أو يَجِبُ عليه.

(٢) ابْتَدَرَ يَبْتَدِرُ: عَاجَلَ.

(٤١)

كُـنْ أَحَـدَ الـسَبْـعَــــةِ

(٢)

(٢) قَالَ سُلَيْمَانُ: وَالثَّانِيْ يَا أَوْلَادِيْ! شَابٌّ نَشَأَ فِيْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

هُنَـالِـكَ وَقَـفَ الشَّيْـخُ ، وَقَـالَ: يُمْكِـنُ كُـلَّ وَاحِـدٍ مِنْكُـمْ يَا أَوْلَادِيْ! أَنْ يَكُوْنَ ذٰلِكَ الشَّابَّ السَّعِيْدَ ، وَلٰكِنْ إِذَا ضَيَّعْتُمْ فُرْصَةَ الشَّبَابِ ، فَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَـةُ.

(٣) رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ.

قَالَ الأَوْلَادُ: هُوَ كَالشَّيْخِ عَبْدِ الْغَنِيِّ فِيْ حَيِّنَا ، فَإِنَّهُ لَا يَرْتَاحُ إِلَّا إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَلَا تَفُوْتُهُ جَمَاعَةٌ ، وَلَا نَظُنُّهُ يَبِيْتُ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: لَا يَا أَوْلَادِيْ! وَلٰكِنَّهُ مُحَافِظٌ عَلَى الصَّلَاةِ

وَالْجَمَاعَةِ ، وَقَدْ أَخْبَرَنِيْ أَنَّهُ مَا فَاتَتْهُ صَلاَةٌ فِيْ جَمَاعَةٍ مُنْذُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ أَوْ أَكْثَرَ .

(٤) رَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ .

وَإِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَرَوْهُمَا ، فَانْظُرُوا إِلَىٰ الشَّيْخِ صَالِحِ وَالشَّيْخِ حَمْزَةَ ، فَهٰذَا مِنَ الْهِنْدِ ، وَذٰلِكَ مِنْ بُخَارى ، وَهُمَا أَخَوَانِ فِي اللهِ .

وَيُمْكِنُ كُلّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ هٰذِهِ الْفَضِيْلَةَ ، وَذٰلِكَ بِأَنْ يَخْتَارَ مِنْ صَفِّهِ وَرُفْقَتِهِ[1] الصَّالِحَ مِنَ الأَوْلاَدِ فَيُصَادِقهُ ، وَيَجْتَهِدُ أَنْ تَكُوْنَ صَدَاقَتُهُ لِلدِّيْنِ .

(٥) وَرَجُلٌ اقْتَدىٰ بِيُوْسُفَ (عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ) فِي العِفَّةِ[2] وَالأَمَانَةِ ، وَقَدْ سَمِعْتُمْ قِصَّتَهُ .

قَالَ الأَوْلاَدُ: نَعَمْ!

(٦) وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ .

وَذٰلِكَ مِثْلُ جَدِّكُمْ ، فَإِنَّا لَمْ نَعْرِفْ بِرَّهُ وَإِحْسَانَهُ إِلَىٰ لْمَسَاكِيْنِ وَالضَّعفَةِ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ إِلاَّ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَقَدْ جَاءَتِ

---

١) رُفْقَة جمع رِفَاق: جماعَة مترافقون.

٢) عِفَّة: ترك الشهوات والتَّجنب منها بكل شيء.

الْعَجَائِزُ وَالأَرَامِلُ[1] يَبْكِيْنَهُ ، وَيَذْكُرْنَ خَيْرَهُ وَبِرَّهُ ، وَقَدْ أَخْبَرَنِيْ أَشْرَافٌ مِنْ أَهْلِ هذَا الْحَيِّ أَنَّهُ كَانَ يُوَاسِيْهِمْ ، وَيَصِلُهُمْ بِمَعْرُوْفٍ[2] كُلَّ شَهْرٍ ، وَلَمْ نَعْلَمْ ذَلِكَ أَهْلَ الْبَيْتِ.

(٧) وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.

قَالَ الأَوْلاَدُ: أَمَّا نَحْنُ فَنَجْتَهِدُ جَمِيْعاً أَنْ نَكُوْنَ شُبَّاناً نَشَؤُوْا فِيْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَنَجْتَهِدُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْفَضَائِلِ أَيْضاً ، وَلَعَلَّنَا يَا أَبَانَا إِذَا جَمَعْنَا مِنْهَا خِصَالاً نَنَالُ بِهَا مَكَاناً خَاصّاً فِيْ ذٰلِكَ الظِّلِّ أَيْضاً ، فَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَأْتِيْ بِفَضِيْلَةٍ ، وَبَيْنَ مَنْ يَأْتِي بِفَضَائِلَ.

سُلَيْمَانُ: هُوَ كَذٰلِكَ «إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيْعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِيْنَ ، وَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً».

❊ ❊ ❊

---

(١) أَرْمَلَة جـ أَرَامِل: الَّتِي مات زوجها.

(٢) وَصَلَ يَصِلُ: بَرَّ وَأَحْسَنَ المعاملةَ.

(٤٢)

الْـعَـيْــنُ

(١)

الْعَيْنُ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَقَدْ خَلَقَهَا اللهُ تَعَالَىٰ مِرْآةً صَافِيَةً تَتَحَرَّكُ يَمِيْناً وَشِمَالاً ، وَفَوْقُ وَتَحْتُ ، يَنْظُرُ بِهَا الإِنْسَانُ إِلَىٰ جَمِيْعِ الْجِهَاتِ[١] ، ثُمَّ وَضَعَهَا فِيْ مِحْجَرٍ صُلْبٍ مِنَ الْعَظْمِ ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا مِنَ الْجُفُوْنِ[٢] غِطَاءً يَحْفَظُهَا مِنَ الأَذَىٰ ، وَحَاطَهَا بِأَهْدَابٍ[٣] مِنَ الشَّعْرِ لِتَكُوْنَ سِيَاجاً[٤] يذُبُّ عَنْهَا الذُّبَابَ

(١) جِهَة جِهَات : ناحية.
(٢) جَفْن : جمع جُفُون وأَجْفَان : غطاء العين من أعلاها وأسفلها.
(٣) هُدْبٌ جمع أَهْدَاب : شعر أشْفَار الْعَيْن.
(٤) سِيَاجُ جمع سِيَاجَات : سورٌ من أسلاك أو حجارة أو غيرها يُحِيْط بمَنْزِلٍ أو غيره.

الْبَعُوْضَ وَالْغُبَارَ الَّتِي تَدْخُلُ الْعَيْنَ ، فَتُسَبِّبُ لَهَا الأَلَمَ وَالْمَرَضَ
سَلَّطَ عَلَيْهَا مَاءً جَارِياً يَغْسِلُ مَا يَدْخُلُ فِيْهَا مِنَ الأَوْسَاخِ .

وَالْعَيْنُ عُرْضَةٌ لِكَثِيْرٍ مِنَ الأَمْرَاضِ ، كَالرَّمَدِ وَقِصَرِ النَّظَرِ ،
قَدْ عَمَّ هٰذَا الْمَرَضُ الأَخِيْرُ فِي هٰذَا الزَّمَانِ ، فَلَجَأَ النَّاسُ حَتَّىٰ
الأَطْفَالُ إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ مِنْظَرَةٍ ، وَلِلاجْتِنَابِ عَنْ هٰذِهِ الأَمْرَاضِ
حُسْنُ الاِعْتِزَالُ عَنِ الْغُبَارِ وَالأَتْرِبَةِ ، وَيَحْسُنُ التَّجَوُّلُ فِي
الأَمَاكِنِ الْفَسِيْحَةِ ، وَكَثْرَةُ غَسْلِ الْوَجْهِ بِالْمَاءِ الصَّافِيْ ، فَإِنَّهُ
جْلُوْ الْعَيْنَ ، وَيُنَقِّيْهَا مِنَ الأَوْسَاخِ وَالْقَذَىٰ[1] ، وَلِذٰلِكَ كَانَ
وُضُوْءُ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ـ خُصُوصاً فِي الصَّبَاحِ عِنْدَ الْقِيَامِ ـ
افِعاً جِدّاً .

وَمُوَاصَلَةُ الْقِرَاءَةِ لَيْلاً فِي النُّوْرِ الضَّعِيْفِ تُـؤَثِّـرُ فِي النَّظَرِ
أْثِيْراً كَبِيْراً ، وَتَضُرُّ بِهِ ضَرَراً عَظِيْماً ، فَعَلىٰ مَنْ أَلْجَأَتْهُ الضَّرُوْرَةُ
ىٰ ذٰلِكَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ مِنَ الْمَصَابِيْحِ مَا كَانَ ذَا نُوْرٍ رَائِقٍ[2] مُعْتَدِلٍ
يْرِ سَاطِعٍ وَلاَ ضَعِيْفٍ .

وَالْعَيْنُ جَوْهَرَةٌ غَالِيَةٌ لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُشْتَرَىٰ بِالْمَالِ ، وَبِهَا يَتَمَتَّعُ

---

(1) قَذىً ج أَقْذَاءٌ وقُذِيٌّ : ما يتكون في العين من وسخ أبيض ، وما يتجمع فيها من تبنة وغيرها .
(2) رائق : طيب .

الإِنْسَانُ بِجَمَالِ الطَّبِيْعَةِ ، وَيَقْضِيْ بِهَا حَاجَاتٍ فِيْ نَفْسِهِ ، وَيَكُوْنُ عُضْواً عَامِلاً مُفِيْداً مِنْ أَعْضَاءِ الأُسْرَةِ الإِنْسَانِيَّةِ ، وَإِذَا فَقَدَ الإِنْسَانُ بَصَرَهُ حُرِمَ شَيْئاً كَثِيْراً مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا ، فَكَأَنَّمَا أَظْلَمَ لَهُ الْعَالَمُ ، وَكَانَ كَلاًّ عَلَىٰ غَيْرِهِ ، وَرُبَّمَا كَانَ عِيَالاً عَلَىٰ عَصاً حَقِيْرَةٍ لا يَمْشِيْ بِغَيْرِهَا .

❊ ❊ ❊

(٤٣)

الـعـيــن

(٢)

وَلِذٰلِكَ كَانَتِ الْعَيْنُ ثَمِيْنَةً غَالِيَةً وَنِعْمَةً جَلِيْلَةً ، حَتّٰى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيْ بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُما الجَنَّـةَ ، يُرِيْـدُ عَيْنَـيْهِ .

وَلاَ يَـلْـزَمُ أَنْ يَكُوْنَ الإِنْسَانُ إِذَا فَقَدَ بَصَرَهُ عَاطِلاً ضَائِعاً ، فَلَقَدْ فَاقَ كَثِيْرٌ مِنَ الْعُمْيَانِ كَثِيْراً مِنْ أَهْلِ الْبَصَرِ فِي الْعِلْمِ ، وَأَقَرَّتْ لَهُمُ الدُّنْيَا بِالفَضْلِ ، كَالْمُفَسِّرِ قَتَادَةَ ، وَالْمُحَدِّثِ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ ، وَالْفَقِيْهِ زُبَيْرِ الْبَصْرِيِّ؛ وَالنَّحْوِيِّ أَبِي جَعْفَرٍ ، وَالأَدِيْبِ أَبِي الْعَلاَءِ الْمَعَرِّيْ ، وَالشَّاعِرِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ ، وَإِمَامِ التَّجْوِيْدِ الإِمَامِ الشَّاطِبِيِّ .

وَمِنْ حَقِّ هٰذِهِ النِّعْمَةِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ وَأَنْ يَضِنَّ[١] بِهَا عَنْ مَحَارِمِ اللهِ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ، وَمَا تُخْفِي الصُّدُوْرُ» .

وَمِنْ حَقِّهَا أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا فِيْ طَاعَةِ اللهِ ، وَأَنْ يُرِيْقَ دَمْعَهَا فِيْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ : «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَـرَيْنِ : قَطْرَةِ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَأَمَّا الأَثَـرَانِ : فَـأَثَـرٌ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَأَثَـرٌ فِيْ فَرِيْضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ» .

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُوْلُ فِيْ دُعَائِهِ : اللهُمَّ إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَمِنْ عَيْنٍ لَا تَدْمَعُ[٢] ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا .

* * *

---

(١) ضَنَّ يَضِنُّ ضَنّاً : بالشيء عليه : بَخِلَ بُخْلاً شديداً .
(٢) دَمَعَ يَدْمَعُ دَمْعاً : دَمَعَتِ العَيْنُ : سَال ماؤُها .

(٤٤)

أَدَبُ الْمُعَاشَرَة

أُسْلُكْ مَعَ النَّاسِ الأَدَبْ ... تَرَ مِنَ الدَّهْرِ الْعَجَبْ
وَلَا تُطَاوِلْ بِنَشَبْ[١] ... وَلَا تُفَاخِرْ بِنَسَبْ
الْعِزُّ فِي الأَمَانَةْ ... وَالْكَيْسُ فِي الْفَطَانَةْ[٢]
لَا تُغْضِبِ الْجَلِيْسَا ... لَا تُوْحِشِ الأَنِيْسَا
لَا تُكْثِرِ الْعِتَابَا ... تنفِّرِ الأَصْحَابَا
فَكَثْرَةُ الْمُعَاتَبَةْ[٣] ... تَدْعُوْ إِلَى الْمُجَانَبَةْ[٤]
وَإِنْ حَلَلْتَ مَجْلِسًا ... بَيْنَ سَرَاةٍ[٥] رُؤَسَا

---

(١) نَشَب: مالٌ أَصيل مِن نقود وماشية.
(٢) فَطَانَة: قوّة استعداد الذهن لإدراك ما يراد إليه.
(٣) المعاتبة: الملاءمة برفق.
(٤) المُجَانَبة: الإبعاد عن الشيء.
(٥) سَرِيّ ج أسرياء وسَرَاة: شريف، كريم الحسب.

فَاقْصِدْ رِضَا الْجَمَاعَة	وَكُنْ غُلَامَ الطَّاعَة
وَقُلْ مِنَ الْكَلَام	مَا رَاقَ[1] بِالْمَقَام
كَرَائِقِ الأَشْعَار	وَطَيِّبِ الأَخْبَار
وَاتْرُكْ كَلَامَ السَّفَلَة[2]	وَالنُّكَتَ[3] الْمُبْتَذَلَة
وَلَا تَكُنْ مِلْحَاحا	وَاجْتَنِبِ الْمِزَاحَا
فَكَثْرَةُ الْمُجُوْنِ	نَوْعٌ مِنَ الْجُنُونِ

* * *

(١) رَاقَ يَرُوْق رَوْقاً بالشيء: أعجبه.

(٢) سَافِل ج سَفَلَة: سَيِّء الخلق، والسَّفَلَة تقال لأراذل الناس أيضاً.

(٣) نُكْتَة ج نُكَت ونِكَاتٌ: جملة لطيفة تؤثِّر في النفس انبساطاً.

(٤٥)

عِـيْـدُ الأَضْـحَـىٰ

كَانَ الْيَوْمُ الأَخِيْرُ مِنْ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَكَانَ الْيَوْمُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُوْنَ مِنَ الشَّهْرِ ، رَأَىٰ وَالِدِي الْهِلاَلَ ، وَكَانَ دَقِيْقاً جِدّاً ، وَمَا رَأَيْتُهُ إِلاَّ بِاجْتِهَادٍ وَبَحْثٍ ، وَرَأَيْتُ وَالِدِيْ يَقُوْلُ وَيَدْعُوْ ، قُلْتُ لَهُ: مَاذَا تَقُوْلُ فِيْ دُعَائِكَ يَا أَبِيْ؟ قَالَ وَالِدِيْ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَىٰ الْهِلاَلَ قَالَ :

«اللهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ وَالإِيْمَانِ وَالسَّلاَمَةِ وَالإِسْلاَمِ ، رَبِّيْ وَرَبُّكَ اللهُ ، هِلاَلَ رُشْدٍ وَخَيْرٍ» .

فَتَعَلَّمْتُهُ مِنْ وَالِدِيْ وَحَفِظْتُهُ .

وَظَنَنْتُ أَنَّ الْعِيْدَ غَداً ، فَأَخْبَرَنِيْ أَبِيْ أَنَّ الْعِيْدَ بَعْدَ تِسْعَةِ أَيَّامٍ ، فَإِنَّ عِيْدَ الأَضْحَىٰ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ .

وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ مِنَ الشَّهْرِ عُطِّلَتِ الْمَدْرَسَةُ ، وَأَخْبَرَنِيَ

الْمُعَلِّمُ أَنَّ الْحُجَّاجَ يَذْهَبُوْنَ الْيَوْمَ إِلَىٰ مِنَىٰ[1] حَيْثُ يَبِيْتُوْنَ ، وَهٰذَا الْيَوْمُ يُسَمَّىٰ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ[2] .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ ، وَهُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ ، يَذْهَبُ الْحُجَّاجُ إِلَىٰ عَرَفَاتٍ ، وَيَظَلُّوْنَ هُنَالِكَ يَدْعُوْنَ وَيَذْكُرُوْنَ اللهَ ، وَيَذْهَبُوْنَ مِنْهَا إِلَىٰ الْمُزْدَلِفَةِ[3] وَيَبِيْتُوْنَ هُنَالِكَ ، وَفِيْ صَبَاحِ الْيَوْمِ الْعَاشِرِ يَرْجِعُوْنَ إِلىٰ مِنَىٰ وَيَنْحَرُوْنَ[4] ، وَذٰلِكَ يَوْمُ النَّحْرِ[5] وَهُوَ يَوْمُ الْعِيْدِ .

وَكَانَ أَبِي اشْتَرَىٰ بَقَرَةً سَمِيْنَةً لِلذَّبْحِ ، قَالَ : فِيْهَا سَبْعَةُ سِهَامٍ : اثْنَانِ لِيْ وَلأُمِّكَ ، وَوَاحِدٌ لَكَ ، وَأَرْبَعَةٌ لأَخَوَيْكَ وَأُخْتَيْكَ .

وَكَانَ أَبِيْ يَعْلِفُهَا[6] وَيَسْقِيْهَا بِنَفْسِهِ ، وَقَالَ : فِيْ ذٰلِكَ فَضِيْلَةٌ وَأَجْرٌ .

وَالْيَوْمَ الْعَاشِرِ غَيَّرْنَا اللِّبَاسَ ، وَكَانَ أَبِيْ قَدْ أَعَدَّ لِيْ لِبَاساً

---

(١) مِنًى : بلدة قرب مكة ينزلها الحجاج أيام التشريق .
(٢) يوم التَّرْوِيَة : أي الثامنُ من ذي الحجة .
(٣) المُزْدَلِفَة : موضع بين عرفات ومِنىً .
(٤) نَحرَ يَنْحَرُ نَحراً : ذَبَحَ .
(٥) النَّحْرُ : عَاشِر ذي الحجة .
(٦) عَلَفَ يَعْلِفُ عَلْفاً الحَيْوَانَ : أَطْعَمَهُ .

جِدِيْداً ، أَمَّا الْحِـذَاءُ ، فَكَانَ حِـذَاءَ الْعِيْدِ ، وَكَانَ نَظِيْفـاً لَـمْ يَتَوَسَّخْ ، كَأَنَّهُ جَدِيْدٌ ، لأَنِّيْ مَا كُنْتُ أَلْبَسُهُ إِلاَّ قَلِيْلاً ، وَتَطَيَّبَ أَبِيْ وَغَيَّرَ اللِّبَاسَ ، وَخَرَجْنَا مَعَ الْجَمَاعَةِ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ ، فَكَبَّرَ[1] وَهَلَّلَ[2] جَهْراً[3] ، وَصَلَّىٰ الإِمَامُ بِالنَّاسِ وَخَطَبَ ، وَذَكَرَ أَحْكَامَ الأُضْحِيَّةِ ، وَرَجَعْنَا مِنَ الْمُصَلَّىٰ بِطَرِيْقٍ آخَرَ ، وَذَبَحَ أَبِي الْبَقَرَةَ ، وَسَمَّىٰ اللهَ وَكَبَّرَ .

وَوَزَّعَتْ أمِّي اللَّحْمَ عَلَىٰ الْمَسَاكِيْنِ وَالأَقَارِبِ وَالأَصْدِقَاءِ ، وَطَبَخَتْ لَنَا أَيْضاً ، فَمَا تَغَدَّيْنَا إِلاَّ بِلَحْمِ أُضْحِيَّتِنَا[4] .

وَتَوَفَّرَ كَثِيْرٌ مِنَ اللَّحْمِ ، فَاحْتَفَظَتْ بِهِ أُمِّيْ وَأَيْبَسَتْهُ ، وَلَمْ نَـزَلْ نَأْكُلُ مِنْ هَذَا الْقَدِيْدِ[5] مُدَّةً طَوِيْلَةً .

وَكَانَتْ فِيْ أَيَّامِ الْعِيْدِ الثَّلاَثَةِ مَآدِبُ[6] كَثِيْرَةٌ ، وَكَانَتْ أَيَّامَ أَكْلٍ وَشُرْبٍ ، وَقَدْ دَعَا أَبِيْ لَيْلَةَ يَوْمِ الْعِيْدِ جَمَاعَةً مِنْ أَصْدِقَائِهِ وَجِيْرَانِهِ ، وَصَنَعَتْ أُمِّيْ طَعَاماً مُلَوَّناً ، فَأَكْثَرَتْ وَأَطَابَتْ .

---

(١) كَبَّـرَ يُـكَبِّرُ تَـكْبِيْراً : قال : اللهُ أكبر .
(٢) هَلَّلَ يُهَلِّلُ تَهْلِيلاً : قال : لا إله إلا الله .
(٣) جَهْراً : إعلاناً بصوت عالٍ .
(٤) أُضْحِيَّة جمع أَضَاحٍ : شاة ونحوها يضحّي بها في عيد الأضحى .
(٥) قَدِيْد : لَحْمٌ مقطَّعٌ مُمَلَّح ، مُجَفَّف في الشمس .
(٦) مَأْدبَة جمع مَآدِبُ : الطعام الَّذي يصنع لدعوة .

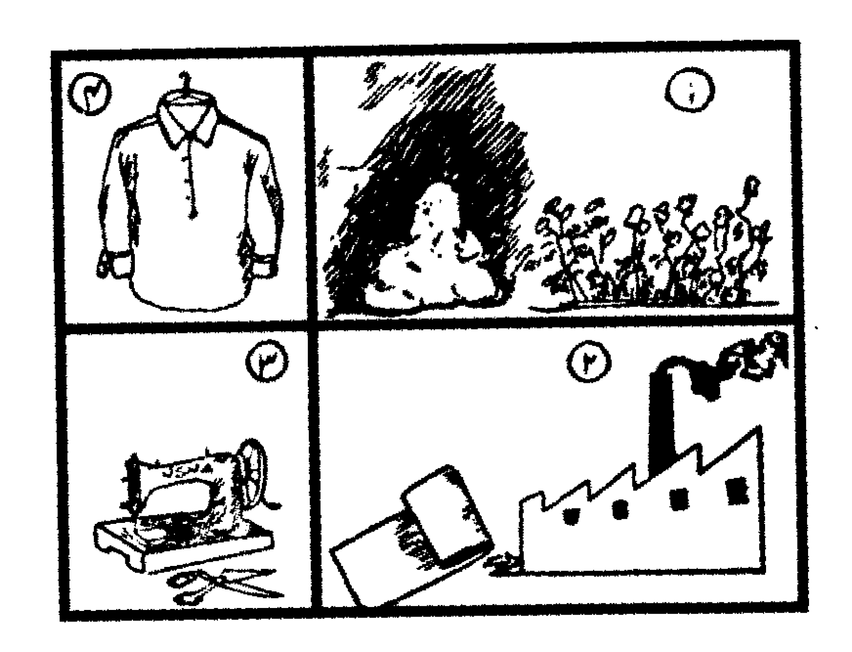
وَالْيَوْم الثَّانِي كُنَّا ضُيُوْفاً عِنْدَ جَارِنَا الْكَرِيْمِ: السَّيِّدِ حُسَيْنِ الطَّبِيْبِ ، وَكَانَتْ مَأْدُبَةً عَظِيْمَةً ، وَلَمْ آكُلْ مِنَ اللَّحْمِ فِيْ طُوْلِ الشَّهْرِ مَا أَكَلْتُ فِيْ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ وَلَمْ يَضُرَّ شَيئاً .

وَكُنْتُ أَسْمَعُ الإِمَامَ مِنْ فَجْرِ يَوْمِ عَرَفَةَ إِلَىٰ عَصْرِ الْيَوْمِ الأَخِيْرِ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيْقِ يَعْنِيْ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ يُكَبِّرُ وَيُهَلِّلُ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوْبَةٍ .

* * *

(٤٦)

تَارِيْخُ الْقَمِيْصِ



إِنَّكَ لَبِسْتَ قَمِيْصاً جَدِيْداً ، فَأَبْلِ وَأَخْلِقْ! وَلٰكِنْ هَلْ تَعْرِفُ مِنْ تَارِيْخِهِ شَيئاً ، هَلْ تَعْرِفُ كَمْ عَمِلَ فِيْهِ مِنَ الأَيْدِيْ ، وَكَمِ اشْتَغَلَ بِهِ النَّاسُ ، وَكَمْ تَعِبَ فِيْهِ الْعَامِلُوْنَ ، وَكَيْفَ وَصَلَ إِلَيْكَ؟

كَانَ أَوَّلُ أَمْرِهِ أَنَّ الزَّرَاعَ زَرَعَ الْقُطْنَ[١] وَتَحَمَّلَ فِيْ زِرَاعَتِهِ

(١) القُطْن: جِنْس نباتات زراعية ليفية ثَمْرتها مادَّة بَيْضَاء ناعمة تُغْـزَلُ وتُصْنَعَ منها الثياب ونحوها.

عَنَاءً[1] شَدِيْداً ، فَإِنَّ زِرَاعَةَ الْقُطْنِ فِيْهَا تَعَبٌ عَظِيْمٌ ، وَشُغْلٌ طَوِيْلٌ ، حَرَثَ الأَرْضَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، أَوْ أَكْثَرَ ، وَشَقَّ خُطُوْطاً ، وَمَلأَهَا بِالْمَاءِ ، وَتَرَكَهَا حَتَّىٰ جَفَّتْ ، وَحَفَرَ فِيْ جَنْبِهَا حُفَراً ، ثُمَّ بَذَرَ[2] فِيْهَا بُذُوْراً مِنَ الْقُطْنِ قَدْ نَقَعَهَا بِالْمَاءِ لَيْلَةً ، وَلَمَّا نَجَمَ[3] النَّبَاتُ عَزَقَ[4] الْفَلاَّحُ الْخُطُوْطَ ، فَجَعَلَ بَاطِنَهَا ظَاهِرَهَا ، وَقَلَعَ الْحَشَائِشَ[5] الَّتِي تَضُرُّ بِالْقُطْنِ ، وَأَرْوَاهَا[6] مِرَاراً ، وَلَمْ يَزَلِ الْفَلاَّحُ يَخْدُمُ الْحَقْلَ ، وَيَتْعَبُ وَلاَ يَسْتَرِيْحُ شُهُوْراً ، حَتَّىٰ ظَهَرَ فِيْهَا الْقُطْنُ ، فَانْبَثَّ الأَوْلاَدُ مِنَ الْبَنِيْنَ وَالْبَنَاتِ فِي الْحَقْلِ ، وَجَنَوُا الْقُطْنَ .

وَلَمَّا جُمِعَ الْقُطْنُ أُرْسِلَ إِلَىٰ الْحَلاَّجِ[7] ، فَحَلَجَهُ[8] ، ثُمَّ نُقِلَ إِلَىٰ بَعْضِ الْمَصَانِعِ فَغُزِلَ ، ثُمَّ أَخَذَهُ الْحَائِكُ ، وَمَدَّهُ خُيُوطاً

---

(١) عنَاءٌ : تَعْباً .
(٢) بَذَرَ يَبْذُر بَذْراً : الحبَّ : ألقاه في الأرض متفرقاً للزراعة .
(٣) نَجَمَ يَنْجُمُ نَجْماً وَنُجُوماً : طَلَعَ وظَهَرَ .
(٤) عَـزَق : شقّ .
(٥) حَشِيْش جمع حَشَائِش واحدته حشيشة : العشب الَّذي يكسو الحدائق ونحوها .
(٦) أَرْوَىٰ يُرْوِي إِرْواءً : سَقَىٰ .
(٧) الحلاَّج : الَّذي يخلِّص القطن من بذره .
(٨) حَلَجَ يَحْلُجُ حَلْجاً وحِلاَجَةً : القطْنَ : خَلَّصَه من بذره .

مُتَقَارِبَـةً ، وَلَمْ يَزَلْ يَشْتَغِلُ وَيَتْعُبُ أَيَّاماً ، حَتَّىٰ نَسَجَهُ ثَوْباً نَاعِماً مَتِيْنَاً ، وَاشْتَرَىٰ تَاجِرٌ ذٰلِكَ الثَّوْبَ وَوَضَعَهُ فِيْ دُكَّانِهِ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُوْكَ بِمَالِهِ الَّذِيْ اكْتَسَبَهُ بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ[1] وَتَعِبَ فِيْهِ أَيَّاماً ، وَأَنْتَ مُسْتَرِيْحٌ فِي الْبَيْتِ تَأْكُلُ وَتَـنَـامُ ، وَذَهَبَ ذٰلِكَ الثَّوْبُ إِلَىٰ خَيَّاطٍ فَفَصَّلَ مِنْهُ لَكَ قَمِيْصاً ، ثُمَّ خَاطَهُ لَيْلَةَ الْعِيْدِ وَهُوَ سَاهِرٌ ، وَأَنْتَ فِيْ فِرَاشِكَ نَائِمٌ.

وَجَاءَ إِلَيْكَ الْقَمِيْصُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ مِنْكَ وَشُغْلٍ ، أَفَلاَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَقُوْلَ إِذَا لَبِسْتَهُ:

«اللَّهُـمَّ أَنْـتَ كَسَـوْتَنِيْـهِ ، وَأَلْبَستَنِيْـهِ مِـنْ غَيْـرِ حَـوْلٍ مِنِّـيْ وَلاَ قُوَّةٍ ، أَسَأَلُكَ خَيْرَهُ ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ» .

* * *

(١) بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ: أي بالجهدِ والكدِّ.

(٤٧)
الأَسَــــدُ

الأَسَدُ مَلِكُ الْغَابَةِ ، وَسَيِّدُ السِّبَاعِ ، وَهَيْئَتُهُ تَدُلُّ عَلَىٰ ذٰلِكَ ، فَلَهُ مَنْظَرٌ مَهِيْبٌ[١] ، وَزَئِيْرٌ[٢] تَدْوِي[٣] لَهُ الْغَابَاتُ ، وَيَطِيْرُ لَهُ قَلْبُ الشُّجَاعِ ؛ قَوِيُّ الْبَأْسِ ، كَبِيْرُ الْجِسْمِ ، يُحِيْطُ بِرَأْسِهِ شَعْرٌ كَبِيْرٌ يَكَادُ يَحْجُبُ رُكْبَتَيْهِ[٤] ، إِذَا غَضِبَ تَجَعَّدَتْ[٥] جَبْهَتُهُ وَخَدَّاهُ ، وَكَشَّرَ[٦] عَنْ أَنْيَابِهِ وَأَبْرَقَتْ عَيْنَاهُ ، وَاخْتَلَجَ[٧]

---

(١) مَهِيْبٌ : مَن يخافه النَّاسُ .
(٢) زَئِير : صَوْتُ الأَسد .
(٣) دَوِي يَدْوَى دَوًى : المكانُ : ضَجَّ بِهُتَافَاتٍ .
(٤) رُكْبَة جمع رُكَب : مَوْصِلُ أسفل الفخذ بأعلى الساق .
(٥) تَجَعَّدَ يَتَجَعَّدُ تجعُّداً : الجَبْهَةُ أو الشعرُ ، أو الوجهُ ، أو الخدُّ : اجتَمَعَ وَتَقَبَّضَ والتوى .
(٦) كَشَّرَ يُكَشِّرُ تَكْشِيْراً : السبعُ : هَرَّ عند الوثوب .
(٧) اخْتَلَجَ يَخْتَلِجُ : تحرَّكَ واضطَرَبَ .

حَاجِبَاهُ ، وَوَقَفَ شَعْرُ بَدَنِهِ ، وَضَرَبَ بِذَنَبِهِ جَنْبَيْهِ ، وَأَطْبَقَ[1] عَيْنَيْهِ ، وَمَالَ إِلَىٰ الأَرْضِ ، وَوَثَبَ[2] عَلَىٰ فَرِيْسَتِهِ كَالصَّاعِقَةِ ، حَتَّىٰ إِذَا ظَفِرَ بِهَا أَخَذَ فِيْ مُلاَعَبَتِهَا ، ثُمَّ مَزَّقَهَا بِأَنْيَابِهِ تَمْزِيْقاً .

وَإِذَا كَانَ الأَسَدُ مُقَيَّداً دَلَّتْ هَيْئَتُهُ عَلَىٰ الْهُدُوْءِ ، فَإِذَا أُفْلِتَ وَهُيِّجَ انْدَفَعَ مِنْ عَرِيْنِهِ[3] ، وَهُوَ أَكْثَرُ شَجَاعَةً فِي اللَّيْلِ مِنْهُ فِي النَّهَارِ ، وَيَمُرُّ بِالإِنْسَانِ ، وَلاَ يَتَعَرَّضُ لَهُ إِلاَّ إِذَا كَانَ ضَارِياً أَوْ هَاجَهُ إِنْسَانٌ .

وَيَهْجُمُ عَلَىٰ الْحَيْوَانَاتِ كَالْخَيْلِ وَالْجِمَالِ وَالْبَقَرِ وَغَيْرِهَا ، وَيَصِيْدُ الظَّبْيَ وَيَأْكُلُهُ بِرَغْبَةٍ ، وَتَدْفَعُهُ الْجَرَاءَةُ إِلَىٰ اخْتِطَافِ[4] الإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ .

وَأُنْثَىٰ الأَسَدِ تُعْرَفُ بِاللَّبُوْءَةِ[5] ، وَهِيَ أَصْغَرُ جُثَّةً ، وَأَخَفُّ حَرَكَةً ، وَأَشَدُّ غَضَباً مِنْهُ ، وَجَرْوُهَا يُعْرَفُ بِالشِّبْلِ[6] ، وَيَبْدَأُ فِي الافْتِرَاسِ ، وَيَهْتَمُّ بِقُوَّتِهِ إِذَا بَلَغَ الثَّانِيَةَ مِنْ عُمُرِهِ .

---

(١) أَطْبَقَ يُطْبِقُ : عَيْنَيْه أو شَفَتَيْه : أَغْلَقَهما .
(٢) وَثَبَ يَثِبُ وَثْباً وَوُثُوْباً : قَفَزَ .
(٣) عَرِيْن جمع عُـرُن : مأوى الأسد .
(٤) اختطاف الشيء : أي انتزاعه بسرعةٍ .
(٥) اللَّبُوْءَة جمع لُبُوء ولَبُؤات : أُنثى الأسد .
(٦) الشِّبْلُ جمع الأَشبال : وَلَدُ الأسد .

وَمُعَدَّل طُوْلِ الأَسَدِ ثَلاَثُ أَذْرُعٍ ، وَعُلُوُّهُ ذِرَاعٌ وَرُبْعٌ ، وَمُعَدَّلُ مَا يَعِيْشُ خَمْسٌ وَعِشْرُوْنَ سَنَةً ، وَقَدْ يَبْلُغُ فِيْ قَفَصِهِ مِئَةَ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ .

* * *

(٤٨)

غُـرُوْرُ الـدُّنْـيَـا

تقُـوْلُ لَيْـسَ الْمَـاجِـدُ[١] ... إلاَّ الْقَنُـوْعُ الـزَّاهِـدُ
فَمَـا أَعَـزَّ مَـنْ قَنِـعْ ... وَمَـا أَذَلَّ مَـنْ طَمِـعْ
دُنْيَـاكُـمُ حَبِيْبَـةْ ... بِحُسْنِهَـا وَالطِّيْبَـةْ
لٰكِنَّهَـا غَـدَّارَةْ[٢] ... خَـدَّاعَـةٌ غَـرَّارَةْ[٣]
لَيْـسَ لَهَـا حَبِيْـبُ ... زَوَالُهَـا قَـرِيْـبُ
مَلُـوْلَـةٌ خَـوَّانَـةْ ... لَيْـسَ لَهَـا أَمَـانَـةْ
تُفَـرِّقُ الأَحْبَـابَـا ... تُشَتِّـتُ الأَتْـرَابَـا
حَـرْبٌ لِمَـنْ سَـالَمَهَـا[٤] ... تَمَـلُّ[٥] مَـنْ لاَزَمَهَـا

---

(١) مَاجِد جمع أَمْاجِد: شريف خَيِّر.
(٢) غَدَّارة: خَائنة.
(٣) غَرَّارَة: خَدَّاعة.
(٤) سَالَمَ يُسَالِمُ مُسَالَمَةً: صَالَحَ.
(٥) مَلَّ يَمَلُّ مَلَلاً ومَلاَلاً ومَلاَلَةً: سَئِمَ وَضَجِرَ.

عَــزِيْــزُهَــا ذَلِيْــلُ كَثِيْــرُهَــا قَلِيْــلُ
وصَــالُهَــا عَنَــاءُ صُــدُوْدُهَــا بَــلاَءُ
يَحْظَــىٰ بِهَــا الْجُهَّــالُ وَيَنْعَــمُ الأَنْــذَالُ[1]
يَشْقَــىٰ بِهَــا اللَّبِيْــبُ[2] وَيَتْعَــبُ الأَدِيْــب

(أبو العتاهية)

* * *

(١) نَـذْل جمع أَنْذَال: خَسِيْس سَاقِط في دينٍ أو حَسَبٍ.
(٢) اللَّبِيْبُ جمع الأَلبَّاءُ: العاقل الذكيُّ.

(٤٩)

رِسَالَـةٌ إِلَـىٰ رَسُـوْل الله ﷺ

إِذَا جَاءَكَ قَرِيْبٌ أَوْ صَدِيْقٌ ، وَقَالَ : إِنِّي مُسَافِرٌ إِلَىٰ الْوَطَن ، وَسَأُقَابِلُ أَبَاكَ ، فَهَلْ تُوْصِي بِشَيْءٍ؟ وَهَلْ لَكَ رِسَالَةٌ إِلَيْهِ أَحْمِلُهَا مِنْكَ ، وَأُبَلِّغُهَا إِلَيْهِ؟ فَلاَ تَشُكُّ أَنَّهُ سَيَجْتَمِعُ بِأَبِيْكَ ، وَرُبَّمَا يَسْأَلُ أَبُوْكَ عَنْكَ خَبَراً سَارّاً ، وَبُشْرَىٰ صِحَّتِكَ . فَتَقُوْلُ : تقْرَأ عَلَىٰ وَالِدِيْ مِنِّيْ السَّلاَمَ ، وَقُلْ لَهُ : إِنَّ ابْنَكَ بِخَيْرٍ ، وَكَمَا تُحِبُّ مِنْ صِحَّةٍ وَسُرُورٍ .

كَذٰلِكَ كَانَ الْمُسْلِمُوْنَ يَعْتَقِدُوْنَ أَنَّ الْمَوْتَ جِسْرٌ[١] إِلَىٰ الآخِرَةِ ، وَكُلُّ مَنْ عَبَرَ[٢] هٰذَا الْجِسْرَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَصَلَ إِلَىٰ

---

(١) جَسْر جمع جُسُوْر : القنطرة ونحوها مما يعبر عليه ، وما يربط بين طرفين ، وسيلة اتصال وتفاهم .

(٢) عَـبَـر يَعْـبُـرُ عُـبُوراً وعَـبْـراً ـ الـنَّهْـرَ والطريقَ أو الجِسْرَ : قَطَعَه من جانبٍ إلى جانبٍ .

الآخِرَةِ ، وَاجْتَمَعَ هُنَالِكَ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، وَتَشَرَّفَ بِزِيَارَتِهِ ، وَلاَ بُدَّ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ سَائِلٌ عَنْ أُمَّتِهِ .

وَيُمْكِنُ أَلاَّ يَصِلَ قَرِيْبُكَ أَوْ صَدِيْقُكَ إِلَىٰ الْوَطَنِ لِمَانِعٍ أَوْ حَادِثَةٍ ، أَوْ يَصِلَ إِلَىٰ الْوَطَنِ ، وَلاَ يَجْتَمِعَ بِأَبِيْكَ ، وَلَٰكِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ مَا كَانُوْا يَشُكُّوْنَ فِيْ وُصُوْلِ الْمَيِّتِ إِلَىٰ عَالم الآخِرَةِ ، وَاجْتِمَاعِ الشَّهِيْدِ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ .

زَحَفَ[1] الْمُسْلِمُوْنَ إِلَىٰ الشَّام ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَهُمْ: «لَتُفْتَحُنَّ كُنُوْزَ كِسْرَىٰ[2] وَقَيْصَرَ[3]» وَقَدْ وَعَدَهُمَا اللهُ بِالنَّصْرِ ، وَقَالَ: «وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْمَنْصُورُوْنَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُوْنَ» وَكَانُوْا وَاثِقِيْنَ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ ، وَكَذٰلِكَ كَانَ ، فَقَدْ فَتَحُوْا مَدِيْنَةً بَعْدَ مَدِيْنَةٍ ، وَهَزَمُوَا جُنْداً بَعْدَ جُنْدٍ .

وَجَاءَ رَجُل يَوْمَ الْيَرْمُوْكِ[4] إِلَىٰ أَبِيْ عُبَيْدَةَ ـ رضي الله عَنْهُ ،

---

(١) زَحَفَ يَزْحَفُ زَحْفاً: تَقَدَّمَ في ثقلٍ.

(٢) كِسْرَىٰ: لقبُ ملوكِ الفُرس.

(٣) قَيْصَر: لقبُ ملوكِ الرُّوم.

(٤) اليَرْمُوْك: من روافد الأردن ، ينبع في هضبة حوران ويجري في حدود سورية ، ويصبُّ في الأردن ، عنده انتصر سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه على البيزنطيين سنة ١٥ هـ.

قَائِدِ الْمُسْلِمِيْنَ ـ فَقَالَ: إِنَّنِيْ قَدْ تَهَيَّأْتُ لأَمْرِيْ أَيْ لِلشَّهَادَةِ ، فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ إِلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

قَالَ أَبُوْ عُبَيْدَةَ: نَعَم! تُقْرِئُهُ عَنِّيْ السَّلاَمَ ، وَتَقُوْلُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ! إِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقَّاً[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير ، ج ٧ ، ص ١٢.

(٥٠)

حَـادِثَـــةٌ

زَارَنَا مَرَّةً ضَيْفٌ كَرِيْمٌ ، وَبَاتَ عِنْدَنَا لَيْلَةً ، وَفِي الصَّبَاحِ قُلْتُ لَهُ: أَتَسْتَحِمُّ[١] يَاسَيِّدِيْ؟

وَكَانَ يَوْمُ جُمُعَةٍ ، قَالَ: نَعَمْ! قُلْتُ: هٰذَا مُغْتَسَلٌ[٢] ، قَالَ: بَلْ أَسْتَحِمُّ فِي النَّهْرِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ يَعْرِفُ السِّبَاحَةَ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَتَّفِقْ لَهُ أَنْ يَسْبَحَ مِنْ مُـــدَّةٍ طَـوِيْلَـةٍ ، وَسَمِعْـتُ أَنَّ الإِنْسَـانَ لَا يَنْسَـىٰ السِّبَـاحَـةَ إِذَا تَعَلَّمَهَا ، إِلَّا أَنَّـهُ يَتْعَبُ سَرِيْعاً.

وَكَانَ النَّهْرُ فَائِضاً[٣] وَكَانَ يَجْرِيْ بِقُوَّةٍ ، فَخَاضَ[٤] الشَّيْخُ

---

(١) اسْتَحَمَّ يَسْتَحِمُّ: اغْتَسَلَ.
(٢) مُغْتَسَل: مكان الغسل.
(٣) فائضاً: سَائلاً.
(٤) خَاضَ يَخُوْضُ خَوْضاً: الماءَ: دَخَلَهُ ومَشَىٰ فيه.

النَّهْرَ ، وَبَدَأَ يَسْبَحُ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ كَلَّتْ[١] عَضُدُهُ ، وَخَارَتْ[٢] قُوَاهُ وَأَعْيَا ، وَدَفَعَهُ الْمَاءُ بِقُوَّةٍ ، فَجَعَلَ يَجْرِيْ فِيْ تَيَّارِهِ لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئاً ، وَأَيْقَنَ بِالشَّرِّ .

فَجَعَلَ يَصْرخُ وَيَسْتَغِيْثُ ، وَيَقُوْلُ : يَا رَجُلاً! خُذْ بِيَدِيْ ، وَجَعَلَ يَذْكُرُ ، وَيَقُوْلُ : اللهُ! اللهُ! كَأَنَّهُ فِيْ آخِرِ عَهْدِهِ بِالدُّنْيَا ، وَجَعَلَ يَغْطِسُ وَيَطْفُوْ .

فَسُقِطَ فِيْ أَيْدِيْنَا ، وَخِفْنَا عَلَيْهِ الْغَرَقَ ، وَكَانَ أَحَدُ أَقَارِبِنَا مِمَّنْ يُحْسِنُوْنَ السِّبَاحَةَ يَغْتَسِلُ فِي النَّهْرِ فَقُلْنَا : دُوْنَكَ الأُسْتَاذَ ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ بِسُرْعَةٍ ، وَلَمَّا رَأَىٰ الشَّيْخُ مُنْجِداً تَشَجَّعَ قَلِيْلاً ، وَأَرَادَ أَنْ يُمْسِكَهُ .

وَلٰكِنْ كَانَ الرَّجُلُ عَاقِلاً مُجَرِّبَاً ، وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الْغَرِيْقَ يَرْكَبُ مَنْ يُنْجِدُ وَيَأْخُذُ بِتَلَابِيْبِهِ[٣] ، وَيَغْرَقَانِ جَمِيْعَاً ، فَلَمْ يُمْكِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ ، بَلْ غَطَّسَ[٤] وَدَفَعَهُ مِنْ أَسْفَلَ إِلَىٰ

(١) كَلَّ يَكِلُّ كُلُوْلاً وَكَلَالَةً : العَضُدُ : ضَعُفَتْ .

(٢) خَارَ يَخُوْرُ خُؤوراً : القوةُ ونحوها : انكَسَرَتْ وَضَعُفَتْ . يُقال خَارَتْ قواه : أي مَرِضَ أَوْ ضَعُفَ جِسْمَانِيّاً .

(٣) تَلَابِيْب : طَوْق الثَّوْب «أَخَذَ بِتَلَابِيْبِهِ» أي : أَمْسَكَهُ مِنْ أَعْلَىٰ ثَوْبِهِ .

(٤) غَطَسَ يَغْطِسُ غَطْساً في الماء ونحوه : أي انْغَمَسَ فيه .

الشَّاطِىءِ ، وَلَمْ يَزَلِ الشَّيْخُ يَجْتَهِدُ أَنْ يُمْسِكَهُ ، وَالرَّجُلُ يَدْفَعُهُ إِلَىٰ الأَمَامِ حَتَّى أَوْصَلَهُ إِلَىٰ الشَّاطِىءِ .

وَكَانَ الشَّيْخُ كَالْمُغْمَىٰ عَلَيْهِ لاَ يَعْقِلُ[1] شَيْئاً ، وَكَانَ عَلَىٰ الشَّاطِىءِ رَجُلٌ يَصِيْدُ السَّمَكَ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ : مُدَّ عُوْدَكَ[2] لِيُمْسِكَهُ الشَّيْخُ ، فَمَدَّ الصَّيَّادُ عُوْدَهُ ، وَجَعَلَ يَضْرِبُ بِهِ عَلَىٰ رَأْسِهِ ، وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ وَلاَ يُمْسِكُهُ ، وَبَعْدَ حِيْنٍ أَمْسَكَ بِالْعُوْدِ ، وَوَصَلَ إِلَىٰ الشَّاطِىءِ .

وَكَانَ الشَّيْخُ قَدْ شَرِبَ كَثِيْراً مِنَ الْمَاءِ ، فَنَكَّسُوْهُ[3] حَتَّىٰ قَاءَ[4] وَأَفَاقَ[5] ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ الشُّعُوْرُ وَالْقُوَّةُ .

وَكَانَ عَلَىٰ شَاطِىءٍ آخَرَ مِنَ النَّهْرِ ، فَصَنَعُوْا لَهُ مَرْكَباً مِنَ الْجِرَارِ ، وَرَكِبَهُ الشَّيْخُ ، وَأَمْسَكَ بِالْحَبْلِ ، وَحَوْلَهُ عَدَدٌ مِنْ فُرْسَانِ السِّبَاحَةِ ، وَأَبْطَالِ الْمَاءِ ، وَرَجَعَ فِي الْمَوْكِبِ إِلَىٰ

---

(١) عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلاً : أَدْرَكَ ، مَيَّزَ .
(٢) عُوْد جمع عِيْدَان وَأَعْوَاد : كل خشبة ، دقيقة كانت أو غليظة ، رطبة كانت أو يابسَة .
(٣) نَكَسَ يَنْكُسُ نَكْساً : الرجلَ : قلبه وجعل أعلاه أسفله أو مقدمه مؤخره .
(٤) قَاءَ يَقِيءُ قَيْئاً : أَلْقَىٰ القَيْءَ من فَمِه .
(٥) أَفَاقَ يُفِيْقُ إِفَاقَةً : الرجلُ : عَادَ إلى طبيعته ، استيقظ .

الشَّاطِئِ ، وَقَدْ ذُعِرَ[1] الأُسْتَاذُ بِهٰذِهِ الْحَادِثَةِ ، فَكَانَ يُوْصِي كُلَّ مَنْ يَزُوْرُ قَرْيَتَنَا أَلاَّ يَدْخُلَ النَّهْرَ ، وَكَانَ يَقُوْلُ : إِذَا أَرَدْتَّ أَنْ تَتَمَتَّعَ بِالدُّنْيَا ، فَإِيَّاكَ وَالنَّهْرَ .

وَكَانَ الشَّيْخُ لاَ يَزَالُ يَعْتِبُ[2] عَلَىٰ الرَّجُلِ أَنَّهُ لَمْ يُنْجِدْهُ ، وَلَمْ يَمُدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ ، وَلاَ يَرَاهُ مَعْذُوْراً فِيْ هٰذَا الأَمْرِ .

❊ ❊ ❊

(١) ذُعِرَ يذْعَرُ مَذْعُورٌ : فَزِعَ .

(٢) عَتَبَ يَعْتِبُ عَتْباً عِتَاباً : الرَّجلُ على فلانٍ : لاَمَه برفقٍ على قيامه بعمل ما ، أو عدم قيامه به .

(٥١)

فَتَى[1] الإسْلاَمِ

هَلْ تَعْرِفُ فِتْيَانَاً هُمْ فِي السَّابِعَةَ عَشَرَةَ ، أَوِ الثَّامِنَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِمْ؟ بَلَّغَكَ اللهُ فَوْقَ هٰذِهِ السِّنّ وَعَمَّرَكَ طَوِيْلاً .

إِنَّكَ لَتَعْرِفُ مِنْهُمْ كَثِيْراً! فَهَلْ تَعْرِف عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُوْنَ وَيَشْرَبُوْنَ ، وَيَرْتَعُوْنَ[2] وَيَلْعَبُوْنَ وَيَتَجَمَّلُوْنَ[3] فِي الْمَلاَبِسِ ، وَيَتَأَنَّقُوْنَ[4] فِيْ الْهِنْدَامِ[5] وَالزِّيْنَةِ .

وَإِذَا امْتَازَ فِيْهِمْ فَتىً ، وَعَلَتْ هِمَّتُهُ ، عَكَفَ[6] عَلَىٰ دِرَاسَتِهِ

---

(١) فتىً جمع فِتْيَان وفِتْيَة : شابٌّ بين المراهقة والرُّجُولةِ .

(٢) يَرْتَعُوْنَ (مِنْ رَتَعَ يرتَعُ رَتْعاً) في المكان : أي يُقيمون ويتنعَّمون ويأكلون فيه ويشربون ما يشاؤون في خصب وسعة .

(٣) تَجَمَّل يَتَجَمَّلُ تَجَمُّلاً : ظَهَرَ بما يَجْملُ .

(٤) تَأَنَّقَ يَتَأَنَّقُ تَأَنُّقاً : اعْتَنَى بمَظْهَرِهِ وبَدَا أَنِيْقاً .

(٥) الهِنْدَامُ : حُسْنُ القدِّ وتَنْظِيمُ الْمَلاَبِس .

(٦) عَكَفَ يَعْكُفُ عُكُوْفاً : الرَّجلُ على الشيءِ أو الأمر : أَقْبَلَ عليه ولَزِمَهُ .

وَمُطَالَعَتِهِ ، وَجَدَّ فِيْهَا وَاجْتَهَدَ ، حَتَّىٰ بَـرَزَ[1] فِي الاِخْتِبَارَاتِ ، وَأَحْرَزَ[2] الْجَوَائِزَ وَالْوِسَامَاتِ[3] .

وَإِذَا طَمَحَ[4] فِيْهِمْ شَابٌّ اجْتَهَدَ لِوَظِيْفَةٍ فِيْ مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِ الْحُكُوْمَةِ فَصَارَ يَتَقَاضَىٰ رَاتِباً شَهْرِيَّاً .

ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، وَتِلْكَ أَقْصَىٰ أَمَانِيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ .

وَلٰكِنْ لَمَّا كَانَتْ دَوْلَةُ الإِسْلاَمِ ، وَكَانَتِ الْهِمَمُ عَالِيَةً ، كَانَ الشَّابُّ الْمُسْلِمُ يَطْمَحُ إِلَىٰ إِقَامَةِ الْجِهَادِ ، وَفَتْحِ الْبِلاَدِ ، فَيَفْتَحُ قُطْراً أَوْ يُؤَسِّسُ دَوْلَةً أَوْ يَمُوْتُ شَهِيْداً .

هٰذَا مُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمٍ الثَّقَفِيُّ قَدْ غَزَا[5] الْهِنْدَ ـ وَهِيَ بِلاَدٌ بَعِيْدَةٌ مِنْ بِلاَدِ الْعَرَبِ وَرَاءَ الْبِحَارِ ـ فَهَزَمَ الْجُنُوْدَ ، وَقَتَلَ الْمُلُوْكَ ، وَوَظَّفَ[6] الْخِرَاجَ ، وَسَبَىٰ[7] الذُّرِّيَّةَ ، وَفَتَحَ مُحَمَّدٌ

---

(١) بَـرَّزَ يُـبَـرِّزُ تَـبْرِيزاً: فَاقَ أَقْرَانه .

(٢) أَحْرَزَ يُحْرِزُ إِحْرَازاً: الجائزة وما نحوها: حَصَلَ عليها .

(٣) وِسَامة جمع وِسَامات: ما يُعَلَّق على صدر من أحسن عملاً مكافأة له عليه .

(٤) طَمَحَ يَطْمَحُ طُمُوْحاً: تَطَلَّعَ إلى تحقيق هدفٍ بعيدٍ .

(٥) غَزَا يَغْزُوْ غَزْواً: سَارَ إلى قتال العدوّ في أرضه .

(٦) وَظَّف يُوَظِّف تَوْظِيْفاً: الرحلُ فلاناً: أَسْنَدَ إليه وظيفةً .

(٧) سَبَىٰ يَسْبِي سَبْياً: عَدُوَّه: أَسرَه .

السِّنْدَ[1] ، وَتَوَغَّلَ فِي الْهِنْدِ ، حَتَّىٰ قَطَعَ نَهْرَ بَيَاسَ[2] إِلَىٰ الْمُلْتَانِ ، وَفَتَحَهَا ، وَخَضَعَ أَهْلُ الْهِنْدِ لِمُحَمَّدٍ ، وَأَحَبُّوْهُ لِدِيْنِهِ وَكَرَمِهِ وَعَدْلِهِ ، مَعَ أَنَّ الْعَدُوَّ الْقَاهِرَ لَا يُحَبُّ ، وَصَنَعُوْا لَهُ تِمْثَالاً عَلَىٰ عَادَةِ أَهْلِ الْهِنْدِ .

وَتِلْكَ الْفُتُوْحُ الْعَظِيْمَةُ كُلُّهَا كَانَتْ فِي مُدَّةٍ قَصِيْرَةٍ جِدّاً .

هٰذَا ، وَفَاتِحُ السِّنْدِ لَمْ يَتَجَاوَزِ السَّابِعَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَفِيْ ذٰلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ :

سَاسَ الرِّجَالَ لِسَبْعَ عَشَرَةَ حِجَّةً[3]
وَلِـــدَاتُـــهُ عَـــنْ ذَاكَ فِـــيْ أَشْغَـــالِ

* * *

(١) السِّنْدُ : اسم مكان يطلق على الجزء الشمالي الغربي من الهند ، يتوسطه حوض نهر السند ، وأكثره الآن يقع في باكستان الغربية .
(٢) نَهْر بيَاس : يُعَدُّ من أكبر وأهم الأنهار الَّتي تجري في الهند .
(٣) حِجَّة جمع حِجج : السنة .

(٥٢)

الـرِّمَـايَــــةُ

سَأَلْتُ أَبِي أَنْ يَشْتَرِيَ لِيْ بُنْدُقِيَّـةً صَغِيْرَةً ، لأَصِيْدَ الطُّيُوْرَ: كَالْيمامِ وَالْحَمَامِ وَالْـغُـرَابِ الَّذِيْ يُـؤْذِيْ كَثِيْراً وَيَلِغُ[1] فِي الْمَاءِ ، وَأَتَمَرَّنَ عَلَىٰ الرَّمْيِ ، فَاشْتَرَىٰ لِيْ بُـنْـدُقِيَّـةً وَحُقَّةً[2] مِنَ الرَّشَاشِ.

وَكُنْتُ إِذَا رَجَعْتُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، أَوْ كَانَ يَوْمُ عُطْلَةٍ أَخَذْتُ الْبُنْدُقِيَّةَ ، وَعَدَداً مِنَ الرَّشَاشِ ، وَذَهَبْتُ إِلَىٰ الْبُسْتَانِ أَرْمِي الطُّيُوْرَ.

وَفِي الأَوَّلِ لَا أُصِيْبُ طَائِراً ، وَأُخْطِىءُ كُلَّ مَرَّةٍ ، ثُمَّ صِرْتُ

---

(١) وَلَغَ يَلَغُ وُلُوغاً: الحيوانُ الإناءَ وفيه: شرب ما فيه بطرف لسانه. والطيورُ: شربتْ ما فيه من منقارها.

(٢) حُقَّة جمع حُقَق وحِقَاق: وعاء صغير ذو غطاءٍ يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

أُصِيْبُ مَرَّةً فِيْ ثَلاَثِ طَلَقَاتٍ ، وَأَصِيْدُ بَعْضَ الطُّيُوْرِ ، حَتَّىٰ تَمَرَّنْتُ فِيْ شَهْرَيْنِ ، وَاشْتَدَّ سَاعِدِيْ[1] .

وَرَأَيْتُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الأَغْنِيَاءِ شَيْئاً غَرِيْباً ، كَانَتْ عِنْدَهُ صَفِيْحَةٌ ، وَكَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الصَّفِيْحَةِ مِثْلُ فَلْسٍ ، لَهُ لَوْنٌ يَلْمَعُ ، وَيَظْهَرُ مِنْ بَعِيْدٍ .

وَكَانَ بِجَانِبِ هٰذَا الْفَلْسِ مِثْلُ جِرَابٍ ، كَانَ يَشْحَنُهُ بِالْبَارُوْدِ ، وَيَسُدُّهُ بِالْقِرْطَاسِ ، وَكَانَ فِيْ هٰذِهِ الصَّفِيْحَةِ رَسْمٌ مِنْ حَدِيْدٍ : جُنْدِيٌّ فِيْ لِبَاسٍ جُنْدِيٍّ ، فِيْ يَدِهِ قُبَّعَةٌ .

وَكُنَّا نُبَارِيْ[2] فِي الرَّمْيِ ، وَنَرْمِيْ هٰذَا الْفَلْسَ بِالرَّشَاشِ ، فَإِذَا أَصَابَ إِنْسَانٌ الْفَلْسَ انْطَلَقَ الْمِدْفَعُ ، وَسَمِعَ النَّاسُ صَوْتَهُ مِنْ بَعِيْدٍ ، وَانْفَتَحَ الْبَابُ ، وَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْ حَدِيْدٍ ، فِيْ يَده عَلاَمَةٌ يُشِيْرُ بِهَا إِلَىٰ الْهَدَفِ وَيُخْبِرُ بِالإِصَابَةِ .

وَظَهَرَ الْجُنْدِيُّ رَافِعاً قُبَّعَتَهُ يُسَلِّمُ عَلَىٰ الْمُصِيْبِ ، وَكَأَنَّهُ يُهَنِّئُهُ بِنَجَاحِهِ .

وَإِذَا أَخْطَأَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ : لَمْ يَنْطَلِقِ الْمِدْفَعُ ، وَلَمْ يَتَحَرَّكِ الْجُنْدِيُّ مِنْ مَكَانِهِ ، وَمِنَ الْغَرِيْبِ أَنِّي كُنْتُ أُصِيْبُ الْفَلْسَ

---

(١) اشتَدَّ سَاعِدِي : قَوِيَ .

(٢) بَارَىٰ يُبَارِي مُبَاراة : فلانٌ في الأمر : عَارَضَه فيه أو فعل مثل فعلهِ .

فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ دَائِماً ، وَإِذَ انْطَلَقَ الْمِدْفَعُ سُرِرْتُ سُرُوْراً عَظِيْماً .

وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قَدَرْتُ أَنْ أَسْتَعْمِلَ الْبُنْدُقِيَّةَ الْكَبِيْرَةَ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فِي الصَّيْدِ ، وَأَصِيْدُ الْحَمَامَ الأَخْضَرَ وَالْبَطَّ وَأَنواعاً مِنَ الطُّيُوْرِ .

وَسَمِعْتُ الْمُعَلِّمَ يَقُوْلُ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَثَّ عَلَىٰ الرَّمْيِ كَثِيْراً ، وَشَارَكَ فِي الْمُنَاضَلَةِ[1] ، وَقَالَ : «ارْمُوْا يَا بَنِي إِسْمَاعِيْلَ ! فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً» وَقَالَ : «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» .

فَسُرِرْتُ كَثِيْراً ، وَعَلِمْتُ أَنَّ عَمَلِي لَمْ يَكُنْ عَبَثاً ، وَأَنِّي لَمْ أُضَيِّعْ وَقْتِي .

* * *

(١) المناضَلَة : المقاومة والمنافسة .

(٥٣)

الْـجَمَـــلُ

(١)

انْظُرُوْا إِلَىٰ الإِبِلِ: كَيْفَ خُلِقَتْ، تَرَوْهَا لاَ مَثِيْلَ لَهَا[١] فِي الْخِلْقَةِ، فَإِنَّ الْجَمَلَ أَكْبَرُ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ[٢] جِسْماً وَأَطْوَلُهُ سَاقاً، وَلِذٰلِكَ كَانَتْ رَقَبَتُهُ طَوِيْلَةً، حَتَّىٰ يُمْكِنَهُ أَنْ يَرْعَىٰ الْكَلأَ مِنَ الأَرْضِ بِدُوْنِ أَنْ يَبْرُكَ، وَرَأْسُهُ صَغِيْرٌ لِيَكُوْنَ خَفِيْفَ الْحَمْلِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، وَأَرْجُلُهُ فِيْهَا أَخْفَافٌ[٣] تَمْنَعُ سَوْخَها[٤] فِي رِمَالِ

---

(١) لا مَثِيْلَ لها: لا نظير لها.

(٢) الدَّاجِن جمع الدَّوَاجن: كل ما أَلِفَ البيوتَ وأقام بها من حيوان وطير.

(٣) خف جمع أَخْفَاف: حافِر.

(٤) سَوْخهَا: غوْصها.

الصَّحْرَاءِ الَّتِيْ كَثِيْراً مَا يَسِيْرُ فِيْهَا ، وَعَلَىٰ ظَهْرِهِ سَنَامٌ[1] كُلُّهُ شَحْمٌ ، يُرَكَّبُ عَلَيْهِ الْقَتَبُ[2] ، وَعَيْنَاهُ سَوْدَاوَانِ وَاسِعَتَانِ ، تَشِفَّانِ[3] عَنْ حِلْمٍ وَدَعَةٍ ، وَلَهُ فِيْ وَسْطِ بَطْنِهِ قُرْصٌ غَلِيْظٌ يُسَمَّىٰ الْكَلْكَل ، يَسْتَنِدُ عَلَيْهِ مَتَىٰ بَرَكَ ، وَلَهُ فِيْ أَرْجُلِهِ قِطَعٌ عَدِيْمَةُ الْحِسِّ فِيْ مَوَاقِعِهَا عَلَىٰ الأَرْضِ .

وَجَوْفُ الْجَمَلِ عَجِيْبٌ فِيْ تَرْكِيْبِهِ ، لأَنَّهُ يَحْتَوِيْ عَلَىٰ جُمْلَةِ كُرُوْشٍ[4] ، يَخْزُنُ فِيْهَا مِقْدَاراً عَظِيْماً مِنَ الْغِذَاءِ ، حَتَّى إِذَا جَاعَ ، وَلَمْ يَجِدْ أَكْلاً ، أَخْرَجَ مِنْ كِرْشِهِ جِرَّةً ، وَاجْتَرَّهَا ، وَلِذَلِكَ يُسَمَّىٰ حَيَوَاناً مُجْتَرّاً ، وَإِذَا فَرَغَ مَا خَزَنَـهُ فِيْ جَوْفِهِ ، فَإِنَّ شَحْمَ سَنَامِهِ يَتَحَلَّلُ شَيْئاً فَشَيْئاً لِيَغْذُوَهُ وَيَكْفِيْهِ مُدَّةً طَوِيْلَةً .

وَلِلْجَمَلِ فِيْ جَوْفِهِ جُمْلَةُ أَزْقَاقٍ[5] تَمْتَلِيءُ بِالْمَاءِ عِنْدَمَا يَشْرَبُ ، حَتَّىٰ إِذَا عَطِشَ فِيْ مَكَانٍ قَـفْرٍ لاَ مَاءَ فِيْهِ ، أَغْنَاهُ مَا خَزَنَـهُ عَنِ الشُّرْبِ زَمَناً طَوِيْلاً .

---

(١) سَنَامٌ جمع أَسْنِمَة : كتلة كبيرة من الشَّحْم تكون محدَّبة على ظهر الجمل .
(٢) القَتَب جمع الأَقْتَاب : الرَّحْلُ الصغير يوضع على قدر سنَام البَعِيْر .
(٣) تَشِفَّان أي : تَرِقَّانِ حتى يُرى ما خلف عينيه من حلم ودعة .
(٤) كِرْشٌ جمع كُرُوْش : مِعْدَة .
(٥) زَقٌّ جمع أَزْقَاق : وعاء من جلد .

(٥٤)

الْـجَمَــلُ

(٢)

فِيْ عِدَّةِ جِهَاتٍ مِنَ الدُّنْيَا صَحَارَىٰ قَاحِلَةٌ لَا حَيَوَانَ فِيْهَا ، وَلَا نَبَاتَ ، أَرْضُهَا رِمَالٌ جَافَّةٌ .

لَا تَرَىٰ فِيْهَا قَطْرَةَ مَاءٍ ، يَسْلُكُهَا النَّاسُ اضْطِرَاراً ، فَيَحْمِلُوْنَ زَادَهُمْ : مِنْ مَاءٍ وَطَعَامٍ ، عَلَىٰ ظُهُوْرِ الْجِمَالِ ، وَيَسِيْرُوْنَ فِيْ تِلْكَ الْقِفَارِ[١] مُجْتَمِعِيْنَ ، وَإِبِلُهُمْ مُتَتَابِعَةٌ كَالْقِطَارِ ، وَهِيَ تَسِيْرُ بِهِمْ هَادِئَةً سَاكِنَةً ، تَصْبِرُ عَلَىٰ الْجُوْعِ وَالْعَطَشِ مُعْظَمَ الطَّرِيْقِ ، لِأَنَّهَا قَدْ خَزَنَتْ مُؤْنَتَـهَا فِيْ جَوْفِهَا قَبْلَ الرَّحِيْلِ ، وَتَحْمِلُ فَوْقَ ذٰلِكَ مِنَ الْمَتَاجِرِ أَحْمَالاً ثِقَالاً ، لَا تَئِنُّ[٢] مِنْهَا وَلَا تَكِلُّ[٣] ،

---

(١) قَفْر جمع قِفَار: أرض خالية من الماء والعُشب والناس.
(٢) يَئِنُّ أَنِيْناً: تَأَوَّه ألماً.
(٣) كَلَّ يَكِلُّ كَلاًّ : تَعِبَ.

فَتَرَىٰ الْجَمَلَ كَأَنَّهُ مَرْكَبٌ يَشُقُّ تِلْكَ الرِّمَالَ الْوَاسِعَةَ ، وَلِذَا سُمِّيَ «سَفِيْنَةَ الصَّحْرَاءِ». وَإِنَّ ضَلَّ الْمُسَافِرُوْنَ الطَّرِيْقَ فِي الصَّحْرَاءِ يَأْخُذُهُمُ الْقَلَقُ عَلَىٰ حَيَاتِهِمْ ، مَخَافَةَ أَنْ يَنْفَدَ زَادُهُمْ فَيَمُوْتُوْنَ جُوْعاً وَعَطَشاً ، وَلٰكِنَّ الْجَمَلَ يُنْقِذُهُمْ أَحْيَاناً مِنْ تِلْكَ الأَخْطَارِ ، لأَنَّهُ يَشُمُّ الْمَاءَ مِنْ بُعْدٍ ، فَيَسِيْرُ نَحْوَهُ بِسُرْعَةٍ غَرِيْبَةٍ ، لِيَسْتَقِيَ صَاحِبُهُ.

وَالْجَمَلُ سَهْلُ الْقِيَادِ ، لَيِّنُ الطِّبَاعِ ، يَتَحَمَّلُ كَثِيْراً مِنَ الأَذَىٰ بِالصَّبْرِ ، وَلٰكِنَّهُ يَـثُـوْرُ مَتَىٰ بَلَغَ الأَذَىٰ شِدَّةً عَظِيْمَةً ، فَيَنْتَقِمُ مِمَّنْ آذَاهُ ، وَلاَ يَتْرُكُهُ إِلاَّ إِذَا ثَأَرَ لِنَفْسِهِ وَفَتَكَ[1] بِهِ.

وَإِذَا قَوِيَ الْجَمَلُ اشْتَدَّ بَأْسُهُ[2] وعَافَ[3] الأَكْلَ مَا لَمْ يُوْضَعُ فِيْ فَمِهِ ، وَيَقُوْلُ النَّاسُ عَنْهُ: إِنَّهُ صَائِمٌ ، وَفِيْ هٰذِهِ الْحَالَةِ يُخْرِجُ شِقْشِقَتَهُ[4] مِنْ حَلْقِهِ وَيُشَقْشِقُ[5] مِنَ الْغَضَبِ.

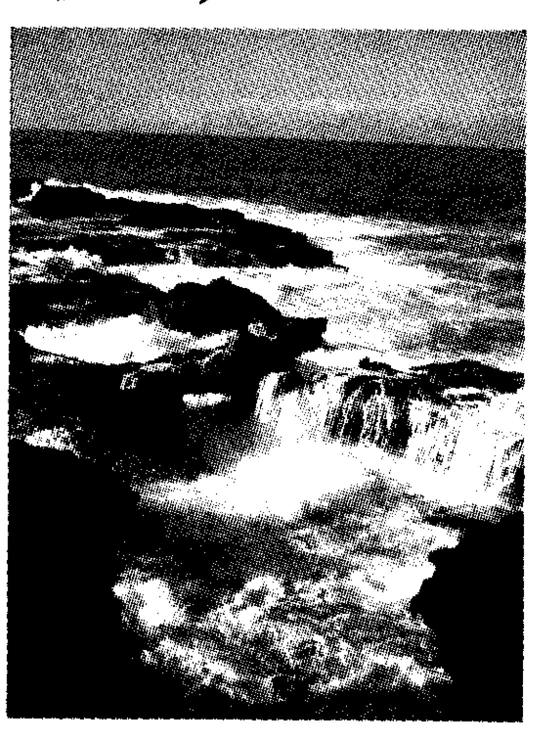
❋ ❋ ❋

---

(١) فَتَكَ يَفْتِكُ فَتْكاً: به ، قَتَلَهُ.
(٢) اشْتَدَّ بَأْسُه: كَثُرَتْ شدَّتُه وقوَّتُه.
(٣) عَافَ يَعَافُ عَيْفاً: الجملُ الأكلَ: كَرِهَه فتَرَكَه.
(٤) شِقْشِقَة جمع شَقَاشِق: شيء كالرئة يُخرجه الجملُ من فيه إذا هَاجَ وَهَدَر.
(٥) شَقْشَقَ يُشَقْشِقُ: الجملُ: هَدَر.

(٥٥)

أنَـا هُنَـا فَـاعْرِفُـوْنِـي!



مَوْلِدِيْ وَوَطَنِي مَا تُسَمُّوْنَهُ الْبَحْرَ! أَنَا ابْنُ أُمَّةٍ عظِيْمَةٍ ، قَدِ امْتَدَّتْ عَلَىٰ مَسَافَةِ آلاَفٍ مِنَ الأَمْيَالِ ، وَيَقُوْلُوْنَ: إِنَّ أُمَّتِيْ أَعْظَمُ مِنْ أُمَّةِ الْبَرِّ؛ فَقَدْ شَغَلْنَا نَحْنُ ثَلاَثَةَ أَرْبَاعِ الْكُرَةِ ، وَالْيَابِسُ مِنْهَا نَحْوُ رُبْعٍ .

وَقَدْ فَارَقْتُ وَطَنِي قَبْلَ شَهْرَيْنِ ، لَمَّا اشْتَدَّ الْحَرُّ فِيْ هٰذَا

الصَّيْفِ ، تَكَوَّنَ بُخَارٌ ، وَفَارَقَ الْبَحْرَ ، وَسَارَتْ بِهِ الرِّيَاحُ إِلَىٰ الْجِبَالِ ، وَهُوَ السَّحَابُ الْمُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الأَمْرُ مِنَ اللهِ ، تَحَلَّلَ هٰذَا الْبُخَارُ بِالْحَرَارَةِ ، وَنَزَلَ قَطَرَاتٍ قَطَرَاتٍ عَلَىٰ الأَرْضِ ، وَقَالَ النَّاسُ: الْمَطَرُ! الْمَطَرُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ.

لَعَلَّكُمْ رَأَيْتُمْ قِدْراً[1] عَلَىٰ النَّارِ فِيْهَا مَاءٌ ، فَإِذَا غَلَتِ الْقِدْرُ ، تَصَاعَدَ[2] مِنْهَا مِثْلُ دُخَانٍ ، وَهُوَ الْبُخَارُ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَإِذَا نَزَلَ الْمَطَرُ ، وَجَمَدَتْ قَطَرَاتِيْ مِنَ الْبَرْدِ ، وَوَقَعَتْ عَلَىٰ الأَرْضِ مِثْلَ الزُّجَاجِ ، قَالَ النَّاسُ: الْبَرَدُ! الْبَرَدُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَقَدْ أَسْقُطُ فِي الْجِبَالِ مِثْلَ الصُّوْفِ[3] الأَبْيَضِ اللاَّمِعِ ، وَأَلْمَعُ فِي الشَّمْسِ مِثْلَ اللُّجَيْنِ ، فَيَكُوْنُ مَنْظَراً جَمِيْلاً ، وَيَقُوْلُ النَّاسُ: الثَّلْجُ! الثَّلْجُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَقَدْ يَشْتَدُّ الْبَرْدُ فِي الشِّتَاءِ ، فَيَجْمُدُ مَا كَانَ مِنَ الْمَاءِ ،

---

(١) قِدْرٌ جمع قُدُوْر: إناء يُطْبَخُ فِيه الطعام.
(٢) تَصَاعَدَ يَتَصَاعَدُ: الشيءُ: ارْتَفَعَ.
(٣) صُوف جمع أَصْوَاف: مَا يَنْبُتُ على جسم الشاة ونحوها ممَّا ليس وبراً ولا شعراً.

وَيَقُوْلُ النَّاسُ: الْجَلِيْدُ[١] الْجَلِيْدُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِي! .

وَإِذَا هَبَطْتُّ مِنَ الْجِبَالِ إِلَىٰ الأَرْضِ ، وَزَاحَمَنِي[٢] صُخُوْرٌ أَوْ أَحْجَارٌ ، كَانَ شَلاَّلٌ[٣] يَكُوْنُ لَهُ صَوْتٌ هَائِلٌ وَمَنْظَرٌ جَمِيْلٌ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِي !

وَإِذَا اجْتَمَعَتْ شَلاَّلاَتٌ ، خَرَجْتُ مِنَ الْجِبَالِ ، فَكُنْتُ نَهْراً ، يَكُوْنُ فِي مَبْدَئِهِ صَغِيْراً ، ثُمَّ يَكُوْنُ عَرِيْضاً عَمِيْقاً ، وَقَالَ النَّاسُ: نَهْرُ السِّنْدِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ ، وَالْفُرَاتِ ، وَالنِّيْلِ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِي .

لَعَلَّكَ رَأَيْتَ فِي الصَّبَاحِ أَيَّامِ الشِّتَاءِ مِثْلَ الدُّخَانِ ، وَيُسَمِّيْهِ النَّاسُ الضَّبَابَ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِي .

وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ قَطَرَاتٍ عَلَىٰ أَوْرَاقِ الأَشْجَارِ ، وَعَلَىٰ العُشْبِ وَالأَزْهَارِ ، فِيْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ ، وَيُسَمِّيْهَا النَّاسُ الطَّلَّ[٤] وَالنَّدَىٰ[٥]، وَأَنَا هُنَا. فَاعْرِفُوْنِي .

---

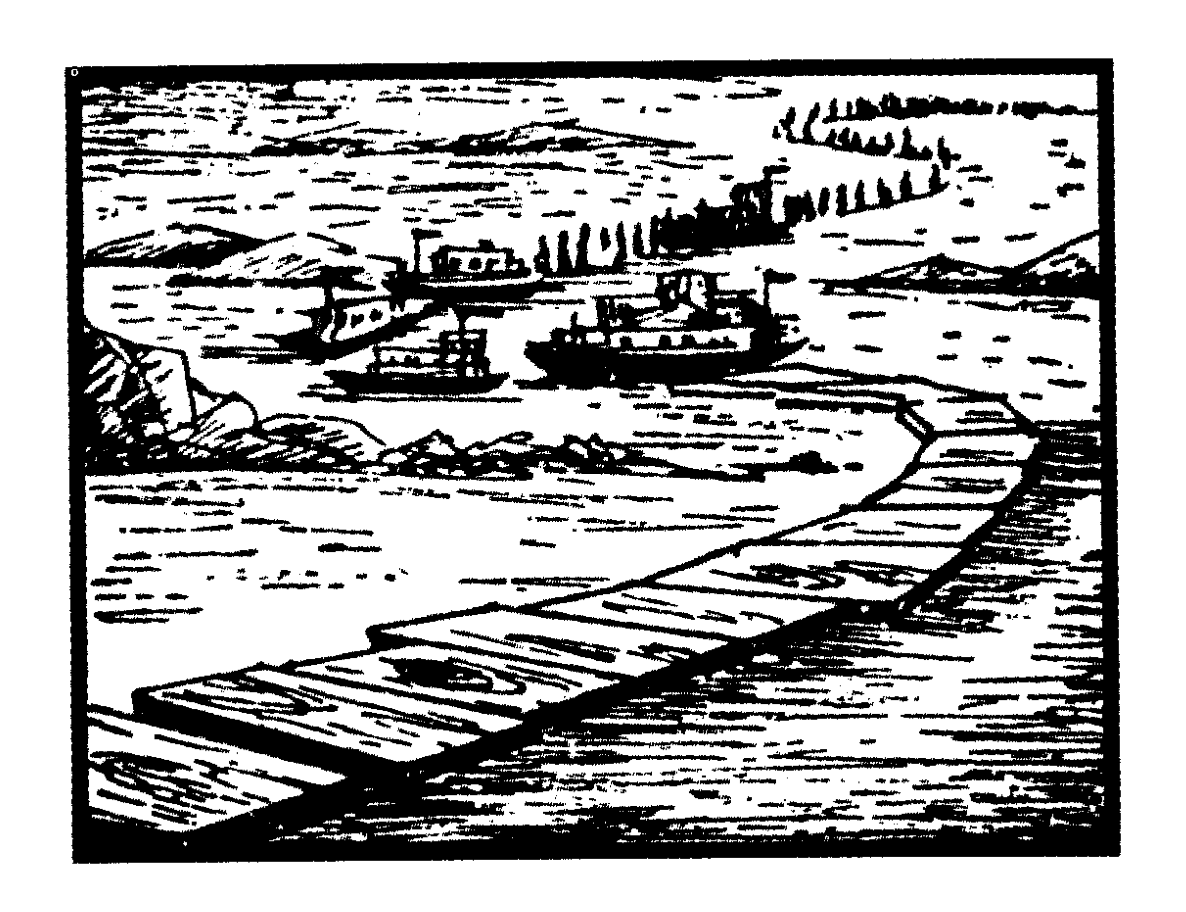
(١) الجَلِيْدُ: المياه المتجمِّدة بتأثير البرودة .
(٢) زَاحَمَ يُزَاحِمُ مُزَاحمةً: الشيءُ: دَفَعَه في مكانٍ ضيِّق .
(٣) شلاَّل جمع شَلاَّلاَت: انحدار فجائي في مجرى النهر .
(٤) الطَّل: المطر الخفيف يكون له أثر قليل .
(٥) النَّدى: قطرات ماء كالمطر تُرى عند الصباح على النبات وغيره .

وَقَدَ أَجْمُـدُ بِالصِّنَاعَةِ فِي الْمَصَانِعِ ، وَيَحْرِصُ عَلَيَّ النَّاسُ أَيَّامَ الصَّيْفِ ، فَلَا يَشْرَبُوْنَ الْمَاءَ بِغَيْرِ هٰذَا الْجَمَدِ ، وَلَا يَـرْوَوْنَ إِلَّا بِـهِ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِي.

* * *

(٥٦)

سَفِيْنَةٌ عَلَىٰ الْبَرِّ



هَلْ سَمِعْتَ بِسَفِيْنَةٍ تَسِيْرُ عَلَىٰ الْبَرِّ؟ وَهَلْ تُصَدِّقُ إِذَا أَخْبَرَكَ بِهِ أَحَدٌ؟!

أَظُنَّكَ تَقُوْلُ - وَلَكَ الْحَقُّ -: مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِيْ آبَائِنَا

الأَوَّلِيْنَ. وَلٰكِنَّ مُحَمَّداً الثَّانِي الْعُثْمَانِيَّ فَاتِحَ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ ، سَيَّرَ سَبْعِيْنَ سَفِيْنَةً عَلَىٰ الْبَرِّ.

هَلْ تَعْرِفُ كَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

غَزَا الْعَرَبُ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةَ الْعُظْمَىٰ سِتَّ مَرَّاتٍ ، وَلَمْ يَفْتَحُوْهَا ، وَقَدْ قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُوْنَ هٰذَا الْفَتْحُ الْعَظِيْمُ بِيَدِ شَابٍّ مُسْلِمٍ مِنْ آلِ عُثْمَانَ ، وَهُوَ فِي الرَّابِعَةِ وَالْعِشْرِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ.

زَحَفَ مُحَمَّدٌ إِلَىٰ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ ، وَأَعَدَّ لِذٰلِكَ عُدَّةً عَظِيْمَةً ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ .

فَكَانَ تَحْتَ قِيَادَتِهِ ثَلاَثُمِئَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ ، وَمَعَهُ مِدْفَعِيَّةٌ هَائِلَةٌ ، فِيْهَا مِدْفَعٌ لا يُوْجَدُ فِيْ أَوْرُبَّا أَضْخَمُ[1] مِنْهُ ، أَعَدَّهُ لِذٰلِكَ ، مَرْمَاهُ[2] أَكْثَرُ مِنْ مِيْلٍ.

وَكَانَ أُسْطُوْلُهُ[3] مُرَكَّباً مِنْ مِئَةِ سَفِيْنَةٍ حَرْبِيَّةٍ.

---

(١) أَضْخَمُ منه: أَعْظَمُ منه.

(٢) مَرْمَى جمع مَرامٍ: مَا تُرمىٰ إليه السهام ونحوها.

(٣) أُسْطُول جمع أَسَاطِيل: مجموعة من السُّفُنِ تُعدُّ للحرب أو للنقل التجاري.

وَكَانَ مُحَمَّدٌ رَأَىٰ أَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ سَلْسَلَ[1] خَلِيْجَ قَرْنِ الذَّهَبِ ـ وَهُوَ مَدْخَلُ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ ـ بِالسَّلَاسِلِ ، فَكَيْفَ يَعْبُرُهُ بِأُسْطُوْلِهِ؟

فَكَّرَ مُحَمَّدٌ ، وَلَمْ يَعْجَزْ وَلَمْ يَيْأَسْ ، وَوَجَدَ حِيْلَةً!

رَأَىٰ أَنَّهُ يُمْكِنُ الْعُبُوْرُ إِلَىٰ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ مِنْ جِهَةِ قَاسم بَاشَا .

وَلٰكِنَّ هٰذِهِ الْجِهَةَ بَعِيْدَةٌ مِنْ سُفُنِهِ ، فَمَنْ يَحْمِلُهَا وَمَنْ يَنْقُلُهَا مِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ إِلَىٰ تِلْكَ الْجِهَةِ ، وَالْمَسَافَةُ بَعِيْدَةٌ؟

فَكَّرَ مُحَمَّدٌ ، وَلَمْ يَعْجَزْ وَلَمْ يَيْأَسْ وَوَجَدَ حِيْلَةً!

طَلَىٰ[2] الأَخْشَابَ بِالشَّحْمِ ، فَلَمَّا أَمْلَسَتْ[3] أَزْلَقَ[4] عَلَيْهَا السُّفُنَ ، وَهِيَ سَبْعُوْنَ سَفِيْنَةً .

وَمَا رَاعَ[5] أَهْلُ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ ، إِلاَّ وَسُفُنُ الْمُسْلِمِيْنَ قَدْ أَرْسَتْ[6] عَلَىٰ سَاحِلِ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ ، وَسُقِطَ فِيْ أَيْدِيْهِمْ[7] .

---

(١) سَلْسَلَ يُسَلْسِلُ : الأشياءَ : وَصَلَ بَعْضَها ببعْضٍ كَأنها سِلْسلة .
(٢) طَلَى يَطْلِي طَلْياً : دَهَنَ .
(٣) أَمْلَسَ يُمْلِسُ إمْلاساً : لاَنَ ونَعِمَ .
(٤) أَزْلَقَ يُزْلِقُ إزْلاقاً عليه السفنَ : دَفعَها ودَحْرَجَها .
(٥) مَا رَاعَ : ما أفْزَعَ . والرَّوْع : الفَزَع والخوف .
(٦) أرْسَى يُرْسِي إرْسَاءً : تَوَقف (توقفت السفن عند الشاطىء) .
(٧) سُقِطَ في أيْدِيْهم : تَحَيَّروا .

وَهٰكَذَا أَخَذَ مُحَمَّدٌ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةَ ـ عَاصِمَةَ الدَّوْلَةِ الْبِيْزَنْطِيَّةِ ـ وَسَقَطَتْ عَاصِمَةُ النَّصْرَانِيَّةِ الْمَنِيْعَةُ أَمَامَ قَائِدٍ مُسْلِم شَابٍّ .

وَلَا تَزَالُ هٰذِهِ الْمَدِيْنَةُ الْعَظِيْمَةُ ، وَتُرْكِيَّا ، فِيْ يَدِ الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ سَنَةِ ٨٥٣ هـ ـ يَوْمَ فَتَحَهَا مُحَمَّدُ بْنُ مُرَادٍ ـ إِلَىٰ يَوْمِ النَّاسِ هٰذَا .

و﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ ﴾ .

* * *

(٥٧)

الْخَلِيْفَـةُ عُمَرُ بْـنُ عَبْدِ الْعَـزِيْـزِ

رحمة الله عليه

(١)

وُلِدَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ سَنَةَ ٦١ هـ. وَأُمُّهُ أُمُّ عَاصِمٍ بِنْتُ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، جَمَعَ الْقُرْآنَ ، وَهُوَ صَغِيْرٌ ، وَبَعَثَهُ أَبُوْهُ إِلَىٰ الْمَدِيْنَةِ يَتَأَدَّبُ بِهَا ، وَكَانَ يَأْتِيْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ كَثِيْراً ، لِمَكَانِ أُمِّهِ مِنْهُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ أُمِّهِ ، فَيَقُوْلُ: يَا أُمَّهْ! أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ مِثْلَ خَالِيْ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ فِيْ شَبَابِهِ مُتَنَعِّمَاً ، يُكْثِرُ مِنَ الطِّيْبِ ، حَتَّىٰ تُوْجَدَ رَائِحَتُهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِيْ يَمُرُّ بِهِ ، وَيَمْشِيْ مِشْيَـةً تُسَمَّىٰ «الْعُمَرِيَّةَ» كَانَ الْجَوَارِيْ يَتَعَلَّمْنَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، وَلَمْ يَـزَلْ عَلَىٰ هٰذَا التَّنَعُّمِ ، حَتَّىٰ وَلِيَ الْخِلاَفَةَ ، فَـزَهِدَ فِي الدُّنْـيَـا وَرَفَضَهَا.

وَكَانَ فِيْ شَبَابِهِ ، وَوِلاَيَتِهِ لِلْمَدِيْنَةِ ، كَثِيْرَ التَّعْظِيْمِ لِلْعُلَمَاءِ ، شَدِيْدَ الإِعْظَامِ لِمَسْجِدِ الرَّسُوْلِ ﷺ ، خَاشِعاً مُتَدَيِّناً .

وَعَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ بِالْخِلاَفَةِ وَعُمَرُ لاَ يَعْلَمُ ، فَلَمَّا عَلِمَ فَزِعَ .

وَقَالَ : وَاللهِ إِنَّ هٰذَا الأَمْرَ مَا سَأَلْتُ اللهَ قَطُّ .

وَقَدَّمَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْمَرَاكِبِ مَرْكَبَ الْخَلِيْفَةِ فَأَبَىٰ وَقَالَ : ايْتُوْنِي بِبَغْلَتِيْ ، وَرَدَّ الْمَرَاكِبَ ، وَالسُّرَادِقَاتِ[1] وَالْفُرُشَ ، وَالأَدْهَانَ ، وَالثِّيَابَ الْخَاصَّةَ بِالْخَلِيْفَةِ ، إِلَىٰ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِيْنَ .

وَجَلَسَ لِلنَّاسِ بَعْدَ ثَلاَثٍ ، وَحَمَلَهُمْ عَلَىٰ الشَّرِيْعَةِ ، وَرَدَّ الْمَظَالِمَ ، وَأَحْيَا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ، وَسَارَ بِالْعَدْلِ ، وَرَفَضَ الدُّنْيا ، وَزَهِدَ فِيْهَا ، وَنَهَىٰ عَنِ الْقِيَامِ ، وَابْتَدَأَ بِالسَّلاَمِ ، وَتَرَكَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ ، وَتَرَكَ أَنْ يُخْدَمَ .

كَانَ عِنْدَهُ قَوْمٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَامَ إِلَىٰ السِّرَاجِ ، فَأَصْلَحَهُ ، فَقِيْلَ لَهُ : يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ نَكْفِيْكَ ، قَالَ : وَمَا ضَرَّنِيْ؟ قُمْتُ وَأَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ ، وَرَجَعْتُ وَأَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ .

---

(١) سُرَادِق جمع سُرَادِقات : خَيْمَة يجتمع فيها الناس لعُرْسٍ ومأتم أو غيرهما .

وَأُتِيَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْفَيْءِ[1] بِعَنْبَرَةٍ[2]، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَمَسَحَهَا ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُفِعَتْ حَتَّىٰ تُبَاعَ ، ثُمَّ أَمَرَّ يَدَهُ عَلَىٰ أَنْفِهِ ، فَوَجَدَ رِيْحَهَا ، فَدَعَا بِوَضُوْءٍ فَتَوَضَّأَ .

وَكَانَ لَهُ غُلاَمٌ يَأْتِيْهِ بِقُمْقُمٍ[3] مِنْ مَاءٍ مُسَخَّنٍ يَتَوَضَّأُ مِنْهُ ، فَقَالَ لِلْغُلاَمِ يَوْمَاً: أَتُسَخِّنُ الْمَاءَ فِي مَطْبَخِ الْمُسْلِمِيْنَ؟ قَالَ: نَعَمْ! قَالَ: أَفْسَدْتَهُ عَلَيْنَا ، ثُمَّ حَاسَبَ تِلْكَ الأَيَّامَ ، وَأَدْخَلَ الْحَطَبَ فِي الْمَطْبَخِ ، وَأَبْطَأَ يَوْماً عَنِ الْجُمُعَةِ قَلِيْلاً فَعُوْتِبَ فِيْ ذٰلِكَ فَقَالَ: إِنَّمَا انْتَظَرْتُ قَمِيْصِيْ غَسَلْتُهُ أَنْ يَجِفَّ .

قَالَ أَزْهَرُ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيْزِ يَخْطُبُ النَّاسَ وَعَلَيْهِ قَمِيْصٌ مَرْقُوْعٌ .

* * *

(١) فَيْءٌ جمع أفْيَاء: خَرَاج ، غَنِيمة .

(٢) عَنْبَرَة: مادة صُلْبَة لاَ طَعْمَ لها ولا رائحة ، تُصبح نوعاً من الطّيب إذا سُحِقَتْ أو أُحْرِقَتْ .

(٣) قُمْقُمٌ جـ قَمَاقِم: إناء صغير من نُحاسٍ أو فِضَّةٍ .

(٥٨)

الْخَلِيْفَـةُ عُمَـرُ بْـنُ عَبْدِ الْعَـزِيْـزِ

(٢)

وَلَمْ يُحْدِثْ عُمَرُ مُنْذُ وَلِيَ دَابَّـةً[١] وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ جَارِيَةً حَتَّىٰ لَحِقَ بِاللهِ ، وَلَمْ يُرَ ضَاحِكاً مُنْذُ وَلِيَ الْخِلاَفَةَ حَتَّىٰ لَقِيَ اللهَ.

وَأَتَتْهُ سَلَّتَا رُطَبٍ مِنَ الأُرْدُنِّ ، فَقَالَ : ما هَذا ؟ قَالُوا : رُطَبٌ مِن الأُرْدُنِّ ، قَالَ : عَلاَمَ جِيْءَ بِهِ؟ قَالُوْا : عَلَىٰ دَوَابِّ الْبَرِيْدِ. قَالَ : فَمَا جَعَلَنِيَ اللهُ أَحَقَّ بِدَوَابِّ الْبَرِيْدِ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ، أَخْرِجُوْهُمَا فَبِيْعُوْهُمَا ، وَاجْعَلُوْا ثَمَنَهُمَا فِي عَلَفِ دَوَابِّ الْبَرِيْدِ ، وَاشْتَرَاهُمَا فِي السُّوْقِ ابْنُ أَخِيْهِ وَأَهْدَىٰ إِحْدَاهُمَا إِليهِ ، فَأَكَلَ وَقَالَ : الآنَ طَابَ أَكْلُهُ.

وَدَخَـلَ عَلَـىٰ بَنَـاتِـهِ ذَاتَ لَيْلَـةٍ ، فَـوَضَعْـنَ أَيْـدِيَهُـنَّ عَلَـىٰ

---

(١) دَابَّة جمع دَوَابّ : مَا يُرْكَبُ من الحيوان كالفرس والبغل.

أَفْوَاهِهِنَّ ، فَقَالَ لِلْحَاضِنَةِ[1] : مَا شَأْنُهُنَّ؟ قَالَتْ : لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ شَيْءٌ يَتَعَشَّيْنَهُ إِلاَّ عَدَسٌ وَبَصَلٌ ، فَكَرِهْنَ أَنْ تَشُمَّ ذٰلِكَ مِنْ أَفْوَاهِهِنَّ ، فَبَكَىٰ عُمَرُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُنَّ : يَا بَنَاتِيْ مَا يَنْفَعُكُنَّ أَنْ تَعَشَّيْنَ الأَلْوَانَ وَيُمَرُّ بِأَبِيْكُنَّ إِلَىٰ النَّارِ ، فَبَكَيْنَ حَتَّىٰ عَلَتْ أَصْوَاتُهُنَّ ، وَوَضَعَ عُمَرُ حَلْيَ زَوْجَتِهِ فِيْ بَيْتِ الْمَالِ ، وَأَرْجَعَ مَزَارِعَهُ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِيْ عَهْدِ الرَّسُوْلِ ﷺ.

وَإِذَا كَانَ فِي حَوَائِجِ الْعَامَّةِ كَتَبَ عَلَىٰ الشَّمْعِ ، وَإِذَا صَارَ إِلَىٰ حَاجَةِ نَفْسِهِ دَعَا بِسِرَاجِهِ.

وَقَدْ أَغْنَىٰ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ النَّاسَ ، حَتَّىٰ لَمْ يُوْجَدْ فَقِيْرٌ فِيْ بِلاَدِ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَلَمْ يُوْجَدْ أَحَدٌ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ.

وَكَانَ لاَ يُؤَخِّرُ عَمَلَ الْيَوْمِ لِلْغَدِّ ، وَلاَ يَعْجَزُ ، قَالَ بَعْضُ إِخْوَتِهِ : يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ! لَوْ رَكِبْتَ فَتَرَوَّحْتَ ، قَالَ : فَمَنْ يَقْضِيْ شُغْلَ ذٰلِكَ الْيَوْمَ؟ قَالَ : تَقْضِيْهِ مِنَ الْغَدِ ، قَالَ : لَقَدْ ثَقُلَ عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ؟

مَاتَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ سَنَةَ ١٠١ هـ.

* * *

(١) حَاضِنَة جمع حَوَاضِن : المرأة الَّتي تقوم على تربية الصغير.

(٥٩)

فِيْ بَـيْتِ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْـصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ

قَالَ سَيِّدُنَا أَبُوْ أَيُّوْبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«لَمَّا نَـزَلَ عَلَيَّ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ بَيْتِيْ نَـزَلَ فِي السُّفْلِ[١] ، وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ فِي الْعُلُوِّ ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ! إِنِّيْ لأَكْـرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكُوْنَ فَوْقَكَ وَتَـكُوْنَ تَحْتِيْ ، فَاظْهَرْ أَنْتَ فَكُنْ فِي الْعُلُوِّ ، وَنَنْزِلُ نَحْنُ فَنَـكُوْنَ فِي السُّفْلِ ، فَقَالَ: يَا أَبَا أَيُّوْبَ! إِنَّ أَرْفَقَ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا أَنْ نَكُوْنَ فِي سُفْلِ الْبَيْتِ .

قَالَ: فَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ سُفْلِهِ وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ ، فَلَقَدِ انْكَسَرَ حُبٌّ لَـنَـا فِيْهِ مَاءٌ ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ بِقَطِيْفَةٍ[٢]

---

(١) السُّفْل: تَحْت.

(٢) قَطِيْفَة: نَسِيْج من الحرير أو القُطن.

لَنَا ، مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرُهَا ، نُنَشِّفُ[1] بِهَا الْمَاءَ تَخَوُّفاً أَنْ يَقْطُرَ عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيْهِ .

قَالَ : وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ الْعَشَاءَ ، ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِ ، فَإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلَهُ تَيَمَّمْتُ[2] أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ مَوْضِعَ يَدِهِ فَأَكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِي بِذٰلِكَ الْبَرَكَةَ ، حَتَّىٰ بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بِعَشَائِهِ ، وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ فِيْهِ بَصَلاً أَوْ ثُوْماً ، فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، وَلَمْ أَرَ لِيَدِهِ فِيْهِ أَثَراً ، قَالَ : فَجِئْتُهُ فَزِعاً ، فَقُلْتُ : يَا رَسُوْلَ اللهِ! بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ! رَدَدْتَ عَشَاءَكَ ، وَلَمْ أَرَ فِيْهِ مَوْضِعَ يَدِكَ ، وَكُنْتَ إِذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ مَوْضِعَ يَدِكَ ، نَبْتَغِيْ بِذٰلِكَ الْبَرَكَةَ .

قَالَ : إِنِّيْ وَجَدْتُّ فِيْهِ رِيْحَ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَأَنَا رَجُلٌ أُنَاجِيْ ، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوْهُ .

قَالَ : فَأَكَلْنَاهُ ، وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدُ .

(سِيْرَةُ ابْنِ هِشَامٍ)

❋ ❋ ❋

---

(١) نَشَّفَ يُنَشِّفُ تَنْشِيفاً : جَفَّفَ .

(٢) تَيَمَّمَ يَتَيَمَّمُ : الشيء : تَوَخَّاه وتَعَمَّده .

(٦٠)

الإِمَـامُ مَالِكُ بْـنُ أَنَـسٍ

وُلِدَ الإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِيْنَ فِي الْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وَسَمِعَ الزُّهْرِيَّ[1] وَنَافِعاً مَوْلَىٰ ابْنِ عُمَرَ[2] ، وَأَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ رَبِيْعَةَ الرَّأْيِ[3] ، وَقَالَ: قَلَّ رَجُلٌ كُنْتُ أَتَعَلَّمُ مِنْهُ مَا مَاتَ حَتَّىٰ يجِيْئَنِي وَيَسْتَفْتِيْنِي[4].

وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ عَظِيْمٌ فِي الْعِلْمِ يَرْحَلُ النَّاسُ إِلَيْهِ مِنَ الآفَاقِ ،

---

(١) هو ابن شهاب محمد الزهري. تابعيّ من أهل المدينة. أول من دوّن الحديث. نزل الشام واستقرَّ بها ، توفي سنة ١٢٤ هـ.

(٢) هو نافع بن عمر القرشي الجمحي المكي. حافظ للحديث ، كان محدث مكة المكرمة في زمانه ، وتوفي فيها سنة ١٦٩ هـ.

(٣) كان إماماً ، حافظاً ، فقيهاً ، مجتهداً ، بصيراً بالرأي ، وكان صاحب الفتاوى بالمدينة المنورة وعليه تفقه الإمام مالك ، توفي سنة ١٣٦ هـ.

(٤) اسْتَفْتَىٰ يَسْتَفْتِي اسْتِفْتَاءً: الرجلُ العالمَ في مَسْأَلةٍ: سَأَلَه رأيَه فيها.

وَيَزْدَحِمُوْنَ[1] عَلَىٰ بَابِهِ لأَخْذِ الْحَدِيْثِ وَالْفِقْهِ كَازْدِحَامِهِمْ عَلَىٰ بَابِ السُّلْطَانِ ، وَكَانَ النَّاسُ يَفْتَخِرُوْنَ بِالرِّوَايَةِ عَنْهُ ، وَكَانَ ذٰلِكَ شَرَفاً كَبِيْراً فِيْ عَصْرِهِ ، فَإِذَا قَالَ أَحَدٌ : حَدَّثَنِيْ مَالِكٌ ، رَفَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ .

وَكَانَ إِلَيْهِ الْمُنْتَهَىٰ فِي الْفِقْهِ وَالْفَتْوَىٰ . قَالَ ابْنُ وَهبٍ : سَمِعْتُ مُنَادِياً يُنَادِيْ بِالْمَدِيْنَةِ : أَلاَ لاَ يُفْتِي النَّاسَ إِلاَّ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، وَابْنُ أَبِيْ ذِئْبٍ ، وَمِنَ الأَمْثَالِ السَّائِرَةِ : لاَ يُفْتَىٰ وَمَالِكٌ فِي الْمَدِيْنَةِ .

وَكَانَ كَثِيْرَ الأَدَبِ ، شَدِيْدَ التَّعْظِيْمِ لِحَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ[2] وَلَبِسَ ثِيَاباً جُدَداً ، وَتَعَمَّمَ[3] وَقَعَدَ بِخُشُوْعٍ وَخُضُوْعٍ وَوَقَارٍ ، وَتَبَخَّرَ[4] بِالْعُوْدِ مِنْ أَوَّلِهِ فَلاَ يَزَالُ يَتَبَخَّرُ إِلَىٰ فَرَاغِهِ ، وَقِيْلَ لَهُ فِيْ ذٰلِكَ ، فَقَالَ : أُحِبُّ أَنْ أُعَظِّمَ حَدِيْثَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، وَلاَ أُحَدِّثَ بِهِ إِلاَّ مُتَمَكِّناً عَلَىٰ طَهَارَةٍ ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُحَدِّثَ عَلَىٰ الطَّرِيْقِ ، أَوْ

---

(١) ازْدَحَمَ يَزْدَحِمُ ازْدِحَاماً : الناسُ : تَضَايَقوا وتَدافَعوا بالمناكب .
(٢) تَطَيَّبَ يَتَطَيَّبُ تَطَيُّباً : الرجلُ : وضع على نفسه الطِّيب .
(٣) تَعَمَّمَ يَتَعَمَّمُ تَعَمُّماً : لَبِسَ العمامة .
(٤) تَبَخَّرَ يَتَبَخَّرُ تَبَخُّراً : الرجلُ بالعود أو البَخُور : تَطَيَّبَ .

مُسْتَعْجِلاً ، وَيَقُوْلُ: أُحِبُّ أَنْ أَتفَهَّمَ مَا أُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ: كُنْتُ عِنْدَ مَالِكٍ ، وَهُوَ يُحَدِّثُنَا ، فَلَدَغَتْهُ عَقْرَبٌ ستَّ عَشَرَةَ مَرَّةً ، وَمَالِكٌ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ ، وَلاَ يَقْطَعُ الْحَدِيْثَ ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ قَالَ: إِنَّمَا صَبَرْتُ إِجْلاَلاً لِلْحَدِيْثِ.

وَكَانَ لاَ يَرْكَبُ فِي الْمَدِيْنَةِ عَلَىٰ ضُعْفِهِ وَكِبَرِ سِنِّهِ ، وَيَقُوْلُ: لاَ أَرْكَبُ فِيْ مَدِيْنَةٍ فِيْهَا جُثَّةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مَدْفُوْنَةٌ.

وَكَانَ مَجْلِسُهُ مَجْلِسَ وَقَارٍ وَحِلْمٍ ، وَكَانَ رَجُلاً مَهِيْباً نَبِيْلاً ، لَيْسَ فِيْ مَجْلِسِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمِرَاءِ[1] وَاللَّغَطِ[2] ، وَلاَ رَفْعُ صَوْتٍ ، وَكَانَ الْغُرَبَاءُ يَسْأَلُوْنَهُ عَنِ الْحَدِيْثِ فَلاَ يُجِيْبُ إِلاَّ فِي الْحَدِيْثِ بَعْدَ الْحَدِيْثِ.

سَأَلَ هَارُوْنُ الرَّشِيْدُ مَالِكاً أَنْ يَأْتِيْ فَأَبَىٰ ، فَأَتَىٰ هَارُوْنُ مَالِكاً ، وَهُوَ فِيْ مَنْزِلِهِ ، وَمَعَهُ بَنُوْهُ ، وَسَأَلَ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِم ، فَقَالَ: مَا قَرَأْتُ عَلَىٰ أَحَدٍ مُنْذُ زَمَانٍ ، وَإِنَّمَا يُقْرَأُ عَلَيَّ ، فَقَالَ هارون: أَخْرِجِ النَّاسَ حَتَّىٰ أَقْرَأَ أنا عليكَ ، فقال: إِذَا مُنِعَ الْعَامُّ لِبَعْضِ الْخَاصِّ لَمْ يَنْتَفِعِ الْخَاصُّ.

---

(١) المِرَاءُ: التَّكلُّفُ.

(٢) اللَّغَطُ جمع الأَلْغَاط: الصوت والجلبة.

وَدَخَلَ مَالِكٌ عَلَىٰ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ مَنْصُوْرٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ ، إِذْ جَاءَ صَبِيٌّ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ ، فَقَالَ لِيْ : أَتَدْرِيْ مَنْ هٰذَا؟ فَقُلْتُ : لَا! قَالَ : ابْنِيْ ، وَإِنَّمَا يَفْزَعُ مِنْ هَيْبَتِكَ .

وَفِـيْ سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَمِئَـةٍ ضُرِبَ مَالِكٌ سَبْعِيْنَ سُوْطاً لأَجْلِ فَـتْوىً لَمْ تُـوَافِقْ غَرَضَ السُّلْطَانِ ، فَغَضِبَ وَدَعَا بِهِ ، وَجَرَّدَهُ[1] وَضَرَبَهُ بِالسِّيَاطِ ، وَمُدَّتْ يَدُهُ حَتَّىٰ انْخَلَعَتْ كَتِفُهُ ، فَلَمْ يَزَلْ بَعْدَ ذٰلِكَ الضَّرْبِ فِيْ عُلُوٍّ وَرِفْعَةٍ ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تِلْكَ السِّيَاطُ[2] حَلْياً حُلِّيَ بِهِ .

وَكِتَابُهُ الْمُوطَّأُ مِنْ أَشْهَرِ كُتُبِ الْحَدِيْثِ ، وَمِنَ الْكُتُبِ الْمَقْبُوْلَةِ فِي الإِسْلَامِ ، رَزَقَكَ اللهُ قِرَاءَتَهُ ، وَالانْتِفَاعَ بِهِ ، وَسَيَكُوْنُ ذٰلِكَ (إِنْ شَاءَ اللهُ) فِيْ بِضْعِ سِنِيْنَ إِذا تَقَدَّمْتَ فِي الْعِلْمِ .

تُوُفِّيَ مَالِكٌ سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِيْنَ وَمِئَـةٍ .

* * *

---

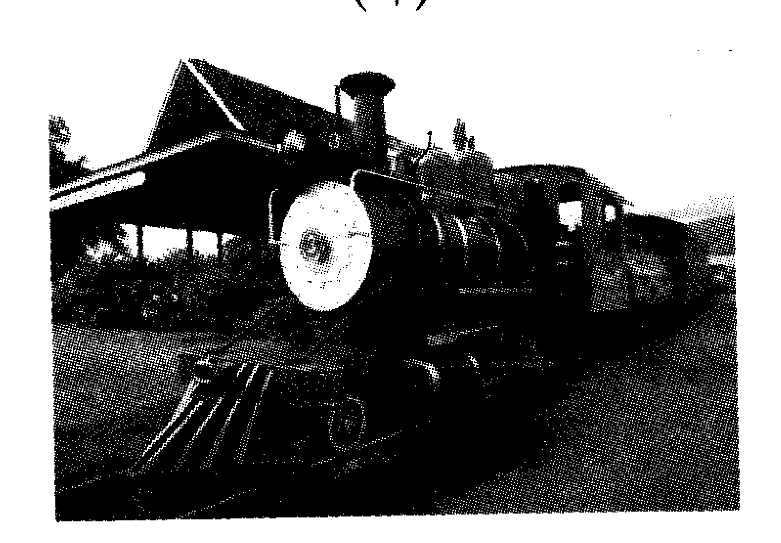
(١) جَرَّدَ يُجَرِّدُ تَجْرِيْداً : الرجلُ الفلانَ : عَـرَّاه .

(٢) سَوْطٌ جمع سِيَاط : أداة من الجلد يضرب بها الإنسان أو الحيوان .

(٦١)

الْـقَـاطِــــرَةُ

(١)



ذَهَـبَ رَشِيْـدٌ مَـعَ أَبِيْـهِ سَعِيْـدٍ إِلَـىٰ الْمَحَطَّـةِ يَسْتَقْبِـلُ أَخَـاهُ مَحْمُوْداً ، وَكَانَ قَادِماً مِنْ دِيُوْبَنْد[1] فِيْ مُسَامَحَةِ عِيْدِ الأَضْحَىٰ.

وَكَانَ الْقِطَارُ مُتَأَخِّراً ، فَأَخَذَ سَعِيْدٌ يَتَجَوَّلُ عَلَىٰ الْمَحَطَّةِ

---

(١) ديوبند: قرية من القرى التابعة لمدينة سهارنفور الواقعة في ولاية أترابرديش في الهند.

يُحَـدِّثُ رَشِيْـداً عَنِ الْقِطَارِ وَنِظَـامِ الْمَحَطَّـةِ ، وَانْتَـقَلَ مَعَهُ إِلَىٰ رَصِيْفٍ آخَرَ.

وَكَانَ قِطَارٌ وَاقِفاً هُنَا تَصْفِرُ[1] قَاطِرَتُهُ[2] ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا بُخَارٌ كَثِيْفٌ[3] مُتَصَاعِدٌ.

قَالَ رَشِيْدٌ: حَدِّثْنِي الْيَوْمَ يَا أَبِيْ! عَنِ الْقَاطِرَةِ كَيْفَ تَجُرُّ الْقِطَارَ ، وَكَيْفِ تُسْرِعُ فِي السَّيْرِ؟

قَالَ سَعِيْدٌ: لَقَدْ سَأَلْتَ بِهِ خَبِيْراً فَقَدْ كُنْتُ مُوظَّفاً فِي الْقِطَارِ ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْهَا فِيْ تَفْصِيْلٍ ، فَقُمْ بِجَانِبِيْ أَمَامَ هٰذِهِ الْقَاطِرَةِ وَلَاحِظْهَا.

أُنْظُرْ يَا رَشِيْدُ! إِلَىٰ الْقَاطِرَةِ تَرَهَا صُنِعَتْ مِنَ الْحَدِيْدِ ، وَلَهَا سِتُّ عَجَلَاتٍ تَسِيْرُ عَلَيْهَا وَهِيَ قَوِيَّةٌ جِدّاً كَأَنَّهَا عِفْرِيْتٌ مِنَ الْجِنِّ ، تَجُرُّ قِطَارَ البِضَاعةِ ، وَهُوَ طَوِيْلٌ وَثَقِيْلٌ جِدّاً ، وتَجُرُّ قِطَارَ الرُّكَّابِ وَفِيْهِ النَّاسُ وَأَثْقَالُهُمْ ، وَتَجُرُّ الْقِطَارَ السَّبَّاقَ ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْقُطُرِ يَقْطَعُ خَمْسَةً وَأَرْبَعِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ.

---

(١) صَفَرَ يَصْفِرُ صَفِيراً: صَوَّت بصوت عالٍ.
(٢) قَاطِرَة جمع قَاطِرَات: آلة بخارية أو كهربائية تجرُّ عَرَبَاتٍ على سكك الحديد.
(٣) كَثِيْفٌ: غَلِيْظ.

وَالْقِطَارُ السَّرِيْعُ يَقْطَعُ نَحْوَ أَرْبَعِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ ، وَالْقِطَارُ الْوَقَّافُ يَقْطَعُ نَحْوَ ثَلاَثِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ ، تَجُرُّ الْقِطَارَ مِنْ أَقْصَىٰ الْهِنْدِ إِلَىٰ أَقْصَاهَا ، مَثَلاً مِنْ بَمْبَيْءَ[1] إِلَىٰ بِشَاوَرَ[2] ، وَمِنْ دِهْلِيْ[3] إِلَىٰ مَدْرَاسَ[4] .

وَقُوَّةُ هٰذِهِ الْقَاطِرَةِ إِنَّمَا هِيَ الْبُخَارُ الْحَقِيْرُ الَّذِيْ لَا تَعْبَأُ[5] بِهِ ، وَلَا تُحَاسِبُ لَهُ حِسَاباً ، وَقَدِ اهْتَدَىٰ «استيفنسن» مُخْتَرِعُ الْقِطَارِ إِلَىٰ قُوَّةِ هٰذَا الْبُخَارِ ، وَاهْتَدَىٰ إِلَىٰ تَسْخِيْرِهِ وَالانْتِفَاعِ بِهِ فِي الأَغْرَاضِ ، وَعَلِمَ بِعَقْلِهِ وِدِرَاسَتِهِ أَنَّهُ بِقُوَّتِهِ يَحْمِلُ الأَثْقَالَ ، وَيَنْقُلُ الْجِبَالَ ، وَيَأْتِيْ بِالْعَجَائِبِ .

وَذٰلِكَ هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْجَاهِلِ وَالْعَالِمِ ، وَبَيْنَ الْعَامِيِّ وَالْمُكْتَشِفِ ، يَرَىٰ الأَوَّلُ كُلَّ شَيْءٍ فَلَا يَرْفَعُ بِهِ رَأْساً ، وَلَا يُلْقِيْ عَلَيْهِ بَالاً ، وَيَرَاهُ الثَّانِيْ فَيَعْرِفُ قِيْمَتَهُ وَيَجْتَهِدُ فِيْهِ ، حَتَّىٰ يُسَخِّرَهُ لِغَرَضِهِ .

* * *

---

(١) بَمْبَيء : من أكبر مدن الهند تقع في غربها .

(٢) بِشَاوَر : مدينة قديمة تقع في شمال باكستان .

(٣) دِهْلي : عاصمة الهند .

(٤) مَدْرَاس : مَرْفأ في جنوب شرقي الهند ، ومن أكبر مدنها .

(٥) لا تَعْبَأ به : لا تهتم به ولا تبالي .

(٦٢)

الْقَـاطِـــرَةُ

(٢)

انْظُرْ يَا رَشِيْدُ! إِلَىٰ هٰذَا الْمَوْقِدِ فِي الْقَاطِرَةِ ، يُلْقِيْ فِيْهِ الرَّجُلُ الْفَحْمَ الْحَجَرِيَّ ، وَفَوْقَ هٰذَا الْمَوْقِدِ حَوْضٌ مِنْ مَاءٍ مَتِيْنٌ جِدّاً وَفِيْهِ أَنَابِيْبُ عَدِيْدَةٌ يَسْخنُ هٰذَا الْمَاءُ بِالنَّارِ وَيَتَحَوَّلُ بُخَاراً ، وَيَنْتَقِلُ هٰذَا الْبُخَارُ إِلَىٰ الأَنَـابِيْبِ .

وَتَعَالَ مَعِيَ نَدْخُلْ فِي الْقَاطِرَةِ ، فَإِنَّ سَائِقَهَا مِنْ أَصْدِقَائِيْ ، وَهُنَا تَفْهَمُ تَرْكِيْبَ الْقَاطِرَةِ جَيِّداً .

انْظُرْ إِلَىٰ الأَنَابِيْبِ ، إِنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بِهٰذِهِ الآلاَتِ الدَّقِيْقَةِ الَّتِيْ تُدِيْرُ عَجَلاَتِ الْقَاطِرَةِ ، فَإِذَا اجْتَمَعَ هٰذَا الْبُخَارُ فِي الأَنَابِيْبِ دَفَعَ بِقُوَّتِهِ الآلاَتِ ، فَأَدَارَهَا وَبِدَوَرَانِهَا تَدُوْرُ الْعَجَلاَتُ ، وَتَسِيْرُ الْقَاطِرَةُ .

وَهٰـذَا هُـوَ الْـوَقَّـادُ الَّـذِيْ يُـرَاقِـبُ النَّـارَ وَالْمَـاءَ ، وَيُشْـرِفُ

عَلَيْهِمَا ، وَهٰذَا صَدِيْقُنَا السَّائِقُ ، وَإِذَا كَانَتِ الْقَاطِرَةُ تَجُرُّ الْقِطَارَ ، وَتُوْصِلُ الرُّكَّابَ مِنْ دِيَارٍ إِلَىٰ دِيَارٍ ، فَصَاحِبُنَا يَسُوْقُ الْقَاطِرَةَ ، فَهُوَ مِفْتَاحُ الْقِطَارِ ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِيْ سَيْرِ الْقِطَارِ وَهُوَ يَسْهَرُ عَلَىٰ عَمَلِهِ ، وَيَقُوْمُ بِوَاجِبِهِ بِأَمَانَةٍ وَجِدٍّ ، وَكَذٰلِكَ أَمِيْنُ الْقِطَارِ يَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ مِنَ الرُّكَّابِ ، فَإِنَّهُ يُلَاحِظُ الطَّرِيْقَ وَيَلْحَظُ وُقُوْفَ الْقِطَارِ وَسَيْرَهُ ، وَالسَّائِقُ وَالْقَاطِرَةُ طَوْعُ إِشَارَتِهِ ، فَإِذَا هَزَّ الْبَيْرَقَ[1] الأَحْمَرَ وَقَفَ الْقِطَارُ ، وَإِذَا هَزَّ الْبَيْرَقَ الأَخْضَرَ تَحَرَّكَ الْقِطَارُ .

وَانْظُرْ إِلَىٰ هٰذِهِ الآلَةِ الَّتِيْ فِيْ يَدِ السَّائِقِ هٰذِهِ . . . فَإِذَا رَفَعَهَا السَّائِقُ إِلَىٰ فَوْقُ ، انْدَفَعَ الْبُخَارُ وَسَارَتِ الْقَاطِرَةُ ، وَإِذَا ضَغَطَ[2] عَلَيْهَا سَكَنَ الْبُخَارُ وَهَدَأَتِ الْقَاطِرَةُ ، حِيْنَئِذٍ يَضْغَطُ السَّائِقُ عَلَىٰ آلَةٍ أُخْرَىٰ ، وَهِيَ هٰذِهِ وَتُسَمَّىٰ الْمِصَدَّ ، وَتَقِفُ الْقَاطِرَةُ مِنْ سَاعَتِهَا ، وَالْعَرَبَاتُ كُلُّهَا مُرَكَّبَةٌ بِالْقَاطِرَةِ تَسِيْرُ بِسَيْرِهَا ، وَتَقِفُ بِوُقُوْفِهَا .

وَهٰذَا هُوَ الْخَطُّ الْحَدِيْدِيُّ الَّذِي يَسِيْرُ عَلَيْهِ الْقِطَارُ ، وَلَوْلَا هُوَ لَغَاصَ الْقِطَارُ فِي الأَرْضِ ، لأَنَّ التُّرْبَةَ لَا تَحْمِلُ ثِقْلَ الْقِطَارِ .

---

(١) البَيْرَق : جمع البَيَارق : العَلَم الكبير .
(٢) ضَغَطَ يَضْغَطُ ضَغْطاً : عليه (عليها) شَدَّدَ وضَيَّقَ .

هٰذِهِ هِيَ الْقَاطِرَةُ الَّتِيْ تَجُرُّ الْقِطَارَ ، وَهٰذَا هُوَ الْقِطَارُ الَّذِيْ يُوْصِلُ الرُّكَّابَ مِنْ دِيَارٍ إِلَىٰ دِيَارٍ ، وَيَحْمِلُ أَثْقَالَ النَّاسِ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ يَكُوْنُوْا بَالغيْه إلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ[1] .

انْظُرْ يَا رَشِيْدُ! كَيْفَ أَلْهَمَ اللهُ الإِنْسَانَ الْحِكْمَةَ وَالصِّنَاعَةَ ، وَرَزَقَهُ الْعَقْلَ الَّذِيْ يُسَخِّرُ بِهِ الْحَدِيْدَ وَالْبُخَارَ ، أَفَلاَ يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَقُوْلَ إِذَا رَكِبْتَ الْقِطَارَ :

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ .

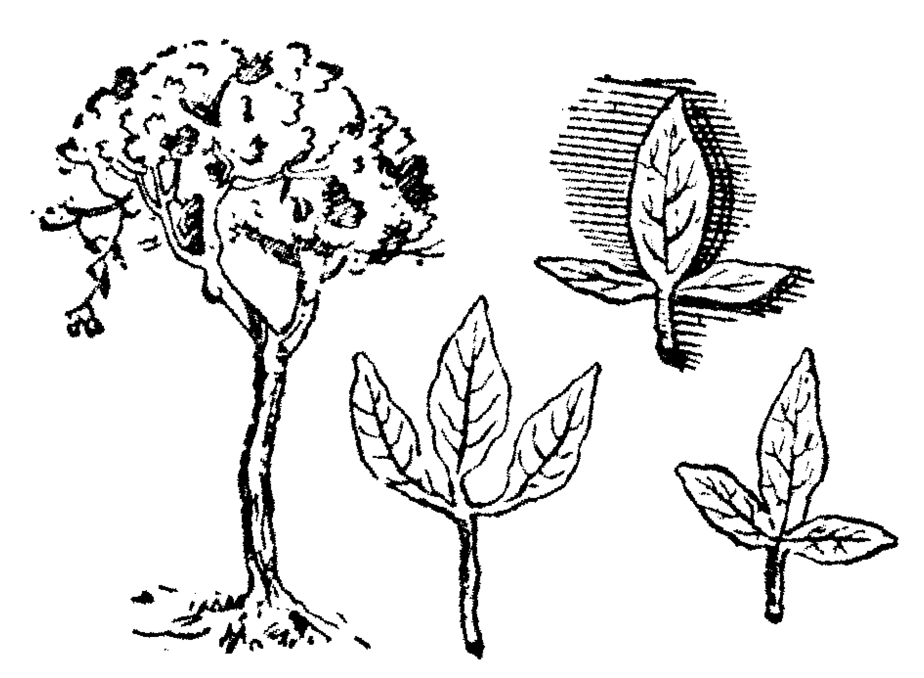
❊ ❊ ❊

(١) بِشِقِّ الأَنْفُسِ : بالجُهْدِ والمَشَقَّة .

(٦٣)

جِسْمُ النَّبَاتِ

(١)



كَانَ أَمَامَ بَيْتِ عَبَّاسٍ حَدِيْقَةٌ فِيْهَا أَنْوَاعُ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ ، قَالَ لَهُ أَبُوْهُ عُمَرُ مَرَّةً فِيْ يَوْمِ عُطْلَةٍ: هَلْ رَأَيْتَ يَا عَبَّاسُ! حَدِيْقَةَ الدَّارِ؟

قَالَ عَبَّاسٌ: كَيْفَ لاَ يَا أَبِيْ! وَهِيَ حَدِيْقَةُ دَارِنَا؟ أَلْعَبُ فِيْهَا

كُلَّ يَوْمٍ وَأَتَـرَدَّدُ[١] إِلَيْهَا صَبَاحَ مَسَاءَ .

قَالَ عُمَرُ : مَا أَظُنُّكَ رَأَيْتَهَا ! فَتَعَالَ مَعِيَ نَـتَـمَشَّ فِي الْحَدِيْقَةِ وَنَدْرُسُ النَّبَاتَ ، فَإِنَّهُ مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِ اللهِ ، وَكِتَابٌ يَجِبُ أَنْ تُطَالِعَهُ .

خَرَجَ عُمَرُ وَعَبَّاسٌ إِلَىٰ الْحَدِيْقَةِ ، فَرَأَىٰ عَبَّاسٌ الْبُسْتَانِيَّ يُصْلِحُ قِطْعَةً مِنَ الأَرْضِ ، وَيُنَحِّي[٢] الْحَجَرَ وَالْخَزَفَ ، وَيَقْلَعُ الْحَشَائِشَ وَالأَعْشَابَ ، فَسَأَلَ عَبَّاسٌ أَبَاهُ عَنْ ذٰلِكَ .

قَالَ عُمَرُ : الرَّجُلُ يُصْلِحُ الأَرْضَ وَيُهَيِّئُهَا[٣] لِغَرْسِ الأَشْجَارِ ، فَإِذَا بَقِيَتِ الأَحْجَارُ وَالْخَزَفُ لَمْ يَثْبُتِ الْفَسِيْلُ[٤] فِي الأَرْضِ ، وَلَـمْ تَمْتَـدَّ جُـذُوْرُهُ فِـيْ بَـاطِـنِ[٥] الأَرْضِ ، وَإِذَا تُـرِكَـتْ هٰـذِهِ الْحَشَائِشُ الشَّيْطَانِيَّةُ امْتَصَّتْ غِذَاءَ الْفَسِيْلِ وَذَوَى الْفَسِيْلُ ، وَالْبُسْتَانِيُّ النَّاصِحُ الْمُجْتَهِدُ يَحْرُثُ الأَرْضَ كَمَا يَحْرُثُ الْفَلَّاحُ الْحَقْلَ ، وَيُلْقِيْ فِيْهَا السَّمَادَ[٦] وَيَسْقِيْهَا كُلَّ يَوْمٍ ، حَتَّىٰ تُصْبِحَ

---

(١) تَـرَدَّدَ يَـتَرَدَّدُ : إلى المكان : اختلف إليه .
(٢) نَحَّىٰ يُنَحِّي تَنْحِيَة : الشيءَ : أَبْعَدَهُ وأَزَاله عن مكانه .
(٣) هَيَّـأَ يُهَيِّىءُ تَهْيِئَةً : الشيءَ : أعدَّه .
(٤) فَسِيْلَة جمع فَسِيْل وَفَسَائِل : غُصْن يُفْصَل للغرس .
(٥) بَاطِن الأرض : داخل الأرض .
(٦) السَّمَاد جمع الأَسْمِدة : مادة توضع في الأرض لإخصابها .

الأَرْضُ رِخْوَةٌ[1] كَرِيْمَةٌ ، تَقْبَلُ كُلَّ مَا يُلْقَى فِيْهَا .

ثُمَّ يَغْرِسُ الْفَسَائِلَ فِيْ مَكَانٍ تَصِلُ إِلَيْهِ الشَّمْسُ كُلَّ يَوْمٍ .

هُنَا قَاطَعَهُ عَبَّاسٌ وَقَالَ : وَهَلْ يَحْتَاجُ النَّبَاتُ أَيْضاً إِلَى الشَّمْسِ؟

قَالَ عُمَرُ : نَعَمْ! يَا عَبَّاسُ! فَالنَّبَاتُ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٍ يَحْتَاجُ إِلَى الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ وَالْمَاءِ .

وَاسْتَمَرَّ عُمَرُ فِيْ حَدِيْثِهِ «ثُمَّ يَغْرِسُ الْفَسَائِلَ فِيْ صَفٍّ وَيَتْرُكُ بَيْنَ فَسِيْلَيْنِ فُسْحَةً يُمْكِنُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَمْتَدَّ فِيْهَا ، وَلاَ يُضَايِقُ بَعْضُهَا بَعْضاً .

وَيَحْسُنُ أَنْ تَكُوْنَ الْفَسَائِلُ أَتْرَاباً فِيْ سِنٍّ وَاحِدَةٍ ، وَإِذَا كَانَتْ ذَاتَ أَزْهَارٍ فَلأَزْهَارِهَا مِيْعَادٌ وَاحِدٌ ، لِيَتِمَّ جَمَالُ كُلِّ صَفٍّ مِنْ صُفُوْفِهَا .

وَلاَ يَسْتَرِيْحُ الْبُسْتَانِيُّ بَعْدَ ذٰلِكَ ، بَلْ يَسْهَرُ عَلَىٰ هٰذه الْفَسَائِلِ ، فَلاَ يَزَالُ يَسْقِيْهَا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَيَقْلَعُ الْحَشَائِشَ ، وَيَعْزِقُ[2] الأَرْضَ حَوْلَهَا ، فَيَجْعَلُ بَاطِنَهَا ظَاهِرَهَا» .

---

(١) رِخْوَة : سهلة ليِّنة .

(٢) عَزَقَ يَعْزِقُ عَزْقاً : الأَرْضَ : شَقَّها .

هُنَا فَرَغَ الْبُسْتَانِيُّ مِنْ إِصْلَاحِ الأَرْضِ وَذَهَبَ يَنْقُلُ فَسِيْلاً ، فَتَبِعَهُ عُمَرُ وَعَبَّاسٌ ، وَوَقَفَا بِجَانِبِهِ.

❊ ❊ ❊

(٦٤)

جِسْمُ النَّبَاتِ

(٢)

حَفَرَ الْبُسْتَانِيُّ الأَرْضَ حَوْلَ الْفَسِيْلِ بِاحْتِرَاسٍ[١] ، وكَأَنَّهُ يَخَافُ شَيْئاً ، فَسَأَلَ عَبَّاسٌ وَالِدَهُ عَنْ ذٰلِكَ ، وَقَالَ : لِمَاذَا يَتَوَانَىٰ[٢] الْبُسْتَانِيُّ فِيْ شُغْلِهِ ، وَلاَ يُعَجِّلُ؟

قَالَ عُمَرُ : هُوَ يَخَافُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْضَ الْجُذُوْرِ فَيَضُرُّ بِالْفَسِيْلِ ، وَرُبَّمَا يَمُوْتُ ، لأَنَّ الْجُذُوْرَ لاَزِمَةٌ لِلشَّجَرَةِ وَبِهَا حَيَاتُهَا .

قَالَ عَبَّاسٌ : وَمَا فَائِدَةُ الْجُذُوْرِ وَمَا شُغْلُهَا حَتَّىٰ لاَ تَحْيَا الشَّجَرَةُ بِغَيْرِهَا .

---

(١) باحتِرَاس : بِحِيطة وَحَذَر .

(٢) تَوَانَىٰ يَتَوانَىٰ توانياً : تَأَخَّرَ وأَبْطَأَ .

قَالَ عُمَرُ: النَّبَاتُ إِنَّمَا يَثْبُتُ فِي الأَرْضِ بِالْجُذُوْرِ ، فَهِيَ الَّتِيْ تَمْتَصُّ[1] الْغِذَاءَ مِنَ الأَرْضِ ، وَتَبْحَثُ عَنْهُ ، أَلَا تَرَاهَا مُمْتَدَّةً مُتَشَعِّبَةً فِيْ بَاطِنِ الأَرْضِ ، كَأَنَّهَا جَوَاسِيْسُ وَعُيُوْنٌ قَدِ انْبَثَّتْ لِعَمَلِهَا .

عَبَّاسٌ: وَمَا هِيَ الأَجْزَاءُ اللاَّزِمَةُ لِلنَّبَاتِ غَيْرُ الْجُذُوْرِ؟

قَالَ عُمَرُ: مِنَ الأَعْضَاءِ اللاَّزِمَةِ لِلنَّبَاتِ السَّاقُ ، وَهُوَ الْجُزْءُ الْبَارِزُ عَلَى الأَرْضِ ، وَهُوَ الَّذِيْ يَحْمِلُ الْفُرُوْعَ وَالأَوْرَاقَ ، وَيَسِيْلُ فِيه غِذَاءُ الشَّجَرَةِ ، وَيَنْتَقِلُ إِلَى أَجْزَائِهَا .

وَالآخَرُ اللاَّزِمُ لِلنَّبَاتِ الأَوْرَاقُ وَبِهَا يَتَنَفَّسُ النَّبَاتُ ، وَيَأْخُذُ مِنَ الْهَوَاءِ مَا يُصْلِحُ بِهِ حَيَاتَهُ .

وَهٰذِهِ الثَّلَاثَةُ: الْجُذُوْرُ ، وَالسَّاقُ ، وَالأَوْرَاقُ ، هِيَ أَعْضَاءُ النَّبَاتِ اللاَّزِمَةُ لِحَيَاتِهِ وَنَمَائِهِ ، وَيَكْفِيْكَ يَا عَبَّاسُ! هٰذَا الدَّرْسُ الأَوَّلُ عَنِ النَّبَاتِ .

قَالَ عَبَّاسٌ: عَجَباً يَا أَبِي! مَا كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ النَّبَاتَ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٍ ، لَهُ تَرْكِيْبٌ دَقِيْقٌ .

قَالَ عُمَرُ: وَكَذٰلِكَ كُلُّ شَيْءٍ ، فَإِذَا دَرَسْتَهُ كَكِتَابٍ تَعَجَّبْتَ

---

(١) امْتَصَّ يَمْتَصُّ امْتِصَاصاً: الشيءَ: رَشَفَهُ وَشَرِبَهُ مَعَ جَذْبِ نَفْسٍ .

مِنْ صُنْعِ اللهِ الَّذِيْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَعَرَفْتَ أَنَّ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ آيَةً لله ، وَفِيْ ذٰلِكَ يَقُوْلُ الشَّاعِرُ:

وَلله فِــيْ كُــلِّ تَحْــرِيْكَــةٍ وَفِــيْ كُــلِّ تَسْكِيْنَــةٍ شَــاهِــدُ

وَفِيْ كُــلِّ شَــيْءٍ لَـهُ آيَــةٌ[1] تَـــدُلُّ عَلَـــىٰ أَنَّـــهُ وَاحِـــدُ

* * *

---

(١) آيَةٌ جـ آيات وآي: عَلاَمة.

(٦٥)

الْـبـبَّـغَــاءُ

أَلِفْتُهَــا[١] صَبِيْحَــةً مَلِيْحَــةْ   نَــاطِقَــةً بَــاللُّغَــةِ الْفَصِيْحَــةْ
عُدَّتْ مِنَ الأَطْيَارِ وَاللِّسَانُ   يُــوْهِمُنِــيْ[٢] بِــأَنَّهَــا إِنْسَــانُ
تُنْهِيْ[٣] إِلَىٰ صَاحِبِهَا الأَخْبَارَا   وَتَكْشِــفُ الأَسْــرَارَ وَالأَسْتَــارَا
بَكْمَــاءُ[٤] إِلاَّ أَنَّهَــا سَمِيْعَــةْ   تُعِيْــدُ مَــا تَسْمَعُــهُ طَبِيْعَــةْ
زَارَتْكَ مِنْ بِلاَدِهَا الْبَعِيْدَةْ   وَاسْتَوْطَنَتْ عِندَكَ كَالْقَعِيْدَةْ[٥]

---

(١) أَلِفَ يَأْلِفُ إِلْفاً: الرجلُ فلاناً: أَنِسَ به وأَحَبَّه.
(٢) أَوْهَمَ يُوْهِمُ إِيْهَاماً: أَوْهَمَ الرجلُ الشيءَ: أَوْقَعَهُ في الوَهْم (والْوَهْمُ ما يقع في الذِّهنِ من الخَاطِرِ).
(٣) أَنْهَىٰ يُنْهِي إِنْهاءً الشيءَ: أَوْصَلَهُ وَأَبْلَغَهُ.
(٤) بَكْمَاءَ (مؤنث) أَبْكَمُ (مذكر) جمعها بُكْمٌ: عاجِزٌ عن الكلام، أَخْرَس.
(٥) الْقَعِيْدَة: المُجَالِسَة.

ضَيْفٌ قِرَاهُ[1] الْجَوْزُ وَالأَرُزُّ وَالضَّيْـفُ فِـيْ إِتْيَـانِـهِ يُعَـزُّ
تَـرَاهُ فِـيْ مِنْقَـارِهِ الـرَّقِيْـقِ كَلُـؤْلُـوءٍ يَلْقُـطُ[2] بِـالْعَقِيْـقِ[3]
تَنْظُرُ مِنْ طَرْفَيْنِ كَالْفَصَّيْنِ[4] فِي النُّوْرِ وَالظُّلْمَةِ بَصَّاصَيْنِ[5]
خَرِيْدَةٌ[6] خُدُوْرُهَا[7] الأَقْفَاصُ لَيْسَ لَهَا مِنْ حَبْسِهَا خَلاَصُ
تَحْبِسُهَـا وَمَـالَهَـا مِـنْ ذَنْـبِ وَإِنَّمَــا ذَاكَ لِفَــرطِ الْحُــبِّ

(أَبُوْ إِسْحاقَ الصَّابِيُّ)

* * *

(١) قِرَىٰ: ما يُقَدَّم إلى الضَّيْفِ من الطَّعام.
(٢) لَقَطَ يَلْقُطُ لَقْطاً: الشيءَ: أَخَذَهُ مِن الأرض.
(٣) العَقِيْق: حجر كريم أحمر.
(٤) الفَصُّ جمع الفُصُوص: مَا يُرَكَّبُ في الخاتِم من الحجارة الكريمة وغيرها.
(٥) بَصَّاصٌ: لامعٌ وَمُتَلألئ.
(٦) خُرَيْدَةٌ جمع خَرَائِد: لُؤلُؤة لم تُثقَب.
(٧) خِدْرٌ جمع خُدُوْر: سِتْرٌ يُمَدُّ ليحجب ما وراءه، وستارة.

(٦٦)

الْـحَجَّـاجُ وَالْـفِتْـيَــةُ

أَمَرَ الْحَجَّاجُ صَاحِبَ حَرَسِهِ أَنْ يَطُوْفَ لَيْلاً ، فَمَنْ رَآهُ بَعْدَ الْعِشَاءِ سَكْرَانَ ضَرَبَ عُنُقَهُ ، فَطَافَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِيْ فَوَجَدَ ثَلاَثَةَ فِتْيَانٍ يَتَمَايَلُوْنَ[١] ، وَعَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ[٢] السُّكْرِ ، فَأَحَاطَتْ بِهِمُ الْغِلْمَانُ وَقَالَ لَهُمْ صَاحِبُ الْحَرَسِ :

مَنْ أَنْتُمْ حَتَّىٰ خَالَفْتُمْ أَمْرَ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، وَخَرَجْتُمْ فِيْ مِثْلِ هٰذَا الْوَقْتِ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمْ :

أَنَا ابْنُ مَنْ دَانَتِ[٣] الرِّقَابُ لَهُ مِنْ بَيْنِ مَخْزُوْمِهَا وَهَاشِمِهَا

تَأْتِيْهِ بِالرَّغْمِ وَهِيَ صَاغِرَةٌ[٤] يَأْخُذُ مِنْ مَالِهَا وَمِنْ دَمِهَا

---

(١) تَمَايَلَ يَتَمَايَلُ تَمَايُلاً : الرجلُ في مشْيَتِهِ : تَبَخْتَرَ .

(٢) أَمَارَة جمع أَمَارَات : عَلاَمَة .

(٣) دَانَ يَدِيْنُ دِيْناً وَدِيَانَةً : الرجلُ لفلانٍ : خضعَ وذَلَّ .

(٤) صَاغِرَة : رَاضِيَة بالذلِّ والهَوَانِ .

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ مِنْ أَقَارِبِ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ.

ثُمَّ قَالَ لِلآخَرِ: وَأَنْتَ مَنْ تَكُوْنُ؟ فَقَالَ:

أَنَا ابْنُ مَنْ لا تَنْزِلُ الدَّهْرَ قِدْرُهُ وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْمَاً فَسَوْفَ تَعُوْدُ

تَرَىٰ النَّاسَ أَفْوَاجاً إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ فَمِنْهُمْ قِيَامٌ حَوْلَهَا وَقُعُوْدُ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْرَفِ الْعَرَبِ.

ثُمَّ قَالَ لِلآخَرِ: وَأَنْتَ مَنْ تَكُوْنُ؟ فَأَنْشَدَ قَائِلاً:

أَنَا ابْنُ مَنْ خَاضَ[1] الصُّفُوْفَ بِعَزْمِهِ

وقَوَّمَهَا[2] بِالسَّيْفِ حَتَّىٰ اسْتَقَامَتِ

رِكَابَاهُ لَا تَنْفَكُّ رِجْلاَهُ مِنْهُمَا

إِذَا الْخَيْلُ فِيْ يَوْمِ الْكَرِيْهَةِ وَلَّتِ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْجَعِ الْعَرَبِ، وَاحْتَفَظَ بِهِمْ.

فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ رَفَعَ أَمْرَهُمْ إِلَىٰ الأَمِيْرِ، فَأَحْضَرَهُمْ وَكَشَفَ عَنْ حَالِهِمْ، فَإِذَا الأَوَّلُ ابْنُ حَجَّام، وَالثَّانِي ابْنُ خُضَرِيٍّ، وَالثَّالِثُ ابْنُ حَائِكٍ[3]، فَتَعَجَّبَ مِنْ فَصَاحَتِهِمْ، وَقَالَ

---

(١) خَاضَ يَخُوْضُ خَوْضاً: الرجلُ الصُّفوفَ: دَخَلَها وَمَشَىٰ فِيْها.

(٢) قَوَّمَ يُقَوِّمُ تَقْويماً: الرجلُ الصُّفوفَ: سَوَّاها وَعَدَّلها.

(٣) حائك جمع حائكين: ناسِجٌ (من حرفته الحِيَاكة).

لِجُلَسَائِهِ: عَلِّمُوْا أَوْلَادَكُمْ الأَدَبَ ، فَوَاللهِ لَوْلَا فَصَاحَتُهُمْ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ.

* * *

(٦٧)
أَنَا تُـــرَابٌ

أَنَا تُرَابٌ حَقِيْرٌ يَطَؤُنِي[١] النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ وَنِعَالِهِمْ، وَيَضْرِبُوْنَ بِيْ مَثَلاً فِي الْحقَارَةِ والذُّلِّ.

النَّاسُ يَنْتَفِعُوْنَ بِيْ فِيْ كُلِّ سَاعَةٍ ، وَفِيْ كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ ، ثُمَّ يَحْتَقِرُوْنَنِيْ وَيَهْجُوْنَنِيْ[٢] كَالشَّعِيْرِ يُؤْكَلُ وَيُذَمُّ.

فَفِيْ مَنَاكِبِيْ يَمْشِي النَّاسُ ، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ يَبْنُوْنَ بُيُوْتَاً وَمَبَانِيَ عَظِيْمَةً ، وَمِنْ بَطْنِيْ تَخْرُجُ لِلنَّاسِ حُبُوْبٌ يَأْكُلُهَا النَّاسُ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُوْنَ والرُّمَّانُ ، وَالنَّخْلُ وَالزَّرْعُ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ.

وَمِنْ بَطْنِيْ يَخْرُجُ ذٰلِكَ الْقُطْنُ الَّذِيْ بِهِ لِبَاسُكُمْ وَكِسْوَتُكُمْ فِي

---

(١) وَطِىءَ يَطَأُ وَطْئاً: الرجلُ الشيءَ برجله: دَاسَهُ.
(٢) هَجَا يَهْجُوْ هَجْواً وَهِجَاءً: الرجلُ فلاناً: عَدَّدَ معايبه وذَمَّه.

الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ ، وَسَرَابِيْلُ[1] تَقِيْكُمُ[2] الْحَرَّ .

وَفِيْ لِبَاسِ الْحَرِيْرِ أَيْضاً يَرْجِعُ إِلَيَّ الْفَضْلُ[3] فَإِنَّ دُوْدَةَ الْقَزِّ[4] تَتَغَذَّىٰ مِنْ وَرَقِ التُّوْتِ ، وَمِنِّي تَتَغَذَّىٰ شَجَرَةُ التُّوْتِ ، وَعَلَيَّ تَنْمُوْ وَتَعِيْشُ ، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ تَحْفِرُوْنَ الْبِئْرَ الَّتِيْ تَشْرَبُوْنَ مَاءَهَا ، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ تَجْرِيْ الأَنْهَارُ الَّتِيْ تَسْقِيْكُمْ ، وَتَسْقِيْ زُرُوْعَكُمْ .

وَمِنَ الطِّيْنِ يَبْنِي الْفَخَّارِيُّ الأَوَانِيَ وَالظُّرُوْفَ ، الَّتِيْ تَأْكُلُوْنَ فِيْهَا وَتَشْرَبُوْنَ ، وَاللُّعَبُ وَالدُّمَىٰ[5] الَّتِيْ يَلْعَبُ بِهَا الأَطْفَالُ .

وَهَلْ تُصَدِّقُوْنَ إِذَا أَخْبَرْتُكُمْ بِأَنِّيْ مَادَّةُ هٰذَا الْكِتَابِ الَّذِيْ تَقْرَؤُوْنَهُ ، وَمَادَّةُ كُلِّ كِتَابٍ وَصَحِيْفَةٍ ، فَإِنَّ مَادَّةَ الْوَرَقِ الْحَشِيْشُ الَّذِيْ يَنْبُتُ فِي الأَرْضِ ، فَلِيَ مِنَّةٌ عَلَىٰ كُلِّ عَالِمٍ وَطَالِبٍ ، وَلِيَ مِنَّةٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ عَلَيْهِ مِنَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ .

---

(١) سِرْبَالٌ جمع سَرَابِيْل : كُلُّ مَا يُلبسُ من قميص أو دِرْع ونحوهما .
(٢) وَقَىٰ يَقِي وِقَايَةً : (وَقَاهُ السِّرْبَالُ الحُرَّ : صَانَهُ وَحَمَاه من الحرِّ) .
(٣) يَرْجِعُ إِليَّ الفَضْلُ : يعود .
(٤) القَزُّ : حريرٌ طبيعي يَخْرُجُ من دود الحريرِ .
(٥) دُمْيَة جمع دُمىً : تِمثال صغير .

ومِنْ بَطْنِيْ يَخْرُجُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيْدُ ، الَّذِيْ فِيْهِ بَأْسٌ شَدِيْدٌ[1] وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَالزَّيْتُ الَّذِيْ يُضِيءُ وَالْفَحْمُ الْحَجَرِيُّ الَّذِيْ تَسِيْرُ بِهِ الْقَاطِرَةُ ، وَالْبِتْرَوْلَ الَّذِيْ تَسِيْرُ بِهِ السَّيَّارَاتُ وَالطَّائِرَاتُ .

إِنَّكُمْ تُفْسِدُوْنَ أَطْيَبَ الأَشْيَاءِ ، فَكُلُّ مَا تَلَبَّسَ بِكُمْ فَسَدَتْ رَائِحَتُهُ ، وَذَهَبَتْ نَضَارَتُهُ[2] ، وَأَنَا أُعِيْدُهُ غَضّاً طَرِيّاً[3] ، وَبِهٰذَا السَّمَادِ الَّذِيْ تُلْقُوْنَهُ فِي الْحُقُوْلِ وَالْفَسَائِلِ أُنْبِتُ لَكُمْ حَبّاً صَحِيْحاً ، وَفَاكِهَةً لَذِيْذَةً ، وَزُهُوْراً جَمِيْلَةً .

أَنَا أَمِيْنُ أَجْسَادِ الأَنْبِيَاءِ ، أَنَا مَرْقَدُ[4] الشُّهَدَاءِ ، أَنَا مُسْتَوْدَعُ الأَوْلِيَاءِ ، أَنَا مَضْجَعُ الْعُلَمَاءِ والصُّلَحَاءِ ، أَنَا مَدْفَنُ الأُمَّهَاتِ وَالآبَاءِ ، فَلاَ تَمْشُوْا عَلَيَّ مَرَحاً ، وَاذْكُرُوْا قَوْلَ صَاحِبِكُمْ :

خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيْمَ الـ
أرضِ إِلاَّ مِنْ هٰذِهِ الأَجْسَادِ

---

(١) بَأْسٌ شديد : قوّة شديدة .
(٢) نَضَارة وَنَضَارٌ : الخالِص مِنْ كلِّ شيءٍ .
(٣) غَضّاً طَرِيّاً : نَاعِماً .
(٤) مَرْقَدٌ جمع مراقِد : قَبْرٌ .

وَقَبِيــــحٌ بِنَــــا وَإِنْ قَــــدُمَ الْعَهْـ

ـــــدُ هَــــوَانُ الآبَــــاءِ وَالأَجْــــدَادِ

سِرْ إِنِ اسْتَطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُوَيْداً[1]

لا اخْتِيَالاً[2] عَلَى رُفَاتِ[3] الْـعِبَـادِ

* * *

(١) رُوَيْداً: مَهْلاً أو أَمْهِلْ.

(٢) لا اخْتِيَالاً: لا تكبُّراً وتمايلاً في المشي.

(٣) رُفاتٌ: حُطَام وَفُتَاتٌ مِن كل ما تكسر واندق.

(٦٨)

السُّلْطَانُ مَحْمُوْد بْـنُ مُحَمَّدٍ الْـغُجْرَاتِـي

السُّلْطَانُ الْعَادِلُ الْمُجَاهِدُ ، أَبُوْ الْفَتْحِ سَيْفُ الدِّيْنِ مَحْمُوْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْغُجْرَاتِيُّ ، كَانَ مِنْ خِيَارِ[١] السَّلَاطِيْنِ ، وَلِدَ بِغُجْرَاتَ[٢] فِيْ عَاشِرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ٨٤٩ هـ وَقَامَ بِالْمُلْكِ بَعْدَ دَاوُدَ شَاهْ سَنَةَ ٨٦٢ هـ وَكَانَ يَوْماً مَشْهُوْداً .

اسْتَقَلَّ بِالْمُلْكِ خَمْساً وَخَمْسِيْنَ سَنَةً ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ الْجِهَادِ ، وَوَسَّعَ حُدُوْدَ مُلْكِهِ إِلَىٰ مَالْوَهْ[٣] ، وَإِلَىٰ بِلَادِ السِّنْدِ ، وَلٰكِنَّهُ فِيْ تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيْلَةِ لَمْ يَطْمَحْ إِلَىٰ بِلَادِ

---

(١) خَيْر جمع خِيَار: حَسَن لذاته أو ما يحققه من نفع أو سعادة.

(٢) غجرات: ولاية تقع في شمال غربي الهند قرب البحر العربي ، كانت مركزاً فنياً هاماً في القرون الوسطى.

(٣) مَالْوَهْ: ولاية قديمة تقع الآن في ولاية مادهيابرديش في الهند ، كانت مركزاً ثقافياً فنياً كبيراً في القرن العاشر الميلادي.

الْمُسْلِمِيْنَ وَلَمْ يَسْتَشْرِفْ[1] لَهَا ، وَإِذَا اسْتَوْلَىٰ الْقَوِيُّ مِنْهُمْ عَلَىٰ الضَّعِيْفِ قَامَ بِنُصْرَةِ الضَّعِيْفِ ، وَكَانَ قَائِماً بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ، يُنَفِّذُ أَمْرَ الشَّرْعِ فِي السِّيَاسَةِ ، وَيُمْضِيْ حُكْمَ الْقِصَاصِ ، وَلاَ يَمْنَعُ كَوْنُ أَحَدٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُلْكِ الْخَاصَّةِ بِهِ أَلاَّ يَعْمَلَ بِالشَّرِيْعَةِ .

وَمِنْ مَكَارِمِهِ[2] قِيَامُهُ بِتَعْمِيْرِ الْبِلاَدِ وَتَأْسِيْسِ الْمَسَاجِدِ ، وَالْمَدَارِسِ وَالزَّوَايَا ، وَتَكْثِيْرِ الزِّرَاعَةِ وَغَرْسِ الأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ ، وَبِنَاءِ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِيْنِ ، وَتَحْرِيْضِ النَّاسِ عَلَىٰ ذٰلِكَ ، وَإِعَانَتِهِمْ بِحَفْرِ الآبَارِ وَإِجْرَاءِ الْعُيُوْنِ ، وَلِذٰلِكَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ إِقْبالاً كُلِّياً[3] ، وَوَفَدَ عَلَيْهِ الْبَنَّاؤوْنَ وَالْمُهَنْدِسُوْنَ وَأَهْلُ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْ بِلاَدِ الْعَجَمِ ، فَقَامُوْا بِحِرَفِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ ، فَصَارَتْ غُجْرَاتُ رِيَاضاً[4] مُخْضَرَّةً بِكَثْرَةِ الْحِيَاضِ وَالآبَارِ ، وَالْحَدَائِقِ وَالزُّرُوْعِ وَالْفَوَاكِهِ الطَّيِّبَةِ ، وَصَارَتْ بِلادُ كُجْرَاتَ مَتْجَرَةً تُجْلَبُ مِنْهَا الثِّيَابُ الرَّفِيْعَةُ إِلَىٰ بِلاَدٍ أُخْرَىٰ ، وَذٰلِكَ كُلُّهُ بِمَيْلِ سُلْطَانِهَا

---

(١) اسْتَشْرَفَ يَسْتَشرِف : الرَّجلُ الشيءَ: رَفَعَ بَصَرَهُ يَنْظر إليه .

(٢) مَكْرِمَة جمع مَكَارِم: فعل الخَيْر .

(٣) إقْبالاً كلياً: إقبالاً تامّاً .

(٤) رَوْضَة جمع رِيَاض وَرَوْضات: أرض ذات خضرة وماء .

مَحْمُوْدٍ شَاهْ إِلَىٰ مَا يَصْلُحُ بِهِ الْمُلْكُ وَالدَّوْلَةُ ، وَيَتَرَفَّهُ بِهِ رَعَايَاهُ .

وَمِنْ مَكَارِمِهِ قِيَامُهُ بِتَرْبِيَةِ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ لِمَا كَانَ مَجْبُوْلاً عَلَىٰ حُبِّ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ ، فَاجْتَمَعَ فِيْ حَضْرَتِهِ خَلْقٌ كَثِيْرٌ مِنْ أَفَاضِلِ الْعَرَبِ ، حَتَّىٰ صَارَتْ بِلَادُ كُجْرَاتَ عَامِرَةً آهِلَةً بِالْعُلَمَاءِ ، وَوَفَدَ عَلَيْهِ الْمُحَدِّثُوْنَ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ ، وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَىٰ الْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ ، فَتَشَابَهَتْ غُجْرَاتُ بِالْيمنِ الْمَيْمُوْنِ ، وَفَاقَتْ سَائِرَ بِلَادِ الْهِنْدِ فِيْ ذٰلِكَ .

وَكَانَ غَايَةً فِي الْعِفَّةِ وَالْحَيَاءِ ، حَسَنَ الأَخْلَاقِ ، عَظِيْمَ الْهِمَّةِ ، كَرِيْمَ السَّجِيَّةِ ، شَرِيْفَ النَّفْسِ ، كَثِيْرَ الْبِرِّ وَالإِحْسَانِ ، أَطَالَ الْمُؤَرِّخُوْنَ فِيْ مَنَاقِبِهِ وَفَضَائِلِهِ .

فِيْ سَنَةِ ٩١٦ هـ تَوَجَّهَ إِلَىٰ نَهْرِ وَالَهْ بَتَنْ[١] ، وَزَارَ أَئِمَّةَ الدِّيْنِ بِهَا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ، وَعَقَدَ مَجْلِساً خَاصّاً لِمُذَاكَرَةِ التَّفْسِيْرِ وَالْحَدِيْثِ ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْجَوَائِزِ ، وَأَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْوَظَائِفِ ، وَالْتَمَسَ الدُّعَاءَ ، وَكَانَ أَنْشَأَ مَضْجَعَهُ فِيْ جِوَارِ قَبْرِ مَوْلَانَا الشَّيْخِ أَحْمَدَ فِيْ سَرْكَهِيْجَ[٢] ، يَتَعَهَّدُهُ أَحْيَاناً ، وَقَبْلَ وَفَاتِهِ بِأَيَّامٍ فَتَحَ

---

(١) إحدى مدن ولاية غُجْرَات .

(٢) إحدى مدن ولاية غُجْرَات .

الْقَبْرَ وَجَلَسَ عِنْدَهُ وَقَالَ: اللهُمَّ إِنَّ هٰذَا أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَسَهِّلْهُ وَاجْعَلْهُ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ مَلأَهُ فِضَّةً وَتَصَدَّقَ بِهَا .

وَكَانَتْ وَفَاتُهُ عَصْرَ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ ثَانِيَ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ٩١٧ هـ وَلَهُ تِسْعٌ وَسِتُّوْنَ سَنَةً وَمُدَّةُ سَلْطَنَتِهِ خَمْسٌ وَخَمْسُوْنَ سَنَةً .

(الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)

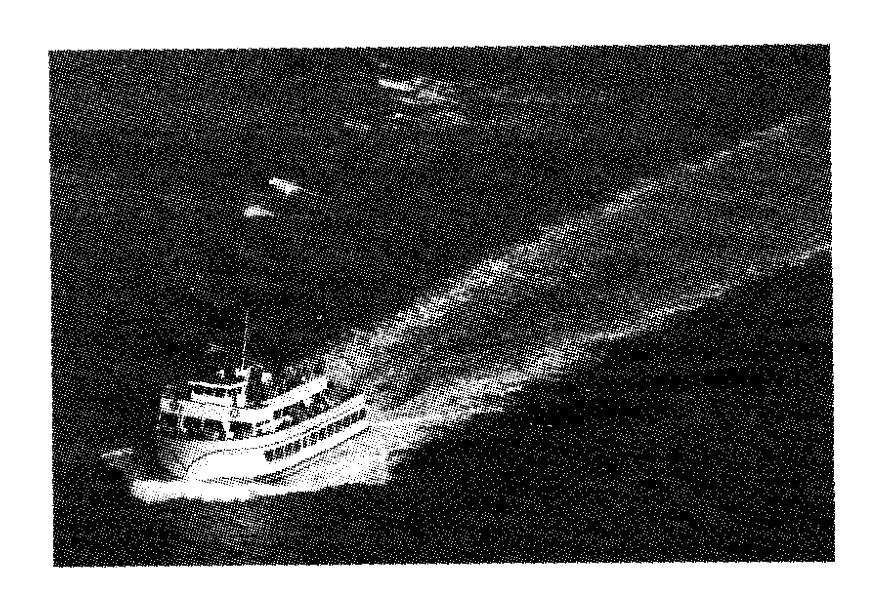
للعلامة عبد الحي الحسني

❊ ❊ ❊

(٦٩)

الْبَاخِرَةُ

(١)



كَانَ النَّاسُ فِيْ قَدِيْمِ الزَّمَانِ يُسَافِرُوْنَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ عَلَىٰ الإِبِلِ وَالْبِغَالِ ، وَعَجَلاَتِ الْخَيْلِ وَعَجَلاَتِ الثِّيْرَانِ ، فَتَرَاهَا غَادِيَةً رَائِحَةً[1] عَلَىٰ الطُّرُقَاتِ وَالشَّوَارِعِ تَحْمِلُ الرُّكَّابَ وَالْبَضَائِعَ .

(١) غاديةً ورائحةً : ذاهبةً وآيبةً .

وَكَانَ النَّاسُ يَخَافُوْنَ السَّفَرَ فِي الْبِحَارِ وَيَتَحَامَوْنَه[1] ، وَلٰكِنْ أَلْجَأَتْهُمُ الضَّرُوْرَةُ إِلَىٰ السَّفَرِ فِيْهَا لأَنَّهُ يَحْمِلُ الأَثْقَالَ الْعظِيْمَةَ وَلاَ يُكَلِّفُ نَفَقَةً ، فَوَصَلُوْا الأَنْهَارَ وَالْبُحَيْرَاتِ بالتُّرَعِ ، وَصَارُوْا يُسَافِرُوْنَ فِيْهَا عَلَىٰ السُّفُنِ الشِّرَاعِيَّةِ ، وَيَنْقُلُوْنَ بَضَائِعَهُمُ التِّجَارِيَّةَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ بَعِيْدٍ .

وَكَانَتْ هٰذِهِ السُّفُنُ الشِّرَاعِيَّةُ تَسِيْرُ ثَلاَثَةَ أَمْيَالٍ فِيْ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَانَتْ هٰذِهِ السُّفُنُ تَحْتَ حُكْمِ الرِّيَاحِ ، فَإِنْ وَافَقَتْ وَصَلَتِ السَّفِيْنَةُ فِيْ وَقْتٍ قَرِيْبٍ ، وَإِنْ عَارَضَتْ وَقَفَتْ أَسَابِيْعَ وَشُهُوْراً ، وَإِنْ عَانَدَتْ[2] صَدَمَتْهَا بِصَخْرَةٍ فَكَسَرَتْهَا ، أَوْ قَلَبَتْهَا ، وَهَلَكَ الرُّكَّابُ وَغَرِقَتِ الْبَضَائِعُ ، وَكَانَ هٰذَا يَقَعُ كَثِيراً حَتَّىٰ ذَهَبَ مَثَلاً ، وَقَال الشَّاعِرُ :

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّىٰ الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ
تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِيْ السُّفُنُ

وَكَانَ السَّفَرُ خَطِراً لا يَدْرِيْ الإنْسَانُ أَيَصِلُ إِلَىٰ الْمَنْزِلِ أَمْ يَمُوْتُ فِي الطَّرِيْقِ ، فَكَانَ الْوَاحِدُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ فِيْ سَفِيْنَةٍ شِرَاعِيَّةٍ أَوْصَىٰ أَقَارِبَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ بِدُيُوْنِهِ وَبِمَا عَلَيْهِ ، وَكَانَ الإِنْسَانُ

---

(١) تَحَامَىٰ يَتَحَامَىٰ تَحَامِياً : الرجلُ شيئاً : تَجَنَّبَه .
(٢) عَانَدَ يُعَانِدُ مُعَانَدةً : عَارَضَ .

لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَقُوْلَ: إِنَّهُ يَصِلُ فِيْ شَهْرٍ أَوْ عَامٍ، فَإِنَّهُ يُسَافِرُ فِيْ ظُلُمَاتِ الْبَحْرِ، وَكَانَ دُوْداً عَلَىٰ عُوْدٍ، لاَ يَدْرِيْ أَيَمُوْتُ فِي الطَّرِيْقِ أَمْ يَصِلُ سَالِماً وَيَعُوْدُ.

وَكَانَ النَّاسُ رَغْمَ ذٰلِكَ كُلِّهِ يُخَاطِرُوْنَ[1] بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَكَانَ الْمُسْلِمُوْنَ يُسَافِرُوْنَ لِلْحَجِّ مِنْ كُلِّ بِلاَدٍ، وَلاَ يَمْنَعُهُمْ خَطَرٌ أَوْ خَوْفٌ مِنَ السَّفَرِ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ، وَأَدَاءِ فَرِيْضَةِ الْحَجِّ، فَكَانَ الْمُسْلِمُوْنَ مِنَ الْهِنْدِ، وَالصِّيْنِ، وَجَزَائِرِ بَحْرِ الْهِنْدِ، وَكَذٰلِكَ مِنْ مَرَّاكِش وَبِلاَدِ الأَنْدَلُسِ يُسَافِرُوْنَ كُلَّ عَامٍ لِلْحَجِّ، وَقَدْ يَسْتَغْرِقُ سَفَرُهُمْ عَاماً كَامِلاً أَوْ أَكْثَرَ.

وكَانَ الْجَوَّابُوْنَ[2] يَسِيْحُوْنَ فِي الأَرْضِ، وَيَرْكَبُوْنَ الْبَحْرَ مِنَ الْمَغْرِبِ الأَقْصَىٰ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ الأَقْصَىٰ، وَكَانَ الْعَالَمُ الإِسْلاَمِيُّ كَبَيْتٍ وَاحِدٍ، وَالْمُسْلِمُوْنَ كَأُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ، يَنَالُ الْجَوَّابُ فِي السَّفَرِ كُلَّ مَا يَجِدُهُ فِي الْوَطَنِ.

أَهْلاً بِأَهْلٍ وَجِيْرَاناً بِجِيْرَانٍ.

وَقَدْ سَافَرَ ابْنُ بَطُوْطَةَ الْمَغْرِبِيُّ، وَابْنُ جُبَيْرٍ الأَنْدلُسِيُّ، وَسُلَيْمَانُ التَّاجِرُ، إِلَىٰ مُعْظَمِ الْمَعْمُوْرَةِ بِهٰذِهِ السُّفُنِ.

---

(١) خاطَرَ يُخَاطِرُ مُخَاطرةً: الرجلُ بنفسِه عَرَّضَها للهلاك.

(٢) الجوّاب جمع الجوّابين: السّيّاح.

(٧٠)

الْبَاخِــرَةُ

(٢)



مَضَىٰ عَلَىٰ ذٰلِكَ قُرُوْنٌ ، ثُمَّ بَدَأَ النَّاسُ يُفَكِّرُوْنَ ، وَيَخْتَرِعُوْنَ حَتَّىٰ تَوَصَّلُوْا إِلَىٰ سَفِيْنَةٍ تَسِيْرُ بِالْبُخَارِ ، وَكَانَ ذٰلِكَ بِالتَّدْرِيْجِ[١] ، وَفِيْ عِدَّةِ قُرُوْنٍ .

---

(١) بالتدريْجِ : قليلاً قليلاً .

كَانَتِ السُّفُنُ الشِّرَاعِيَّةُ تَسِيْرُ بِالْمَجَادِيْفِ[1] ، وَتَقَدَّمَ بَعْضُ الأَذْكِيَاءِ فَرَكَّبَ فِيْ سَفِيْنَةٍ عَجَلَةً رَبَطَ بِهَا الْمَجَادِيْفَ ، فَإِذَا دَارَتِ الْعَجَلَةُ بَدَأَتِ الْمَجَادِيْفُ تَعْمَلُ وَتَمْخُرُ[2] الْمَاءَ .

ثُمَّ اهْتَدَىٰ بَعْضُ الأَذْكِيَاءِ إِلَىٰ إِدَارَةِ الْعَجَلَةِ بِالْبُخَارِ ، وَالاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْيَدِ الْعَامِلَةِ ، وَلَمْ تَزَلِ الصِّنَاعَةُ تَرْتَقِيْ ، حَتَّىٰ ظَهَرَتْ أَوَّلُ سَفِيْنَةٍ بُخَارِيَّةٍ ، صَنَعَهَا رَجُلٌ أَمْرِيْكِيٌّ اسْمُهُ «هِلْتَنْ كِلَرْ مَا وُنْت» قَطَعَتْ مِئَةَ مِيْلٍ فِيْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِيْنَ سَاعَةً .

وَلَمْ تَزَلِ السُّفُنُ الْبُخَارِيَّةُ تَتَقَدَّمُ فِي السُّرْعَةِ وَالْقُوَّةِ ، حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ تَعْبُرُ الْبَحْرَ الأَطْلاَنْتِيْكِيَّ بَيْنَ إِنْكِلْتَرَةَ وَأَمْرِيْكَةَ فِيْ خَمْسَةِ أَيَّامٍ ، وَكَانَ السَّفَرُ فِيْ هٰذَا الْبَحْرِ يَأْخُذُ شَهْرَيْنِ .

وَالْبَاخِرَةُ كَالْقَاطِرَةِ تَسِيْرُ بِقُوَّةِ الْبُخَارِ ، فَإِنَّهُ يُدِيْرُ الْعَجَلَةَ ، وَالْعَجَلَةُ مُتَّصِلَةٌ بِآلاَتٍ تَتَحَرَّكُ الْبَاخِرَةُ بِدَوَرَانِهَا وَتَسِيْرُ .

وَكَذٰلِكَ هُنَالِكَ آلاَتٌ تُوَجِّهُ الْبَاخِرَةَ مِنْ جِهَةٍ إِلَىٰ جِهَةٍ ، وَتُسَخِّرُهَا لِلرُّبَّانِ يَسِيْرُ بِهَا كَيْفَ يَشَاءُ .

---

(١) مِجْدَاف جمع مَجَادِيْف : خشبة في رأسها لَوْحٌ عريض تُسيّر بها القوارب .

(٢) مَخَرَ يَمْخُرُ مَخْراً : مَخَرتِ السفينةُ : جرتْ تَشُقُّ الماءَ .

وَقَدْ تَقَدَّمَتِ التِّجَارَةُ تَقَدُّماً عَظِيْماً ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ يُسَافِرُوْنَ فِي الْبَحْرِ عَلَىٰ مَتْنِ[1] الْبَاخِرَةِ كَأَنَّهُمْ يُسَافِرُوْنَ فِي الْبَرِّ عَلَىٰ الْقِطَارِ ، أَوْ مُطْمَئِنُّوْنَ فِي الْبَلَدِ وَجَالِسُوْنَ فِي الدَّارِ.

وَكَبُرَتِ الْمَرَاكِبُ وَتَوَسَّعَتْ ، حَتَّىٰ كَأَنَّهَا حَارَةٌ مِنْ حَارَاتِ الْبَلَدِ ، أَوْ قَرْيَةٌ صَغِيْرَةٌ ، فِيْهَا الْمَطْعَمُ وَالْمَلْعَبُ وَمُنْتَزَهَاتٌ ، وَتَحْمِلُ مِنَ الرُّكَّابِ مِنْ خَمْسِمئَةٍ إِلَىٰ أَلْفٍ.

وَإِذَا رَأَىٰ الإِنْسَانُ السُّفُنَ الشِّرَاعِيَّةَ وَالْمَرَاكِبَ الْبُخَارِيَّةَ تَجْرِيْ فِي الْبَحْرِ رُخَاءً[2] تَعَجَّبَ ، وَرَأَىٰ تَصْدِيْقَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ .

* * *

(١) على مَتْن الباخرة: على ظَهْر الباخرة.

(٢) رُخَاءً: لينة دون تحرُّكٍ.

(٧١)

جِسْمُ الطُّيُوْرِ

إِنَّ اللهَ وَهَبَ لِكُلِّ حَيَوَانٍ صَغِيْرٍ وَكَبِيْرٍ جِسْمَاً لاَئِقَاً ، وَأَعْضَاءً يَسْتَعِيْنُ بِهَا عَلَىٰ قَضَاءِ حَوَائِجِهِ ، وَتَحْصِيْلِ قُوْتِهِ ، وَسِلاَحاً يُدَافِعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَهُوَ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ .

انْظُرُوا إِلَىٰ الْفِيْلِ كَيْفَ مَدَّ اللهُ فِيْ أَنْفِهِ لِيَسْتَخْدِمَهُ فِيْ حَوَائِجِهِ ، وَيَتَنَاوَلَ بِهِ الطَّعَامَ وَالْمَاءَ ، وَيُوَجِّهَهُ حَيْثُ شَاءَ ، وَفِيْ طَرَفِهِ زَائِدَةٌ يَلْتَقَطُ[1] بِهَا الأَشْيَاءَ الدَّقِيْقَةَ ، وَقَدْ قَرَأْتُمْ أَنَّ الْجَمَلَ رَقَبَتُهُ طَوِيْلَةٌ ، لأَنَّهُ كَبِيْرُ الْجِسْمِ ، طَوِيْلُ الأَرْجُلِ ، فَلَوْ كَانَتْ رَقَبَتُهُ قَصِيْرَةً لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَرْعَىٰ الْكَلأَ مِنَ الأَرْضِ حَتَّىٰ يَبْرُكَ ، وَفِيْ ذٰلِكَ تَعَبٌ عَظِيْمٌ ، وَشُغْلٌ كَثِيْرٌ ، فَمَدَّ اللهُ فِيْ عُنُقِهِ ، وَرَأْسُهُ صَغِيْرٌ ، فَكَانَ خَفِيْفَ الْحَمْلِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ ، وَلَمَّا قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُوْنَ

---

(١) الْتَقَطَ يَلْتَقِطُ الْتِقَاطاً: أَخَذَ.

الْجَمَلُ سَفِيْنَةَ الصَّحْرَاءِ جَعَلَ أَرْجُلَهَا مُنَاسِبَةً لِذٰلِكَ ، فَلَا تَسُوْخُ[1] فِي الرِّمَالِ ، وَخَلَق فِيْ جَوْفِهِ كُرُوْشاً وَأَزْقَاقاً يُخزِّنُ فِيْهَا الْغِذَاءَ وَالْمَاءَ ، لأَنَّ السَّفَرَ فِي الصَّحْرَاءِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ ذٰلِكَ كَثِيْراً.

انْظُرُوا إِلَىٰ الْقَنْغَرِ وَالأَرْنَبِ ، تَرَوا رِجْلَيْهِمَا الْخَلْفِيَّتَيْنِ طَوِيْلَتَيْنِ وَكَبِيْرَتَيْنِ ، وَرِجْلَيْهِمَا الأَمَامِيَّتَيْنِ صَغِيْرَتَيْن وَقَصِيْرَتَيْن ، لِيُمْكِنَهُمَا الْجَرْيُ قَفْزاً ، وَفِيْ قَدَمَيْ الرِّجْلَيْنِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ لِلْقَنْغَرِ ظِلْفٌ[2] حَادٌّ جِدَاً ، هُوَ سِلَاحُهُ يَبْقَرُ بِهِ بَطْنَ عَدُوِّهِ بِطَعْنَةٍ وَاحِدَةٍ.

كَذٰلِكَ الطُّيُوْرُ ، فَفِي جِسْمِهَا وخِلْقَتِهَا آيَاتٌ للهِ ، فَقَدْ كَسَا اللهُ جِسْمَهَا بِالرِّيْشِ ، لأَنَّهُ أَخَفُّ لِلطَّيَرَانِ ، وَجَعَلَ عِظَامَ الطَّائِرِ رَقِيْقَةً جَوْفَاءَ ، فَلَا يَعُوْقُه[3] ثِقَلُ رِيْشٍ ، أَوْ جِسْمٍ عَنِ الطَّيَرَانِ.

ثُمَّ وَهَبَ أَنْوَاعَ الطُّيُوْرِ أَنْوَاعاً مِنَ الْمَنَاقِيْرِ ، تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبِيْعَةِ الطَّيْرِ وَغِذَائِهِ وَعَادَاتِهِ ، وَكَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ تَرْكِيْبُ أَقْدَامِهِ.

انْظُرْ إِلَىٰ الْعَصَافِيْرِ وَالْحَمَامِ ، وَالْيَمَامِ وَالْغِرْبَانِ ، لَيْسَتْ أَجْسَامُهَا عَالِيَةً ، وَأَنَّهَا تَلْقُطُ حَبّاً صَغِيْراً مِنَ الأَرْضِ ، فَلَمْ تَكُنْ

---

(١) سَاخَ يَسُوْخُ سَوْخاً الرِّجْلُ في الأرض أو الرمل: غَاصَتْ ودخلت.
(٢) ظِلْفٌ جمع أظْلَاف: ظَفْر.
(٣) عَاقَ يَعُوْقُ عوقاً: عن الشيء: مَنَعَهُ (فَلَا يَعُوْقُه: فَلا يمنعه).

فِيْ حَاجَةٍ إِلَىٰ طُوْلِ الأَعْنَاقِ ، وَمَنَاقِيْرُهَا مُسْتَقِيْمَةٌ وَقَصِيْرَةٌ تُعِيْنُهَا فِي حَاجَاتِهَا .

انْظُرْ إِلَىٰ الطُّيُوْرِ الَّتِيْ تَعِيْشُ فِي الْمَاءِ ، وَتَبْحَثُ عَنْ قُوْتِهَا فِي الْمَاءِ كَالْبَطِّ وَاللَّقْلَق ، تَرَ أَعْنَاقَهَا وَمَنَاقِيْرَهَا طَوِيْلَةً لأَنَّهَا تُرْسِلُ مَنَاقِيْرَهَا فِيْ أَعْمَاقِ الأَنْهَارِ وَالْبِرَكِ ، وَتَسْتَخْرِجُ قُوْتَهَا مِنْ أَحْشَائِهَا ، فَخَلَقَ اللهُ لَهَا أَعْنَاقاً طَوِيْلَةً ، وَمَنَاقِيْرَ مُسْتَقِيْمَةً وَطَوِيْلَةً كَذٰلِكَ .

وَانْظُرْ إِلَىٰ الطُّيُوْرِ الَّتِي تَقْتَاتُ[1] بِاللَّحْمِ وَالْفَاكِهَةِ وَتَأْكُلُهَا نَهْشاً[2] ، كَالْحِدَاءِ وَالنُّسُوْرِ وَالصُّقُوْرِ لَا تَجِدُ مَنَاقِيْرَهَا مُسْتَقِيْمَةً ، لأَنَّهَا لَا تُغْنِي عَنْهَا ، وَلَا تَقْضِيْ حَاجَتَهَا ، فَخَلَقَ اللهُ لَهَا مَنَاقِيْرَ مُتَقَوِّسَةً[3] حَادَّةَ الطَّرْفِ ، وَيَكُوْنُ طَرْفُهَا الأَعْلَىٰ مُتَقَدِّماً مُتَقَوِّساً ، فَيُعِيْنُهَا فِيْ نَهْشِ اللُّحُوْمِ وَقَرْضِ الْفَوَاكِهِ وَفِي الْعَضِّ عَلَيْهَا .

كَذٰلِكَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ أَرْجُلِ الطُّيُوْرِ وَمَخَالِبِهَا ، رَأَيْنَا بَيْنَهَا فَرْقاً بِحَسْبِ أَنْوَاعِ الطُّيُوْرِ وَطَبَائِعِهَا ، وَعَادَاتِهَا ، وَغِذَائِهَا ، فَالطُّيُوْرُ

---

(١) اقْتَاتَ يَقْتَاتُ : الشيءَ : جَعَلَهُ قوتاً .
(٢) تَأْكُلُهَا نَهْشاً : تَتَنَاوَلُهَا بِفَمِهَا .
(٣) مُتَقَوِّسَة : مُنْعَطِفَة كَالْقَوْسِ .

الَّتِي تَعِيْشُ عَلَىٰ الْبَرِّ ، وَتَلْتَقِطُ الْحَبَّ لَيْسَتْ أَرْجُلُهَا طَوِيْلَةً ، وَأَنَّهَا تَرْفَعُ رِجْلَيْهَا فِيْ وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَتَمْشِيْ وَثْباً ، وَأَمَّا الطُّيُوْرُ الَّتِيْ تَعِيْشُ فِي الْمَاءِ وَتَصِيْدُ السَّمَكَ وَهَوَامَّ الْمَاءِ فَإِنَّهَا تُقَدِّمُ رِجْلاً فِي الْمَشْي وَتُؤَخِّرُ أُخْرَىٰ كَالإِنْسَانِ ، وَتَمْشِيْ رُوَيْداً ، فَإِنَّهَا إِذَا وَثَبَتْ وَثَبَاتٍ أَوْ قَفَزَتْ أَفْلَتَهَا[1] الصَّيْدُ.

كَذٰلِكَ الطُّيُوْرُ الَّتِي تَسْبَحُ فِي الْمَاءِ ، وَتَصِيْدُ فَلَهَا جِلْدٌ رَقِيْقٌ فِي مَخَالِبِها يَصِلُ بَيْنَ أَصَابِعِهَا ، فَتَنْتَشِرُ مَخَالِبُهَا كَالْمِظَلَّاتِ إِذَا نَشَرَتْ ، وَتُسَاعِدُهَا فِي السِّبَاحَةِ مُسَاعَدَةً عَالِيَةً.

وَالطُّيُوْرُ الَّتِيْ تَقْتَاتُ بِاللَّحْمِ لَهَا أَرْجُلٌ قَوِيَّةٌ وَمَخَالِبُ كَبِيْرَةٌ ، وَفِيْ أَصَابِعِهَا أَظْفَارٌ مُتَقَوِّسَةٌ حَادَّةُ الأَطْرَافِ تُسَاعِدُهَا فِيْ نَهْشِ اللُّحُوْمِ ، وَتَقُوْمُ أَرْجُلُهَا وَمَخَالِبُهَا مَقَامَ الأَرْجُلِ وَالأَيْدِيْ ، فَإِذَا مَشَتْ كَانَتْ لَهَا أَرْجُلاً تَمْشِيْ بِهَا ، وَإِذَا طَارَتْ أَوْ أَرَادَتْ أَنْ تَأْكُلَ كَانَتْ لَهَا أَيْدِياً تَبْطِشُ ، وَهٰذَا النَّوْعُ مِنَ الطَّيْرِ قَدْ يُمْسِكُ عُوْداً أَوْ قِطْعَةَ لَحْم ، وَيَطِيْرُ فِي الْجَوِّ وَيَسْتَقِلُّ بِهِ ، فَلَا يَسْقُطُ مِنْ يَدِهِ ، وَكَثِيْراً مَا رَأَيْنَا الْبَازِي[2] قَدْ قَبَضَ عَلَىٰ طَائِرٍ كَبِيْرٍ بِمَخَالِبِهِ وَطَارَ بِهِ إِلَى عُشِّهِ ، وَأَكَلَهُ هُنَالِكَ آمِناً مُطْمَئِنّاً.

---

(١) أَفْلَتَ يُفْلِتُ إِفْلَاتاً: نجا وتخلَّص.

(٢) البَازِيُّ جمع البَوَازِي: جِنْس من الصُّقُورِ الصغيرة أو المتوسطة الحجم يُصطادُ بهِ.

(٧٢)

شـيْـرُشَـاه الـسُّوْرِيّ سُلْطَـانُ الْهِنْـدِ

(١)

كَانَ شِيْرُشَاهَ مِنْ خِيَارِ السَّلاَطِيْنِ ، عَادِلاً بَاذِلاً[١] رَحِيْماً شُجَاعاً مِقْدَاماً[٢] ، وَكَانَ أَبُوْهُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ ، وَكَانَ شِيْرُشَاهَ يَتَعَلَّمُ فِيْ جَوَنِ بُوْرَ[٣] ، وَيَقْرَأُ الْكُتُبَ الدَّرْسِيَّةَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَجْتَهِدُ وَيَرْتَقِيْ حَتَّىٰ نَالَ الْمُلْكَ .

وَكَانَ وَزَّعَ أَوْقَاتَهُ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، شَطْراً[٤] مِنْهَا لِلْعِبَادَةِ ، وَشَطْراً لِلْعَدْلِ وَالْقَضَاءِ ، وَبَعْضَهَا لإِصْلاَحِ الْعَسْكَرِ ، فَكَانَ يَنْتَبِهُ

---

(١) باذِلاً : سخياً.

(٢) مِقْدَامٌ جمع مَقَادِيْم : كثير الإقدام على العدوِّ ، جريء في الحرب.

(٣) جَوْن بور : مدينة تقع في ولاية أترابرديش في الهند ، كانت مركزاً ثقافياً إسلامياً في القرن الرابع والخامس عشر الميلادي.

(٤) شطْراً : جُزْءاً.

مِنَ النَّوْمِ فِي ثُـلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ ، وَيَغْتَسِلُ وَيَتَهَجَّدُ وَيَشْتَغِلُ بِالأَورادِ إِلَىٰ أَرْبعِ سَاعَاتٍ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِيْ حِسَابَاتِ الإِدَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَيُرْشِدُ الأُمَرَاءَ فِيْمَا يُهِمُّهُمْ مِنَ الأُمُوْرِ فِيْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ ، وَيَهْدِيْهِمْ إِلَىٰ بَرْنَامِجِ الْعَمَلِ لِئَلاَّ يُشَوِّشُوْا أَوْقَاتَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِالأَسْئِلَةِ ، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيَتَوَضَّأُ لِصَلاَةِ الْفَجْرِ وَيُصَلِّيْهَا بِالْجَمَاعَةِ ، ثُمَّ يَقْرَأُ الْمُسَبَّعَاتِ الْعَشَرَ وَغَيْرَهَا مِنَ الأَوْرَادِ ، ثُمَّ يَحْضُرُ لَدَيْهِ الأُمَرَاءُ فَيُسَلِّمُوْنَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيُصَلِّيْ صَلاَةَ الإِشْرَاقِ ، ثُمَّ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَوَائِجِهِمْ وَيُعْطِيْهِمْ مَا يَحْتَاجُوْنَ إِلَيْهِ ، مِنْ خَيْلٍ ، وَأَقْطَاعٍ ، وَأَمْوَالٍ ، وَغَيْرَ ذٰلِكَ ، لِئَلاَّ يَسْأَلُوْهُ فِيْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الأَوْقَاتِ ، ثُمَّ يَتَوَجَّهُ إِلَىٰ الْمَظْلُوْمِيْنَ وَالْمُسْتَغِيْثِيْنَ ، وَيَجْتَهِدُ فِيْ إِغَاثَتِهِمْ .

وَمِنْ عَوَائِدِهِ[1] بَعْدَ الإِشْرَاقِ أَنَّهُ أَلْزَمَ نَفْسَهُ أَنْ يُعرضَ عَلَيْهِ الْعَسَاكِرُ فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَإِلَىٰ أَسْلِحَتِهِمْ ، ثُمَّ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَنْ يُرِيْدُ أَنْ يَثْبُتَ فِي الْعَسْكَرِيَّةِ ، فَيَتَكَلَّمُ مَعَهُ وَيَخْتَبِرُهُ ، ثُمَّ يَأْمُرُ أَنْ يُثْبَتَ اسْمُهُ فِي الْعَسْكَرِيَّةِ ، ثُمَّ يُعْرَضُ عَلَيْهِ الْجِبَايَاتُ[2] الَّتِيْ تُوْرَدُ عَلَيْهِ مِنْ بِلاَدِهِ كُلَّ يَوْمٍ ، ثُمَّ يَتَمَثَّلُ بَيْنَ يَدَيْهِ الأُمَرَاءُ وَالْمَرَازِبَةُ ، وَسُفَرَاءُ الدُّوَلِ وَالْوُكَلاَءُ ، فَيَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ ، ثُمَّ تُعْرَضُ عَلَيْهِ

---

(١) عَائِدة جمع عوائِد : المعروف والصلة .

(٢) جِبَايَةُ جمع جِبَايَات : الخراج أو الضرائب .

عَرَائِضُ الأُمَرَاءِ وَالْعُمَّالِ ، فَيَسْمَعُهَا وَيُمْلِيْ جَوَابَهَا ، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيُقْبِلُ إِلَىٰ الطَّعَامِ ، وَعَلَىٰ مَائِدَتِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمَشَايِخِ ، ثُمَّ يَشْتَغِلُ نَحْوَ سَاعَتَيْنِ بِأُمُوْرٍ خُصُوْصِيَّةٍ ، وَيَقِيْلُ إِلَىٰ وَقْتِ الظُّهْرِ ، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيُصَلِّيْ بِجَمَاعَةٍ ، وَيَشْتَغِل بِتلاَوَةِ الْقُرْآنِ الْحَكِيْمِ ، ثُمَّ بِمُهِمَّاتِ الأُمُوْرِ لِلدَّوْلَةِ ، وَكَانَ لاَ يَتْرُكُ شَيئاً مِنْ ذٰلِكَ فِيْ ظَعْنٍ[1] وَلاَ إِقَامَةٍ ، وَكَانَ يَقُوْلُ : الرَّجُلُ الْكَبِيْرُ مَنْ يَصْرِفُ أَوْقَاتَهُ فِي الأُمُوْرِ الْمُهِمَّةِ .

وَكَانَ يَتَوَجَّهُ إِلَىٰ الْمُهِمَّاتِ وَيُبَاشِرُ الأُمُوْرَ بِنَفْسِهِ ، وَيَقُوْلُ : لاَ يَنْبَغِيْ لِصَاحِبِ الأَمْرِ أَنْ يَسْتَصْغِرَ مَا يُهِمُّهُ مِنَ الأُمُوْرِ نَظَراً إِلَىٰ عُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ ، فَيُلْقِيْهَا عَلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ رِجَالِهِ ، لأَنَّهُمْ لاَ يَجْتَهِدُوْنَ فِيْهَا ، وَرُبَّمَا يَتَغَافَلُوْنَ عَنْهَا طَمَعاً وَارْتِشَاءً .

وَكَانَ يُعَاقِبُ الْبُغَاةَ وَقُطَّاعَ السُّبُلِ وَالظَّلَمَةَ أَشَدَّ عُقُوْبَةٍ ، وَيُعَزِّرُهُمْ أَشَدَّ تَعْزِيْرٍ ، وَكَانَ لاَ تَأْخُذُهُ بِهِمْ رَأْفَةٌ[2] وَإِنْ كَانُوْا مِنْ أَصْهَارِهِ وَأَقْرِبَائِهِ .

* * *

---

(١) ظَعْن : سَفَر .

(٢) رَأْفة : رحم وعطف .

(٧٣)

شَيْرُشَاهَ السُّوْرِيُّ سُلْطَانُ الْهِنْدِ

(٢)

وَمِنْ مَآثِرِهِ أَنَّهُ أَسَّسَ شَارِعاً كَبِيْراً مِنْ «سُنَارْ كَاؤُنْ» أَقْصَىٰ بِلَادِ بَنْكَالَهْ ، إِلَىٰ مَاءِ «نِيْلَابَ» مِنْ أَرْضِ السِّنْدِ ، مَسَافَتُهَا أَلْفٌ وَخَمْسُمِئَةِ كُرُوْهٍ ، وَالْكُرُوْهُ فِيْ عُرْفِ أَهْلِ الْهِنْدِ مِيْلَانِ ، وَأَسَّسَ فِيْ كُلِّ كُرُوْهٍ رِبَاطاً ، وَرَتَّبَ بِهِ طَعَاماً لأَهْلِ الإِسْلَامِ عَامَّةً وَلِلْهَنَادِكِ خَاصَّةً ، وَأَسَّسَ مَسْجِداً فِيْ كُلِّ كُرُوْهٍ مِنَ الآجُرِّ وَالْجَصِّ ، وَوَظَّفَ الْمُؤَذِّنَ ، وَالْمُقْرِىءَ وَالإِمَامَ فِيْ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَعَيَّنَ فِيْ كُلِّ رِبَاطٍ فَرَسَيْنِ لِلْبَرِيْدِ ، فَكَانَ تُرْفَعُ إِلَيْهِ أَخْبَارُ نِيْلَابَ إِلَىٰ أَقْصَىٰ بِلَادِ بَنْكَالَهْ كُلَّ يَوْمٍ ، وَغَرَسَ الأَشْجَارَ الْمُثْمِرَةَ بِجَانِبَي الشَّارِعِ الْكَبِيْرِ ، فَيَسْتَظِلُّ بِهَا الْمُسَافِرُ وَيَأْكُلُ مِنْهَا .

وَكَذٰلِكَ غَرَسَ الأَشْجَارَ الْمُثْمِرَةَ عَلَىٰ الطَّرِيْقِ مِنْ «آكْرَهْ»[١]

(١) اكْرَهْ: مدينة تقع في ولاية أترابرديش بالهند ، كانت عاصمة المغول ، وعاصمة الثقافة الإسلامية في الهند ، أهمّ آثارها : ضريح «تاج محل» .

إِلَىٰ «مَنْدُوْ»[1] ، وَبَيْنَهُمَا مَسَافَةُ ثَلاَثِمِئَةِ كُرُوْهٍ ، وَأَسَّسَ الرِّبَاطَاتِ وَالْمَسَاجِدَ ، وَبَلَغَ الأَمْنُ وَالأَمَانُ فِيْ عَهْدِهِ مَبْلَغاً لاَ يَسْتَطِيْعُ أَحَدٌ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ فِي الصَّحْرَاءِ إِلَىٰ عَجُوْزٍ تَحْمِلُ مَتَاعَهَا .

وَكَانَ شِيْرُ شَاهَ يَتَأَسَّفُ عَلَىٰ أَنَّهُ نَالَ السُّلْطَةَ فِيْ كِبَرِ سِنِّهِ ، وَيَقُوْلُ : إِنْ سَاعَدَنِي الزَّمَانُ أَبْعَثُ رِسَالَةً إِلَىٰ عَظِيْمِ الرَّوْمِ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَرْكَبَ بِعَسَاكِرِهِ إِلَىٰ بِلاَدِ الْفُرْسِ ، وَنَحْنُ نَرْكَبُ مِنْ هَاهُنَا إِلَىٰ تِلْكَ الْبِلاَدِ ، فَنَدْفَعُ بِمُسَاعَدَةِ مَلِكِ الرُّوْمِ شَرَّ الأَوْبَاشِ[2] الَّذِيْنَ يَقْطَعُوْنَ طَرِيْقَ الْحُجَّاجِ ، وَنُحْدِثُ شَارِعاً آمِناً إِلَىٰ مَكَّةَ الْمُبَارَكَةِ ، وَلٰكِنَّ الأَجَلَ لَمْ يُمْهِلْهُ فَمَاتَ قَبْلَ بُلُوْغِهِ إِلَىٰ تِلْكَ الأُمْنِيَّةِ ، وَكَانَ ذٰلِكَ فِيْ ثَانِيْ عَشَرَ مِنْ رَبِيْعِ الأَوَّلِ سَنَةَ ٩٥٢ هـ .

(الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)

للعلاَّمة عبد الحي الحسني

* * *

---

(١) مَنْدُوْ : مدينة هندية قديمة ، كانت عاصمة سلالة الغوري ، اشتهرت بأطلالها الرائعة ، ومساجدها ومعابدها الجميلة .

(٢) الأوباش : الأخلاط والسِّفْلة .

فهرس الموضوعات